قضايا ومفاهيم

في

ضوء الإسلام

دكتور أحمد عمر هاشم

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابـع ١٢ ش نوبـار لاظوغـلى ت: ٣٥٤٢٠٧٩

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة ت: ٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة ت: ٩١٧٩٥٩ }


بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد فإن هذا الكتاب يضم بحوثا ومقالات فى قضايا إسلامية وموضوعات متنوعة ، تستمد هديها من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

وقد نشرت فى مجلات إسلامية متعددة فى وطننا العربى والإسلامى ، واستجابة لرغبة بعض الإخوة الأفاضل فى جمعها فى كتاب ليتم النفع بها ، استعنت بالله تعالى ، وقمت بتقديمها للقراء ، داعيا الله تعالى أن ينفع بها كل من قرأها وأن يجزل المثوبة لمن جمعها ، وأن يجمعنا على الحق والرشد .

« وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المؤلف

أ.د أحمد عمر هاشم

وصايا القرآن الكريم بأمهات الفضائل

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١]

وقد سيقت هذه الآيات الكريمة بيانا من الله تعالى لما أحله وحرمه مما يتعلق بالاعتقاد والتشريع والأخلاق ، و القول والعمل .

وجاء ذلك أثر إفحام المشركين ورد ما افتروه من تحليل وتحريم ، وإقامة الدليل القاطع علي بطلان ضلالاتهم وأباطيلهم .. وكل ما أثاروه من شبه كانت نتيجة العقيدة الضالة ، فجاءت هذه الآيات لتحرر العقول من الشرك فى العقيدة والشرك فى القول والعمل ، وتطلقها من إسار الوثنية المظلمة إلى الإيمان بالله رب العالمين ، حتى يكون السلوك العملى على أساس من العقيدة الصحيحة ، وحتى يكون الدين كله لله .

وتنقسم هذه الوصايا إلي قسمين :

قسم يتصل بعلاقة الخلق بخالقهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥١-١٥٢)

وقسم يتصل بعلاقة الخلق بعضهم مع بعض :

أما القسم الأول : الذى يتصل بعلاقة الخلق بخالقهم ، فيقوم على الأصل الأول فى الدين وهو : التوحيد ؛ وذلك فى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وسر التصريح بعنوان الربوبية دون غيره مع الإضافة إلى ضميرهم فى قوله: « أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ .. » أن فى تذكيرهم وإشعارهم بأنه تعالى رب لهم ومالك لأمرهم، ومربيهم ومتصرف فى حياتهم وموتهم تصرفا مطلقا ، فى كل هذا أقوى الدواعى إلى انتهائهم عما نهوا عنه .

وفى النهى عن الإشراك بالله : توجيه إلى عبادة الله وحده لاشريك له : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[(١)] ﴾ لأنه سبحانه لايقبل من العبد عملا أشرك فيه سواه .

قال ﷺ : « إن الله وعز وجل لايقبل من العمل إلا ماكان خالصا وابتغي به وجهه»[(٢)] ويقول : « يأأيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تبارك وتعالى لايقبل من الأعمال إلا ماخلص له ، ولاتقولوا : هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شئ ولاتقولوا هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شئ[(٣)]» .

وفى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » .

وفى النهى عن الشرك بالله توجيه إلى العبادة والاستعانة به وحده فلا يسأل الإنسان غير ربه ولايستعين بمخلوق سواه ولايشرك فى الاستعانة به أحدا .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال[(٤)]: «كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله،

(١) سورة الكهف (١١٠).
(٢) رواه النسائي.
(٣) رواه البزار والبيهقي.
(٤) رواه الترمذي.

وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا علي أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

وفى رواية غير الترمذى : « احفظ الله تجده أمامك؛ ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وأعلم أن ماأخطأك لم يكن ليصيبك ، وماأصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

وإذا كان النهـى عن الشرك بالله يعنى هذين الأمرين من العبادة لله وحده ، والاستعانة بالله وحده ، فقد جمع هذان الأمران معا فى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب الكريم: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وقد حذر القرآن الكريم من الشرك ومن عاقبته الأليمة ونهايته الوخيمة فبين أن من جعل مع ربه ألها آخر سيكله الله إلى الذى أشركه معه ، وهو لايملك ضرا ولانفعا لأن الله وحده هو مالك كل شئ ، ولذا فنهاية من أشرك أحدا مع ربه أن يقعد « مذموما » على إشراكه « مخذولا » ، لأن الله لاينصره قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [(١)]

وفيما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلا وإما غنى عاجلا [(٢)]» .

وأما القسم الثانى : وهو مايتصل بعلاقة الخلق بعضهم ببعض فهو نوعان ، أحدهما يتعلق بالعمل ، والآخر بالقول .

أما مايتعلق بالعمل : فمنه مايتصل بالوالدين : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [(٣)].

---

(١) سورة الإسراء (٢٢).

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) الإسراء (٢٣).

ومنه مايتصل بالأولاد : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1]

ومنه مايتصل بالمال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾[2].

ومنه مايتصل بحرمة النفس : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[3] .

ومنه مايتصل بالكيل والميزان : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[4]

(ب) وأما مايتعلق بالقول : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[5]

ثم ختم هذه الوصايا كلها بتوحيد القلوب وجمعها حول دين الله والتمسك بكتابه والاعتصام بحبله ، فيقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[6]

الوصية بالوالدين

ونلاحظ أن الله سبحانه فى سياق تعداد المحرمات ، خالف فى التعبير بالنسبة للوالدين فلم يقل ولاتسيئوا إلى الوالدين بل قال : **«وبالوالدين إحسانا»**.

« فمن المعلوم أن الأمر بالشئ يستلزم النهي عن ضده ، فذكر الأمر وقصد لازمه ولم يقصد بهذا التعبير إلا المبالغة فى وجوب مراعاة حقوق الوالدين لأنه لو قال « ولاتسيئوا إليهما » ماكان هذا كافيا فى القيام بحقهما ، فمجرد ترك الإساءة لايفى فى جانبهما وأن مجئ الوصية بالوالدين عقب الوصية بالله ليدل على بالغ أهميتها ، قال تعالى فى سورة

---

(١) الأنعام (١٥١).
(٢) الأنعام (١٥٢).
(٣) الأنعام (١٥١).
(٤) الأنعام (١٥٢).
(٥) سورة الأنعام (١٥٢.
(٦) سورة الأنعام (١٥٣).

الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]

«وقال تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2]. وقال : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[3]

وفى السنة الشريفة توضيح لهذه المكانة العظيمة للوالدين وبيان أن برهما أحب العمل إلى الله بعد عبادته سبحانه .

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ : أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ».[4]

ولمنزلة الوالدين عند الله تعالى لم يقصر الله برهما فى حال حياتهما بل جعله ممتد الأواصر حتى بعد موتهما ، روى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ ، إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله هل بقى على من بر أبوى شئ بعد موتهما أبرهما به ؟ .

قال : « نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما [5]».

« رزقنا الله مثوبة برّ الوالدين ، ورحم الله والدينا والمسلمين أجمعين .

---

(١) سورة الإسراء (٢٣ ، ٢٤).

(٢) سورة لقمان (١٤).

(٣) سورة النساء (٣٦).

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه.

حقوق الأولاد

ثم انتقلت الآيات بعد الوصية بالوالدين إلى الوصية بحقوق الأولاد ، وفى التعبير بقوله:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ أى لاتقتلوهم بالوأد من أجل فقر ناجز موجود ، وتلاحظ الفرق بينه وبين التعبير فى سورة الإسراء بقوله : « خشية إملاق » أى فقر متوقع ، وإن كان هناك بعض الآراء أن التعبير الأول مثل الثاني ولكننا نرى أن قوله : « من إملاق » أى فقر حال ، فأبطل الله سببية هذا العمل ، حيث ضمن أرزاق الآباء والأبناء معا وقدّم الآباء هنا فقال ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وأما فى الآية الثانية : فلما كان الفقر متوقعا بسبب وجود الأولاد قدم الأولاد فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

وفى السنة الشريفة بيان للنهى عن ذلك وتوضيح لمثل هذه الجريمة الشنيعة. ففى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، قلت : يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أى؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أى ، قال : أن تزنى بحليلة جارك »[(١)] .

صيانة العرض

ثم تأتى الوصية بالعرض والشرف الإنسانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

وجاء النهى هنا عن الفواحش بصيغة الجمع ليشمل التحذير جميع أنواع الفاحشة كما فسرته الآية « مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » أى ما يقع منها علانية كما هو شأن أراذلهم ومايفعل فى السر باتخاذ الأخدان كما هو شأن أشرافهم .

وفى النهى عن قربانها زيادة فى التأكيد والمبالغة فى التحذير منها ولأن قربانها يدعو إلى مباشرتها .

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وفى سورة الإسراء نهى عن الزنا ومقاربته فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.(١)

وقد ورد فى السنة الشريفة بيان خطورة هذا الذنب وعظمه .

روى ابن أبى الدنيا بسنده عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبى ﷺ قال : « مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لايحل له » (٢).

وعن ميمونة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاتزال أمتى بخير مالم يفش فيهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب »(٣)

وقال العلامة أبو السعود فى تفسير سورة الأنعام : وتوسيط النهى عنها « أى الفواحش » بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا .. باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد فإن أولاد الزنا فى حكم الأموات ...

حرمة النفس

ثم تأتى بعد الوصية بالعرض الوصية بالنفس الإنسانية وبيان حرمتها بعد الوصية بالعرض فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وهى النفس الإنسانية التى حرم الله الاعتداء عليها لكونها معصومة بالإسلام أو بالعهد .

وأما قوله : « إلا بالحق » فهو الذى أمر الشرع به كالكفر بعد الإيمان ، أو الزنا بعد الإحصان ، أو قتل النفس المعصومة ، أو الاعتداء على جماعة المسلمين ، فحينئذ تهدر عصمة النفس الإنسانية .

---

(١) سورة الإسراء (٣٢).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا.
(٣) رواه أحمد.

وفى سورة الإسراء بيان لهذه الوصية واحترام للنظام الإلهى الذى قرره الإسلام حتى بالنسبة لولى القتيل فليس له الإسراف فى القتل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[1]

وفى السنة الشريفة بيان وتفصيل لهذه الوصية منها ما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[2] .

وماروا‌ه أصحاب السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم» .

تلك خمس وصايا بينة لأصحاب العقول ، واضحة كالشمس فى رائعة النهار ، يفهمها كل إنسان ويعقلها جميع الخلق ، فهى من الوضوح بمكان بحيث تقضى بها بديهة العقول ، ولذا ختمت الآية الكريمة بقول الله تعالى : «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لعلكم تستعملون عقولكم فى فهم هذه الوصايا وإدراك أهميتها فى الدين .

وهكذا نرى أن هذه الوصايا السابقة تضمنت : ١ – العقيدة ٢ ، ٣ الأسرة أصولها وفروعها « الآباء والأبناء » ٤ – العرض ٥ – النفس .

المـال

بعد هذا تتجه بنا الوصايا الإلهية إلى « المال » وكيفية استخدامه والتعامل الاجتماعى النظيف الذى لاتشوبه شائبة ما .

وتبدأ الوصية بمال اليتيم ، لأنه ضعيف الحال فنبه عليه ، وصرح بالنهى عن قربان ماله مبالغة فى النهى عن أكله إلا بالطريق الأحسن كالحفظ والتشمير إلى أن يصبح بالغا رشيدا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ كذلك

---

(١) سورة الإسراء (٣٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

حذر الله تعالى الوصى من سوء التصرف فى مال اليتيم بتبديل الخبيث من ماله بالطيب من مال اليتيم أو بأكل المال مضموما إلى ماله موضحا أن هذا إثم كبير فقال تعالى :
﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[1]

ومحافظة على مال اليتيم أمر الله تعالى إذا بلغ اليتيم - ألا يسلم له ماله إلا بعد اختباره للتحقق من حسن تصرفه فيه ، ونهى عن أكله « إسرافا » بصرفه فى غير الوجوه الصحيحة المشروعة ولو على اليتيم نفسه ، « وبدارا » بالاستعجال فى التصرف فى ماله حيث كانت فيه منفعة فيخشى الوصى فواتها إذا كبر اليتيم وأخذ ماله . كما بين أنه لابد من زيادة الحيطة فى المحافظة على المال بحيث لو كان غنيا فليعف عن الأكل من المال ، ولو كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، وحتى عند دفع الأموال إلى اليتيم لابد من أن يشهد الولى عليها لتتم براءة الذمة .

قال تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[2]

وبين الله تعال جزاء من يأكل أموال اليتامى ظلما بأن هذا يجرهم إلى النار وبئس المصير : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[3]

ثم تتدرج بنا الوصايا الإلهية إلى بناء اقتصادى سليم وحياة اجتماعية مثالية لاتصدع فيها من أثر الخيانة ولاحتكار فيها من أثر الجشع وشح النفس بل إنها معاملة تظللها الأمانة بما فى وسع البشر ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾

(١) سورة النساء (٢).
(٢) سورة النساء (٦).
(٣) سورة النساء (١٠).

وفى سورة الإسراء ورد مثل هذا النهى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [١]

وفى سورة المطففين : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله عز وجل :﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك .[٣]

(ب) مايتعلق من هذه الوصايا بالقول وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ إن العدل من أهم أسس المجتمع الإسلامى وبدونه تصبح الحياة فوضى لا استقرار ولا أمان فيها ، وإذا كانت هذه الوصية تنص على العدل فى القول حكومة أو شهادة أو غير ذلك فإنه مطلوب فى الأمر كله قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾[٤]

وحرم الله تعالى الظلم وبين عاقبته الوخيمة فى قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[٥]

وبين الرسول ﷺ نهاية الظلم يوم القيامة فى قوله « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم [٦]» .

---

(١) سورة الإسراء (٣٥).

(٢) سورة المطففين (١-٦).

(٣) رواه ابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

(٤) سورة النحل (٩٠).

(٥) سورة غافر آية (١٨).

(٦) رواه مسلم.

وإذا كانت فضيلة العدل وسطا فى الأمـور بين الإفراط والتفريط ، فإن الإســـلام يحرر هذه الفضــيلة من آفة الإـفراط كالمحاباة والمحســوبية ، لقرابة وغير ذلك فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[1]

ومن آفة التفريط التى تؤدى إلى التقصير بسبب الكراهية فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ – أى « ولايحملنكم » شَنَآنُ قَوْمٍ – أى شدة بغضكم لهم ﴿ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]

الوفاء بالعهد

ثم يأتى بعد ذلك : « الوفاء بالعهد » فى قوله تعالى :﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾

والعهد نوعان : عهد مع الله ، وعهد مع الناس .

أما عهد الله فهو الالتزام بشرعه وماعاهد المسلم ربه عليه من الأيمان والنذور .

وأما العهد الذى مع الناس فيكون بالتمسك بالالتزامات الصحيحة التى ينبغى التمسك بها بينهم فى سائر العلاقات والمعاملات قال تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[3]

وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾[4].

وقال : «**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**»[5].

ونقض العهد ليس من سمات المؤمنين ، لأنه يعمل على اهتزاز الثقة وتمزيق العلاقات ، بل إن نقض العهد من علامات النفاق وفى الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٢).
(٢) سورة المائدة آية (٨).
(٣) سورة الإسراء آية (٣٤).
(٤) سورة النحل آية (٩١).
(٥) سورة المائدة آية (١).

عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر »[1] .

واعتناء بأهمية العهد وتأكيدا للوفاء به جاء التعبير القرآنى الحكيم بتقديمه على الفعل . ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾

ولما كان الناس تجاه هذه الوصايا بحاجة إلى تفكر وتذكر وبحث واجتهاد وفى تحرى وجه الصواب والوقوف على أسس الاعتدال فيها ختمها الله تعالى بخطاب يحث على ذلك فى قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

خاتمة المطاف

أما نهاية المطاف بالنسبة لتلك الوصايا فهو إشارة إلى جميع ماذكر وتركيز لشريعة الله بما يتعلق منها بالأمر والنهى وتوجيه للاعتصام بحبل الله حتى لاتدب الفرقة بين المسلمين. ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

قال تعالي : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2]

بقي سؤال : هل هذه هى كل الفضائل التى يدعو الدين إليها ؟ وكل الوصايا التى يجب مراعاتها ؟

والجواب على ذلك : إن هناك فضائل أخرى وأخلاقا كثيرة ، ولكن الآيات الكريمة اقتصرت على أمهات الفضائل وأسس الأخلاق وغير هذه يندرج تحتها على طريق الإجمال عقيدة وشريعة وأخلاقا .

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

وفى ختام هذه الوصايا بيان إجمالى بها وبغيرها من الفضائل والوصايا التى لم تذكر ضمن المتلو عليهم وذلك فى قوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى ﴾ حيث أضاف الرسول ﷺ الصراط إلى ضميره ، ومعنى هذا انتسابه إليه من جهة السلوك والقول والعمل ، وهذا يفيد أن مالم يرد ذكره هاهنا ، وماكان مفصلا من الأوامر والنواهى يتعلق به عليه الصلاة والسلام وهو قائم على العمل به ومستمر على مراعاته ولنا فيه أسوة حسنة :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1]

وفى تعليل الاتباع بإضافة الصراط إلى الرسول ﷺ لا إلى الله فى هذا لفتة حكيمة فإن التعبير الشريف أراد أن يوجهنا إلى بيان سلوك الرسول ﷺ ، وفيه دعوة إلى اقتداء الناس به وعندئذ يتضح لديهم أنه صراط الله تعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[2]

ومعنى : ﴿ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أى لاتتبعوا الأديان الأخرى المتفرقة المختلفة ، أو سبل البدع وطرق الغوايات فتفرقكم عن السبيل المستقيم ، الذى لاعوج فيه وهو الإسلام . ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ . وهكذا تسمو بنا الوصايا الإلهية من فضيلة إلى أخرى ومن خلق إلى خلق حتى تتركز كلها فى الشريعة مجتمعة ، وفى الصراط المستقيم ، فيأمر الله تعالى باتباعه ، ويردف الأمر بالنتيجة وهى الوصول إلى تقوى الله تعالى فيتقى العبد غضبه وعذابه ، وناره وعقابه ، ويفوز برضاه ورحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ولايخفى مافى آخر كل آية من التنسيق البليغ والحكمة العالية ، حيث يتدرج بالإنسان من قوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ إلى ﴿ .. تذكرون ﴾ إلى ﴿ .. تتقون ﴾ إن هذا الترتيب البليغ يطلعنا على سُلَّم الهداية الإلهية تدرجا بالإنسان من العلم والمعرفة عن طريق العقل والبحث إلى درجة أسمى وهى التذكر والتدبر إلى درجة أسمى هى تقوى الله تعالى ، فالإنسان إذا عقل تفكر ثم تذكر أى اتعظ فاتقى محارم الله تعالى .

❀❀❀

(١) سورة الأحزاب آية (٢٠).

(٢) سورة النساء آية (٨٠).

أثر منهج المحدثين

فى المنهج الأوربى التاريخى الحديث

بعد تدوين السنة النبوية وازدهارها بعشرة قرون ظهرت فكرة مستحدثة فى أوربا تهدف إلى تحديد منهج جديد للتاريخ ، وعندما برز المنهج إلى حيز الوجود قوبل بالتقدير البالغ وتناقله الشرقيون على أنه جديد ، ولكنه فى الحقيقة مأخوذ من حيث الجملة من منهج المحدثين ومتأثر به ، ومع هذا فلم يصل المنهج التاريخى إلى ماوصل إليه منهج المحدثين الثقات الأخيار الذين جمعوا بين العلم والعمل ، ودفعهم إخلاصهم لعقيدتهم ، وحبهم لرسولهم – صلوات الله وسلامه عليه – إلى أن ينقلوا سنته الشريفة بحرص بالغ ، ودقة فائقة ، فأودعوها سويداء قلوبهم ، ونقشوها على صفحات صدورهم الأمينة ، متتبعين فى التحمل والأداء أقصى مافى الوسع الإنسانى ، ومترسمين أدق الطرق وأسماها حتى تـدون السنة نقية مشرقة ، وكيف لا وصاحبها هو حبيبهم ورسولهم – ﷺ – الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وسأقدم هنا المنهج التاريخى الحديث حتى يتبين لنا بالمقارنة أثر مناهج المحدثين وأئمة السنة فيمن جاء بعدهم ، وأثرها فى هذا المنهج الحديث ، وحتى يتضح أن هذا المنهج ليس له من القداسة ما لمناهج أئمة السنة النبوية الذين استجابوا لله وللرسول. يقول الدكتور محمود قاسم : «لم يتتبع القدماء الأوربيون» منهجا سليما فى دراسة التاريخ فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص ، وكانوا يجمعون الوثائق والروايات كيفما اتفق ثم يصهرونها ويصبونها فى قالب أدبى جذاب ، لكن علماء المسلمين عنوا عناية كبرى بنقد الرواة وبتمحيص طرقهم فى النقل ، ولاسيما فيما يتعلق بدراسة أحاديث الرسول – عليه الصلاة والسلام – وقد حدد ابن خلدون قواعد البحث فى التاريخ حتى ينهض به إلى مستوى العلوم الجديرة بهذا الاسم ، ثم اتجه الأوربيون إلى العناية بالدراسات التاريخية وبينوا القواعد التى يجب على المبتدئ احترامها، وانتهوا إلى تحديد مراحل البحث تحديدا دقيقا. أ. هـ.

مراحل البحث التاريخى
(التحليل والتركيب والعرض)

(أ) التحليل التاريخى :

١ - إذا انتهى الباحث من اختيار موضوع دراسته ، ومن جمع الوثائق الخاصة به بدأ يحللها ويمحصها . والتحليل نوعان خارجى وداخلى .

أولا : التحليل الخارجى :

وتتكون هذه المرحلة من عمليتن رئيستين هما :

(أ) نقد الوثائق :

لما كانت مادة التاريخ لاتقع تحت ملاحظاتنا بطريقة مباشرة .

ولما كانت الوثائق هى السبيل الوحيد إلى معرفتها فإنه يجب الحذر فى استخدامها والعناية بالتفرقة بين الصحيح والزيف منها . ونتبين ضرورة هذا النقد إذا علمنا أن الإنسان يميل بطبعه إلى تصديق الأخبار دون تمحيص ؛ إذ التصديق أقل مجهودا من المناقشة ، والتسليم أيسر من النقد ، وتكديس الوثائق كيفما اتفق أقل عناء من وزنها وتقديرها .

وقد بين العلامة « سينيوبوس » أنه يجب الحذر من بعض العادات العقلية كالميل إلى استخدام أول نسخة تقع فى أيدينا ، ولو كانت غير دقيقة ، وكالميل إلى الاعتماد على أقدم النسخ ولو كانت أردأ من النسخ الأقرب منها عهدا ، وكالميل إلى اتخاذ الأغلبية حكما إذا اختلفت النسخ فيما بينها ، مع أن هذا لايدل على شئ ألبتة .

(ب) التحقق من شخصية صاحب الوثيقة :

لاتكفى المقارنة بين مختلف النسخ ، بل لابد من الوقوف أيضا على مصدر كل وثيقة أين ومتى كتبت ؟ ومن كتبها ؟ وذلك لأنه لا فائدة من استخدام وثيقة تجهل

صاحبها ، وهذه العملية هامة جدا ، ولاسيما إذا كان المؤرخ يدرس إحدى وثائق العصور القديمة أو المتوسطة . فإن كتابها ماكانوا يعنون عناية المعاصرين بتوقيع كتاباتهم أو تحديد تاريخها وقد يسارع الباحث إلى تصديق نسبة إحدى الوثائق إلى أحد الكتاب إذا رأى أنها تحمل توقيعه ، لكن يجب الحذر من هذا الميل الساذج إلى معرفة التصديق ، فإن الانتحال أمر مألوف وأسبابه عديدة ، ونحن نعلم أن بعض فراعنة مصر لم يتورعوا عن محو أسماء سابقيهم ونسبة آثارهم إلى أنفسهم . حقا إن خير وسيلة إلى معرفة شخصية الكاتب هى التحلل الداخلى ، غير أنه يجب الاعتماد ، قبل ذلك ، على بعض العلاقات الخارجة كالخط والورق واللغة ، وكثيرا ماتكون دلالة هذه العلامات حاسمة فتقرر تزوير الوثائق أو انتحالها ، فإن كثيرا من المزيفين لايتخذون جميع أسباب الحيطة فيستخدمون كلمات وجملا وألوانا من الأساليب التى لم تكن مألوفة فى العصر الذى ينسبون الوثائق إليه ، كذلك تجب المقارنة بين الوثائق المختلفة ؛ فإن ذلك يزيدنا علما بالظروف التى دونت فيها الوثائق الصحيحة ، وبمواضع التزييف أو التحريف فى غيرها ، وتستخدم المقارنة أيضا فى التفرقة بين النص الذى اشترك فى كتابته أفراد عديدون ، لأن اضطراب الأسلوب أو عدم تجانسه دليل على تعدد كاتبى الوثيقة ، أو على أن بعضهم ينقل عن بعض ، وتؤدى هذه العملية إلى بعض النتائج السلبية ، إذ تبين لنا أن بعض الوثائق مزور أو منقول ، وأنه لافائدة من استخدامه ، لكن يجب الاعتدال فى النقد فإن بعض دارسى الوثائق يغالون فى النقد فيرون التحريف والتزوير والطلاسم فى كل مكان على الرغم من وضوح النصوص التى يدرسونها .

ولذا يجب الوقوف عند حد معلوم وإلا انتهى الأمر إلى الشك المطلق ، وهناك آخرون ينقدون لمجرد النقد ، وكلما انتهوا من وثيقة بحثوا عن غيرها ظانين أن التاريخ نوع من الرياضة العقلية ، وأن أهمية الوثيقة لاتقاس بما تحتوى عليه من حقائق بل بما تثيره من صعوبات .

ثانيا – التحليل الداخلى :

ويطلق على مجموعة العمليات التى يستخدمها الباحث فى فهم محتويات الوثائق ، وتقدير الظروف التى أحاطت بكتابتها ، ويتكون التحليل الداخلى من نوعين :

(أ) تحليل داخلى إيجابى :

ويستخدم للتفرقة بين العناصر الأولية التى يحتوى عليها النص التاريخى تمهيدا لفهم كل عنصر على حدة ، وللوقوف على المعنى الحقيقى الذى ترمى إليه الألفاظ والعبارات .

(ب) تحليل داخلى سلبى :

ويتمثل فى دراسة الظروف التى وجد فيها كاتب الوثيقة أو شهادة الآخرين الذين رأوا الظواهر أو الحوادث التاريخية ، كما تتمثل فى دراسة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية الداخلية التى ربما تدعو إلى الكذب أو تؤدى إلى الخطأ ، والقاعدة العامة تنص على وجود الشك فى كل راو حتى تتوفر بعض الأسباب القوية التى تدعو إلى الثقة به ، وهذا يحتاج إلى جهد كبير .

وقد حدد « سينيوبوس » القواعد العامة التى يجب اتباعها فى هذه الحالة ووضعها على هيئة مجموعتين من الأسئلة تمس إحداهما الدوافع التى تعود إلى الكذب ، وتمس الأخرى البواعث التى ينشأ عنها الخطأ ، وتتكون المجموعة الأولى من الأسئلة الآتية باختصار.

١ - هل أراد صاحب الوثيقة تحقيق مصلحة خاصة ؟ وهل أراد أن يخدع القارئ .

٢ - هل كان الراوى ينتمى إلى جماعة خاصة يميل إلى نصرتها ويبرر سلوكها ويظهرها فى وضع مشرف ؟

٣ - هل وجد الراوى فى مركز أو ظروف أكرهته على الكذب ؟

وهذا مايحدث عندما لايتفق الصدق مع السياسة العامة للدولة ؟

٤ - هل جره الضرر بشخصه أو بجماعته إلى الاختلاق والتحريف ؟

٥ - هل أراد الراوى التقرب إلى الجمهور وتملقه وإثارة عواطفه ؟

٦ - هل حاول صاحب الوثيقة التأثير فى الجمهور بأسلوبه الأدبى ؟ وهل شوه الحقائق عندما ألبسها ثوبا أدبيا ؟

وأما عن البواعث التى ينشأ عنها الخطأ فتتلخص فى مجموعة من الأسئلة الآتية : -

١ - هل كان الكاتب فى حالة عقلية تسمح له بملاحظة الحادثة ؟ وهل سلم من بعض العوامل التى تدعو إلى الخطأ كالوهم ؟

٢ - هل تحققت الشروط العلمية فى الملاحظة ؟ وهل كان خاليا من الهوى ؟ وهل فهم ماسمع أو رأى ؟

٣ - هل أصدر حكمه على حوادث صرفه الكسل أو الإهمال عن ملاحظتها ؟ وهل ذكر أمورا لم يرها ولم يسمع عنها شيئا بل استنبطها بخياله ؟

٤ - هل كانت طبيعة الحادثة تسمح بملاحظتها؟ لأن بعض الحوادث تحاط بالكتمان.

وينتهى التحليل الداخلى بنوعيه : الإيجابى والسلبى إلى تقرير بعض النتائج الجزئية المبعثرة المنعزلة ، وإنما كانت كذلك لأنها تتصل بأمور مختلفة تذكرها الوثائق دون ترتيب .

(ب) مرحلة التركيب التاريخى :

تقوم مهمة المؤرخ بعد هذا بالتركيب التاريخى ويتخلص فى الآتى :

أولا - جمع المعلومات وتنظيمها على أساس طبيعتها الداخلية فيقسمها إلى ظواهر لغوية وعلمية ودينية .. إلخ . وعلى أساس طبيعة الشروط الخاصة المتصلة بمظاهر النشاط الإنسانى كالعادات المادية : من مأكل وملبس ونظم اجتماعية .

ثانيا - الاجتهاد : وقد أباحوا فى منهجهم الحديث أن يستخدم المؤرخ الخيال لسد الفجوات فى التاريخ بشرط أن يكون مقيدا بنتائج التحليل .

ثالثا : التعليل : وذلك بربط النتائج جميعها عن طريق بيان العلاقات التى توجد بينها .

(جـ) مرحلة العرض :

ونظرة المحدثين إلى التاريخ على أنه وصف للحضارة ، أى لمختلف مظاهر النشاط الإنسانى غير اتجاههم فى طريقة عرضه فجعلوا يستخدمون أساليب واضحة بريئة من طابع الخطابة أو الإنشاء أو الفلسفة ، ويرجع الفضل فى هذا الاتجاه الجديد إلى المؤرخين الذين

بدأوا محاولتهم على استحياء فى القرن التاسع عشر ، وبالجملة لم يعد العرض التاريخى يرمى إلى إمتاع القارئ أو إسداء النصح إليه أو إثارة عواطفه . بل إلى مجرد المعرفة. وليس معنى هذا أن يتحرر المؤرخ من كل قيد ، فمن الواجب أن يستخدم لغة واضحة دقيقة حتى يستطيع تحديد تلك الظواهر الإنسانية المرنة . ويمكن القول بأن المؤرخ لايمكنه العمل إلا إذا أجاد اللغة وإلا إذا ابتعد عن استخدام تلك الألفاظ التى تدل على معان مجردة أدعى إلى الغموض واللبس منها إلى الوضوح .

نقد المنهج التاريخى ومقارنته بمنهج المحدثين :

أولا – من ناحية نقد الوثائق : وأما بالنسبة لنقد الوثائق فإن أصحاب المنهج الحديث يرون وجوب الحذر فى استخدامها ، كالحذر من استخدام أول نسخة تقع لديهم أو الاعتماد على أقدم النسخ ، أو الميل إلى اتخاذ حكم الأغلبية . وبفحص هذه الطريقة لم نجد للوثيقة اتصالا إلى صاحبها الأول وكاتبها ، وكل مايعنون به إنما هو الحذر من استخدامهم لأول نسخة أو الاعتماد على أقدم النسخ أو اتخاذ حكم الأغلبية فكأنهم يدرسون ظاهرة الوثيقة كما هي أمامهم دون تتبع طرق وصولها إلى أيديهم فأين هذا من منهج المحدثين الذى تقوم الرواية فيه على نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبى – ﷺ – مع الاتصال ، ولاشك أن الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية .

وأما هذا الذى وجهوه إلى نقد الوثائق من حيث الحذر فى استخدامها ... إلخ فقد تأثروا فيه ببعض طرق المحدثين ، ولكنهم لم يصلوا إلى ماوصل إليه المحدثون حيث وضعوا للحيطة والمحافظة على الحديث أدق ماوصل إليه النقد القديم والحديث ، ووضعوا قرائن تدل على الوضع فى المتن منها إقرار واضعه ، وركاكة اللفظ ، وفساد المعنى ، ومناقضة الخبر للكتاب والسنة ، ومخالفته للحقائق التاريخية ، ومخالفته للعقل وغير ذلك .

وبتلك الدراسات الحديثة تكونت الملكات العلمية عند المحدثين فكانوا يدركون الحديث الصحيح فى ثوبه الإلهى ، وبضوئه المشرق ، ويعرفون المنكر فيقشعر منه جلدهم وتنفر قلوبهم منه .

كما قام رجال السنة بحصر الأخبار الموضوعة ، وحكموا على بعض الأ- بالشذوذ والنكارة والاضطراب والوضع والاختلاق .

ثانيا : من ناحية التحقق من شخصية صاحب الوثيقة :

ولما كانت طرقهم فى ذلك لاتوصلهم إلى بعض النتائج الإيجابية ، ولاتوقفهم على كيفية استخدام الوثائق الجيدة ، فإننا نرى « سينيوبوس » يعيب على من يشك عند وضوح النص ، ويحرم الإسراف فى النقد الواضح للناس ، ثم يقرر كل من « دونو » و « فريمان » وسينيوبوس أن هناك من الكتب ماهى صحيحة معتمدة مسلم بصحتها عندهم ولم يصل الشك إليها فى رأيهم ، وهى كتب كبار كتابهم وفلاسفتهم ، ثم يرون أنه من الضرورى قراءتها ، فمن وسائل منهجهم الاستعانة بالعلوم المساعدة التى تعين الباحث على فهم الوثائق التاريخية وهى كتب كبار الكتاب والفلاسفة ، فياليت التابعين للفكر الغربى وللمستشرقين ينظرون إلى مايقوله هؤلاء فى منهجهم لوضوح النص فقط فكيف بالنص النبوى الشريف الذى توافرت فيه شروط الصحة ، وتوافر لصاحبه أسمى صفات الصدق والثقة ، حتى دونت السنة النبوية على أدق المناهج والمقاييس العلمية ؟ أو ليس أولى بكتب السنة إذاً الاعتراف بها وخاصة أن رواتها قد جمعوا الشروط العالية : الإسلام ، والعقل ، والصدق وعدم التدليس، والضبط ، والعدالة (فيكون الراوى مسلما بالغا عاقلا خاليا من أسباب الفسق وخوارم المروءة) وألا يكون سفيها به حمق وعدم اتزان ، وألا يكون عابدا لايزن الأمور بدقة ، وألا يكون صاحب بدعة يدعو إليها .

قال الإمام مالك : لايؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم : لايؤخذ من سفيه ، ولايؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، وإن كان لايتهم على حديث رسول الله ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لايعرف مايحمل ومايحدث به .

ثالثا : من ناحية التحليل الداخلى الإيجابى :

يرى أصحاب المنهج الحديث أنه لاضرورة إلى تحليل الوثائق الخاصة بالعصور الحديثة ، تحليلا تاما لقرب لغتها من لغة المؤرخ ، ويكتفون بالتحليل بالنسبة لوثائق العصرين: القديم والوسيط .

فأين هذه من المناولة فضلا عن السماع عند البخارى والمحدثين .

رابعا : من ناحية التحليل الداخلى السلبى:

ويتمثل فى دراسة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية الداخلية التى ربما دعت المؤرخ إلى الكذب أو الخطأ .. وفى الواقع أن أصول هذه المبادىء مأخوذة من المحدثين إلا أنها قاصرة ولم تبلغ شأن مبادئ المحدثين لطول الزمن عليها ، ولعدم قداسة المعلومات بالنسبة لما فيها ، أما المحدثون فقد بينوا أسباب الكذب والوضع ، منها الزندقة ، والخلافات السياسية ، والتعصب العنصرى ، والخلافات الفقهية والكلامية ، وماصنعه بعض القصاص من استهواء العامة واتباع هوى الملوك والأمراء .

خامسا – من ناحية التركيب التاريخي :

فنراهم يبيحون للمؤرخ استخدام الخيال لسد فجوات التاريخ بشرط أن يكون مقيدا بنتائج التحليل ، وهذا لايقبله المحدثون ولايرضى منهجهم أبدا بحال من الأحوال .

سادسا – من ناحية العرض :

فقد صاغه المحدثون فى شروط دقيقة هى : الإسلام ، والثقة ، والعدالة ، والضبط ، وألا يكون متبعا لبدعة يدعو إليها .... إلخ .

كما تميزت طرق التحمل والأداء عند المحدثين بالدقة الفائقة التى لايمكن أن يصل إليها أصحاب المنهج التاريخى ولاغيرهم . ومثال هذه الطرق :

١ – **السماع** : من صيغ الأداء عن هذا الطريق سمعت أو سمعنا .

٢ – **القراءة** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق قرأت على فلان ، وقرئ على فلان وأنا أسمع .

٣ – **الإجازة** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق أجازني أو أجازنا فلان .

٤ – **المناولة** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق ناولنى أو ناولنا فلان من الإجازة .

٥ – **المكاتبة** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق كتب إلىّ أو إلينا فلان .

٦ – **الإعلام** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق أعلمنى وأعلمنا فلان .

٧ – **الوصية** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق أوصى إلىّ أو إلينا فلان ، وحدثنى فلان بالوصية .

٨ - **الوجادة** : ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق وجدت بخط فلان ، إذا عرف الخط ووثق به . أما أصحاب المنهج التاريخى فيعتمدون فى صحة وثائقهم على الحفريات والأوراق المتناثرة التى قد تكون منذ آلاف السنين ، ولايعترف بها رجال الحديث ، وأين هذه الأمور مما اشترطه المحدثون من طرق التحمل والأداء ، ولو أن أصحاب هذا المنهج التاريخى اشترطوا شروطا كشروط المحدثين أو صاغوا مناهج كمناهجهم ماكان ليصلهم شيء من تاريخه القديم والأوسط وأكثر العصر الحديث ، بل ولاثبت عندهم من كتبهم التى عدوها أصولا فى نظرهم شئ ما .

وأني لهم ذلك ؟ والمحدثون في دقتهم وتحريهم قد وصلوا إلى درجة عالية فيها ، فها هو الإمام البخارى يقول : كتبت عن ألف ثقة من العلماء وزيادة وليس عندى حديث لا أذكر إسناده[١] .

وقال أيضا : لم تكن كتابتى للحديث كما كتب هؤلاء. كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبه وحمل الحديث إن كان الرجل فهما فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته . أما الآخرون فلا يبالون بما يكتبون وكيف يكتبون ، ولم يكن من بين أهل الحديث من يحابى فى الحديث أباه ولاأخاه ، ولا ولده - كشأن غيرهم ، وهذا على بن المدينى شيخ البخارى ولا يروى عنه حرف واحد فى تقوية أبيه ، بل يروى عنه ضد ذلك[٢] .

هذا بالإضافة إلى أن المحدثين يقدمون الحديث متنا وسندا بكامل رواته ، فيبحث عنه من شاء الاستيثاق به ، ليراه موصولا فى موضع آخر ، وعن رواة آخرين ثقات وهكذا . أما أصحاب المنهج التاريخى الحديث فيطبقون منهجهم فيما بينهم ولايوقفون القارئ على خطوات بحثهم .

وهكذا نخلص من مقارنة المنهج التاريخى بمنهج المحدثين بما لمنهج المحدثين من أثر عظيم فيه ، وبما له من جلالة قدر ، وسمو فى مجال النقد العلمى ، وهكذا كانت مكانة السنة النبوية عند أئمة الحديث وأهميتها فى نفوسهم وقداستها وحرمتها وقيامهم عليها بالحفظ والعناية ، والضبط والصيانة ..

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٩ .

(٢) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى ص ١٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

من حرم زينة الله التى أخرج لعباده

لقد خلق الله تعالى الخلائق أنواعا مختلفة ، تحمل دلائل القدرة الإلهية ، وأسرار العظمة الربانية ، فمِنْ خَلْقِ الله تعالى : من هم روحانيون كالملائكة لايأكلون ولايشربون ولايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون .

ومِنْ خَلْقِ الله تعالى : من هم ماديون كالدواب والحيوانات فهى مخلوقات غير مكلفة وغير عاقلة ولاروحانية .

ومن الخلق من هم وسط بين الروحانية والمادية وهم البشر بنو آدم فهم يأكلون ويشربون ، وأيضا يعبدون ربهم ومكلفون فجمعوا بين الأمرين ، وكما أنهم وسط فى خلقهم فقد كانوا كذلك فيما كلفوا به فقد حدد الله الغاية من خلقهم فى قوله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]

وأباح لهم إلى جانب هذا التكليف بالعباة أن يأخذوا زينتهم وأن يستمتعوا بالطيبات من الرزق .

فقال جل شأنه : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٢) سورة الأعراف آية (٣١, ٣٢).

وفى الآيات الكريمة نداء من الله تعالى للمؤمنين أن يأخذوا زينتهم من اللباس والرياش وماخلق لهم عند كل عبادة من العبادات فى الصلاة أو فى الطوائف ، كما يناديهم كذلك بأن يتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف ولاتبذير .

عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس والحمس قريش وماولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا فيعطى الرجال الرجال والنساء النساء .

وقيل أن العرب فى الجاهلية كانوا لايأكلون دسما فى أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ويطوفون عراة فقيل لهم: خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا. أى لاتسرفوا فى تحريم مالم يحرم عليكم .

والإسلام لارهبانية فيه ، وإنما هو دين وسط ، لا إفراط فيه ولاتفريط ، ولقد وضح الرسول ﷺ نهج الإسلام فى الاعتدال فى الأمور وعدم التشدد عندما سأل نفر من أصحابه عن عمله فى السر فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فقال أحدهم أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الآخر وأنا أقوم ولا أقعد وقال الثالث وأنا لاأتزوج النساء فقال الرسول ﷺ : مابال أقوام قالوا كذا وكذا لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى[(١)] .

إنها نعم الله تعالى التى يحب أن يرى أثرها على عباده وأن يستمتعوا بها حلالا طيبا، « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[(٢)] » إنها النعم التى لاتحصى .

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[(٣)]

وإلى جانب النعم الحسية والمادية التى يستمتع بها الناس من طعام وشراب ولباس فهناك نعم الحواس والجوارح التى أنعم الله بها على عباده فمنحهم الجوارح والحواس

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد بن حنبل والترمذي.
(٣) سورة إبراهيم آية (٣٤).

والقلوب والعقول فلكل إنسان أعطى الله نعما كثيرة : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1]
إنها النعم الظاهرة الواضحة ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

وإلى جانب هذه الجوارح وتلك الحواس كانت النعمة الكبرى ، والمنحة الربانية التى بها يميز الإنسان بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الهدى والضلال ، تلك النعمة هى نعمة العقل التى ميز الله تعالى بها الإنسان عن غيره من الحيوانات والجمادات ، ولكم نوه القرآن بهذه النعمة ليستعملها الإنسان استعمالا صحيحا فى الخير لا فى الشر فى الحق لا فى الباطل فى الهدى لا فى الضلال ، فينبه الإنسان بين الحين والآخر قائلا :
﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3] ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4]

وهكذا يشير القرآن إلى استعمال نعمة العقل وإلى الاسترشاد بها إلى الحق والهدى والنور .

وقال تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5]

هذا وإن نعم الله لاتحصى .

ولقد أمر سبحانه بذكره وشكره ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[6]

وقال تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[7] فشكر الله على النعم سبيل لزيادتها ، وطاعة الله تعالى طريق إلى بقاء النعم فاستبقاء النعم إنما يكون بطاعة الله .

إذا كنت فى نعمة فارعها

فإن المعاصى تزيل النعم

---

(1) سورة الذاريات آية (21) .
(2) سورة البلد آية (8-10) .
(3) سورة الزمر آية (9) .
(4) سورة يونس آية (3) .
(5) سورة البقرة آية (269) .
(6) سورة البقرة آية (152) .
(7) سورة إبراهيم آية (7) .

قال ﷺ : «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولايحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله فإن الله لاينال ماعنده إلا بطاعته»[1] .

وإن الإسلام دين النظافة والحسن والتجمل فى غير إسراف ولاتصنع ، قال رسول الله ﷺ : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، فقال : « إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس[2] » .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3]

ونادى الله تعالى : المؤمنين ألا يحرموا ماأحله الله لهم من الطيبات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4]

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون فقال له : ألك مال ؟ قال : نعم قال : من أى المال ؟ قال : من كل المال قد أعطانى الله تعالى قال : « فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته[5] » ..

وإن التمتع بالطيبات دون إسراف والتجمل دون غرور تلبية للتكريم الذى حبا الله به الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[6]

وقد أباح الإسلام التمتع بالطيبات من طعام وشراب ، ولكنه نهى عن الإسراف فيها وحرمه ، وقال على بن الحسين بن واقد : جمع الله الطب فى نصف آية فقال :

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة القصص آية (٧٧).
(٤) سورة المائدة آية (٧٨).
(٥) رواه النسائي.
(٦) سورة الإسراء آية (٧٠).

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1]

وكما أباح الله الاستمتاع بالطيبات وحرم الإسراف فيها فقد وضحت السنة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام المنهج السليم للجسم السليم فقال عليه الصلاة والسلام : « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه[2] » .

وكما أباح الطيبات أيضا فقد حذر من الاستمتاع بالحرام وعدم الطيب لأنه لاينفع معه دعاء ولا عبادة ، وفى الحديث قول الرسول ﷺ : « إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[3] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾[4] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك[5] » ؟

ولقد جعل الإسلام لإنفاق المال والتمتع بالطيبات ضابطا هاما وهو أن يكون « فى الحق » أى فى الطاعات والوجوه المشروعة ، لا أن يكون فى السبل المحرمة ولا بالتبذير قال ﷺ : « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها[6] » .

كما يشترط فى المال الذى يغتبط عليه صاحبه أن يكون مجموعا من الحلال لاغش فيه ولاشبهة .

قال ﷺ : « لا تغبطن جامع المال من غير حله فإنه إن تصدق لم يقبل ومابقى كان زاده إلى النار[7] » .

---

(١) سورة الأعراف آية (٣١) .
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٣) سورة البقرة آية (١٧٢) .
(٤) سورة المؤمنون آية (٥)
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفيما أخرجه الطبرانى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت عند رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[1]

فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال النبى ﷺ ياسعد : أطب مطمعك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل الله منه عملا أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

❁❁❁

(١) سورة البقرة آية (١٦٨) .

من خصائص بيت النبوة

لبيت النبوة سماته وخصائصه التي هيأه الله تعالى بها وميزه لحمل تراث النبوة وحيا إلهيا ، وليس المال ولازخرف الحياة الدنيا ولامباهجها الزائفة وعرضها الزائل ، وذلك ليكون المثل الأعلى والقدوة الحسنة فى الرضا والقناعة وفى الصبر والاحتمال .

وقد كان رسول الله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم فهو الرءوف بهم العطوف عليهم وكانت أزواجه أمهاتهم فى التوقير والإكبار وفى الإكرام والاحترام قال تعالى : –

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال – « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم – ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه (٢)

ولقد ضرب صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثلة فى حياة التقشف والزهد والقناعة والرضا ، وجعل من نفسه وبيته المثال المحتذى والأسوة الحسنة فى العزوف عن الدنيا وعن الغرور بها وفى الإعراض عن زهرتها . وإنما أخذ نفسه وأهله بالتقشف والزهد والقناعة لدرجة أنه لم يشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز عن عائشة رضى الله عنها قالت : – ماشبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله (٣) – بل إنه صلوات الله وسلامه عليه لم يشبع هو وأهل بيته من خبز. الشعير ، عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال : هلك رسول الله ﷺ لم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير (٤) . وكانت بيوته

---

(١) سورة الأحزاب آية (٦).
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الترمذي.

عليه الصلاة والسلام على درجة عالية من الرضا والقناعة لاسيما عندما كان العيش قليلا .. ولايوجد لدى أمهات المؤمنين من الأطعمة مايطهى بالنار مدة طويلة . عن عائشة رضى الله عنها قالت لعروة : يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت : ياخالة ماكان يعيشكم قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا[1] ..

وكان هذا الزهد والتقشف وحياة القناعة والخشونة مثلا يحتذى ، فى الصبر والرضا ، إنه يجوع يوما فيصبر ويشبع يوما فيشكر ويعيش حياته بين التضرع والدعاء والشكر والثناء .

قالت عائشة - رضى الله عنها - (ولقد مات ومافى بيتى شئ يأكله ذو كبد إلاشطر شعير فى رفّ لى .

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت : لايارب ، ولكنى أشبع يوما وأجوع يوما . فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك[2] .

ولقد أخذ صلوات الله وسلامه عليه حياته على هذا النحو ، على الرغم مما كان فى وسعه من أن تكون له بطحاء مكة ذهبا .. ولكن الرضا والقناعة والأسوة الحسنة التى يجب على أمته أن تتوخاها فلا تغرها الحياة ولايغرها بالله الغرور .

فلقد عرض عليه كبراء القوم مقاليد الأمر وعرضوا عليه المال والجاه والسلطان والسيادة ولكنه رفض بإباء وقوة لانظير لها ، لأنه ليس طالب مال ولاجاه وإنما جاء إلى الحياة وأرسل إلى الناس شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وكانت هذه الحياة إعدادا أو تهيئة للدار الآخرة ، وليكون بيت النبوة مثالا يحتذى وقدوة للناس . وحين طلب أمهات المؤمنين من رسول الله ﷺ النفقة نزلت آية التخيير تخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة . عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بى رسول الله ﷺ فقال : ياعائشة إنى عارض عليك

---

(١) رواه البخاري.

(٢) فيض القدير (٣١١/٤).

أمرا فلا تفتنى فيه بشئ حتى تعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رومان رضى الله عنهما ، فقلت يارسول الله ماهو ؟ قال ﷺ قال الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [١]

قالت : فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ولا أؤامر فى ذلك أبوى أبا بكر وأم رومان – رضى الله عنهما – فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحجر فقال «إن عائشة رضى الله عنها قالت : كذا وكذا فقلن ونحن نقول مثل ماقالت عائشة» رضى الله عنهن كلهن [٢] .

ومما اختص الله به أمهات المؤمنين أن من يأت منهن بفاحشة مبينة – وهى النشوز وسوء الخلق – يضاعف لها العذاب ضعفين فى الدنيا والآخرة ، وأن من يطع الله ورسوله منهن يؤتها أجرها مرتين قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [٣]

ويمتن الله عليهن بلطفه ، حيث خصهن ببلوغ تلك المنزلة وأنهن أهل لذلك حيث أنعم الله عليهن بأن جعلهن فى بيـوت تتلى فيها آيات الله تعالى والحكمة. قال سبحانه:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [٤]

ويعرج على هذا الأمر الأستاذ عباس العقاد رحمه الله حين يتحدث عن خصوصية زواج الرسول ﷺ رادا فرية المفترين على مقام النبوة فيقول : لم تكن تلك الخصوصية لتمكين صاحبها من المتعة والاستغراق فى مناعم الحياة الزوجية فإن البيت الذى يشكو نساؤه قلة المؤونة والزينة ، لايقال عنه : أنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده،

(١) سورة الأحزاب آية (٢٨, ٢٩).
(٢) رواه ابن أبي حاتم .
(٣) سورة الأحزاب آية (٣٠, ٣١).
(٤) سورة الأحزاب آية (٣٤).

ولايمد يده لاغتراف الثروة التى تكفى زوجاته وتملى لهن فى الترف والزينة ، لن يكون رجلا مغلوب الحس منساقا مع غواية المتعة ووساوس الشهوات ، وليس بالرجل المخلوق لطلب اللذة من ينهض بما نهض به نبى الإسلام من عظائم الأمور على مدى سنوات معدودات .. إلخ .

وليس معنى هذا أن فى الإسلام دعوة إلى القلة والفقر أو أن فيه حجرا على التمتع بطيبات الحياة وإنما هى القدوة المثلى والأسوة الحسنة والنماذج العالية التى رباها الإسلام فاستهانت بزخارف الحياة ومتعها ، وأقبلت على ربها وعلى دعوة الإسلام غير مكترثة بمال أو جاه أو ثراء أو عرض من زينة الحياة الدنيا .

أما حقيقة الدين فهى تجمع متطلبات الجسم والروح والدنيا والآخرة قال الله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1]

ومن خصائص بيت النبوة ، أن الذى يتركه النبى ﷺ من المال يكون صدقة فلا يسرى عليه مايسرى على أموال سائر الناس من الميراث ، فقد قال ﷺ : « إنا معشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة [2]» وأما قول الله تعالى – حكاية عن زكريا ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[3]

فلم يرد يرثنى مالى وإنما أراد أن يرثه الحبورة لأنه كان حبرا ، ويرث من آل يعقوب ، أى يرث الملك . وأما قوله تعالى : « **وورث سليمان داود** [4]» فالمراد: ورثه الملك والنبوة والعلم وكلاهما كان نبيا وملكا ، ومن الأدلة ، أيضا على أن رسول الله ﷺ لايورث أنه كان لايرث بعد أن أوحى الله إليه وإنما كانت وراثته أبويه قبل الوحى .

---

(١) سورة الأعراف آية (٣١،٣٢).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) سورة مريم آية (٥،٦).

(٤) سورة النمل آية (١٦).

وأما منازعة فاطمة ، أبا بكر رضى الله عنهما فى ميراث النبى ﷺ فليس بمنكر لأنها لم تعلم ماقاله رسول الله ﷺ وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم فلما أخبرها بقوله كفت » .

وشـاء الله تعالى ، أن يكون بيت النبوة نموذجـا عاليا فى الصبر ، وفى الزهد والتقشف ، حتى يكون أسوة لغيره ، ولأهل الإيمان على ظهر الأرض ، ولقد كان لبيت النبوة خصائصه الكريمة ، ومميزاته التى تميزه على غيره ..

فهو المثل الأعلى فى الاحتمال والصبر ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه هو الأسوة الحسنة فى كل الأمور ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]

❁❁❁

(١) سورة الأحزاب آية (٢١) .

استقلال الشخصية الإسلامية

من الملامح البارزة فى حياة الإنسان المسلم : استقلال شخصيته ، فهو يعتنق الحق ويسير على ضوئه ، ويعمل فى دائرته ، دون أن يكون هناك أى تأثير خارجي عليه ، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله ، فإحسانه لنفسه ، وإساءته لها ، وقد غرس الإسلام فى نفسه أصول الحق ليتبعها : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[1] وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم ، مبينا له : أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته ، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته ، فلا ينجي اهتداؤه غيره ، ولايردى ضلاله سواه ، وكل نفس وماحملت من وزرها ، فلا تحمل وزر نفس أخرى ، ولكل استقلاله وجزاؤه على حدة ، قال سبحانه : «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى»[2]

وقد نص القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف وتجافيهم عن الحق ، وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولايفهم له معنى ، فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى ، ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء ، كمثل الصم البكم ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3]

وهذا الصنف من الناس : لم يعط شخصيته استقلالها ، ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق ، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة ، توثقها العادات البالية ، وتمتهن كرامتها وإنسانيتها ، وتتابع السنة الشريفة شخصية المسلم فى سلوكها بالتقويم

(١) سورة الإسراء آية (٧) (٢) سورة الإسراء آية (١٥).

(٣) سورة البقرة آية ١٧١ ,١٧٢).

والتهذيب ، لئلا تتأرجح بين مد الحياة وجذرها ، فتتدهور قواها المعنوية ، متابعة كل ناعق، ومنادية كل إنسان : أنا معك ، محسنا كان أو ظالما ، روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » . فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادا محكما ، وهيأه لأسباب الحق والفلاح بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه ، وللشر حتى ينأى عنه ، فليس للمسلم أن يكون إمعة ، ولم تعد له حجة ، فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه ، فكيف به يقف على مفترق الطرق ، يميل مع رياح الحياة حيث تميل ؟!. لقد سوى الحق نفسه وألهمها فجورها وتقواها ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(١)

وفى استقلال الشخصية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسان ، فلا يتأثر بالعوامل الخارجية ، والمؤثرات المحيطة به ، فإذا كان قاضيا أو شاهدا أو مدرسا أو قائما بالإصلاح بين الناس أو مقوما لأعمال البعض أو ما إلى ذلك من مسالك الحياة التى يرتادها ، فإن عليه أن ينظر إلى الحق ، بغض النظر عن أى عامل آخر أو أى مؤثر خارجى ، فإذا قام بالحكم بين الناس أو القضاء بينهم ، أو طلب منه أداء شهادة أو فصل فى خصومة، فعليه أن يتحرى جانب الحق فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسب أو غير ذلك، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾(٢)

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على استقلال الشخصية فى قول العدل دون التأثر بصلة القرابة ، أو مايدعو إلى الانحياز ، فكذلك حذر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعى الانحراف عن العدل والحق ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣)

---

(١) سورة الشمس (٧-١٠).
(٢) سورة الأنعام (١٥٢).
(٣) سورة المائدة (٨)

فشخصية المسلم تتنافى مع الظلم ، فيقيم العدل ولو على نفسه ، أو أقرب الناس إليه، وتتنافى مع الباطل ، فيقول الحق ولو على نفسه ، ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب ، فهو لاتحكمه تبعية تهدم شخصيته ، ولايجور على عقيدته الهوى ولاتتسرب المحاباة إلى نفسه ، فلا يكون إلا قائما بالقسط شاهدا لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه ،

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1)

واستقلال الشخصية الذى يربى الإسلام أتباعه عليها : يعنى المحافظة على النفس من التأثر بخصائص الغير التى لاتتفق مع روح الإسلام ، وتتنافى مع فضائله ، أما الاستبداد بالرأى، أو التمادى فى الخطأ : فليس فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقة ، بل إن ذلك يتنافى معها تنافيا تاما ، فإن الرجوع للحق فضيلة ، ولايوصف من يرجع للحق بأنه لاشخصية له بل إنه قوى الشخصية فى ضبط النفس ، وكبح جماحها ، والاتجاه بها صوب الحق ، فلا يتجمد عن الخطأ ، بل يفيء إلى الصواب أينما كان .

وإذا كان الرجوع إلى الصواب لا يتنافى مع الرجوع للحق ، فإنه كذلك - لايتنافى مع التعاون ، ومشاركة الجماعة الإسلامية ، فالمراد باستقلال الشخصية : ألا يذوب سلوك الفرد فى سلوك آخر ، وألا تذوب الجماعة فى جماعة أخرى فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة ، وحين يسلب هذه المقومات : فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة ، فإنه يقوم حين يقوم للعمل وهو مسوق إليه ومكره عليه ، فلا يستشعر المتعة بأداء العمل ، ولايتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه، ومن ثم : يفقد روح النشاط والحيوية ، ولايقبل على العمل بجد أو فاعلية ، بل يؤدى عمله وهو مكره متبرم ، وأيضا : لو ترك الإنسان بلا توجيه سديد وأطلق لشخصيته العنان دون رعاية وضبط ومن غير حدود ، فإن ذلك يكون شرا مستطيرا لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس مايترتب من انطلاق نوازعه النفسية فتنمو الأنانية والأثرة ، ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط .

(1) سورة النساء (١٣٥)

ومن أجل هذا كله : أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لاتتعداها ، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح ، ويتحمل تبعة إساءته ، فقال تعالى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾(1)، هذا بالنسبة للفرد ، فشخصيته محوطة بدائرة الحق ، والعمل الصالح وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية ، وعلاقة الناس مع بعضهم البعض، فإن تلك العلاقات مع ماوفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومات ، بحيث لاتذوب فى الآخرين فإنه لم يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك ، إذكاء لروح التعاون ، وإبقاء لوحدة الأمة ، وإثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر ، وذلك يتم فى إطار البر والتقوى ، وبعيدا عن الإثم والعدوان ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾(2)

ويتضح مما سبق أن استقلال الشخصية ، يعنى الاحتفاظ للإنسان بقدراته ومقوماته الخاصة ، بحيث لايعتدى عليها من الخارج ، والاحتفاظ بالثقة بالنفس حين يكون على الحق فيحترم اقتناعه به ، ويقوى على ضبط نفسه وتوجيهها إلى الخير حين لايكون فى جانبه ، فيرجع للحق ، ويلبى نداء التعاون مع الجماعة حين يحتاجون إليه ، ولايعتبر هذا أو ذاك خروجا عن استقلال الشخصية ، وإنما الخروج : أن يكون إمعة بين الناس ، مشتت الرأى متطفلا على أحاديث الناس وأخبارهم . ورحم الله الشافعى حيث قال :

ولست بإمعة فى الرجال أسائل هذا وذا ما الخبر ؟ .

❁❁❁

(1) سورة فصلت (٤٦)

(2) سورة المائدة (٢)

المسجد الأقصى ومكانته فى الإسلام

للمسجد الأقصى مكانته العالية فى الإسلام ، فهو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى رسولنا العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]

وتأتى مكانة المسجد الأقصى بعد الحرمين الشريفين : المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، ولزيارة هذه المساجد وشد الرحال إليها فضل عظيم ، ومثوبة كريمة من أجلها كان شد الرحال إلى تلك المساجد مستحبا : قال رسول الله ﷺ :

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»[2]

وميز الله تعالى العبادة فيه ، وضاعف ثوابها ، فجعل الصلاة فيه بخمسمائة صلاة فى غيره ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفى مسجدى ألف صلاة ، وفى مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة »[3].

وللمسجد الأقصى تاريخه القديم الذى يمتد عهوداً طويلة ، بل إن بناءه كان بعد بناء البيت الحرام ، عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال : المسجد الحرام قال : قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قال: قلت : كم بينهما قال : « أربعون سنة »[4].

(١) سورة الإسراء (١)

(٢) راوه البخاري ومسلم

(٣) راوه البراز بإسناد حسن

(٤) راوه البخارى ومسلم

وإذا عرفنا قدم المسجد الأقصى ومكانته ، فإن هناك سؤالا كثيرا مايتردد على ألسنة الباحثين وهو : من أول من بنى المسجد الأقصى ؟ وللإجابة على هذا السؤال ، نورد هنا بعض الآراء العلمية التى قال بها العلماء والباحثون :

فمن ذلك : القول بأن الذى بنى المسجد الأقصى هو أبو الأنبياء وأبو البشر آدم عليه السلام .

ومن العلماء من يرى أن سام بن نوح هو الذى كان أول بان له . ومنهم من قال : أول من بناه وأرى موضعه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام .

ومن هذه الآراء العلمية يتضح لنا أن بناء داود وسليمان عليهما السلام إنما كان تجديدا للبيت وليس تأسيسا له .

وأرى أن تلك الآراء السابقة لاتنافى بينها ، ويمكن الجمع بينها فمن المحتمل أن تكون الملائكة قد بنت المسجد الأقصى ، وأن آدم عليه السلام قد جدده ثم سام بن نوح ثم يعقوب ثم داود وسليمان عليهم السلام .

* ومما ورد فى فضائل بيت المقدس ومكانته قول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما «بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته ، ومافيه موضع شبر إلا وقد سجد عليه نبى أو قام عليه ملك» . وفى أرض بيت المقدس كلم الله تعالى موسى عليه السلام ، وفيه تاب الله على دواد وسليمان عليه السلام ، ورد الله على سليمان ملكه وبشر زكريا بيحيى وولد عيسى وتكلم فى المهد فى بيت المقدس وأنزلت عليه المائدة فى بيت المقدس ورفعه الله إلى السماء من بيت المقدس ، وهاجر إليه إبراهيم عليه السلام .

* ومن الصحابة الذين دخلوا بيت المقدس : أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وبلال بن رباح ، ولم يؤذن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى مرة واحدة عندما أمره عمر بالأذان بعد فتح بيت المقدس ، وخالد بن الوليد ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو الدرداء ، وعبادة بن الصامت ، وهو أول من ولى قضاء فلسطين وسكن ببيت المقدس ودفن بها وقيل بالرملة . وسليمان الفارسى ودفن بالمدائن ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن سلام ، وسعد ابن أبى وقاص ، وممن شهد فتح بيت المقدس أبو هريرة وعوف بن مالك بن عوف الأشجعى.

وهكذا نرى أن فى هذه البقعة المباركة عددا كبيرا من الأنبياء والصحابة وكون المسجد الأقصى قبلة لهم .. كل ذلك يمثل البركة الدينية التى أحاطت به ، وأما البركة الدنيوية : فكثرة الأشجار والأنهار وطيب الأرض وهذا هو المراد بقول الله تعالى : « الذى باركنا حوله».

* وللمسجد الأقصى ارتباط وثيق بعقيدتنا ، وله ذكريات عزيزة وغالية ، على الإسلام والمسلمين، فهو مقر للعبادة ، ومهبط للوحى ، ومنتهى رحلة الإسراء ، وبداية رحلة المعراج، وقد مر رسول الله ﷺ فى رحلته إلى المسجد الأقصى بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام وهى طور سيناء فصلى بهان ركعتين بالبقعة.

ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام وهى « بيت لحم » فصلى بها ركعتين ، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى جمع من الأنبياء والرسل فصلى بهم جميعا ، ثم عرج به إلى السماء فرأى من آيات ربه الكبرى .

ولما عاد رسول الله ﷺ من رحلة « الإسراء » وأخبر قومه كان منهم من صدق ومنهم من كذب ، وذهب بعضهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأخبروه ، فما كان جوابه إلا أن قال لهم : والله لئن كان قاله لقد صدق ، قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إنى أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء . وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم يسألون الرسول ﷺ فى تعنت عن بيت المقدس ، ومنهم من كان قد رآه ، وظنوا أنهم بهذه الأسئلة سيوقعون الرسول ﷺ فى حرج ، ولكنه وهو المؤيد من قبل ربه قد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا ، فى غاية الدقة وأخبرهم عن آياته ، يقول الرسول ﷺ : فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس على بعض الشئ فجلى الله لى بيت المقدس ثم جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب .

وكان أبو بكر كلما وصف لهم الرسول ﷺ وصفا يقول : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، ثم أخبرهم عن عيرهم وعن أعمالها وعن دقائق الملابسات ووصفها أكمل وصف ، وقال لهم : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس وفيها فلان وفلان ، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان محيطتان[(١)] . ومع وضوح الأدلة ، فقد لج القوم فى عنادهم ولم يصدقوا

---

(١) راوه البخارى ومسلم

تلك المعجزة الواضحة ، فقد طمس الله على أبصارهم وبصائرهم ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(1).

وفى رحلة الإسراء والمعراج فرض الله سبحانه وتعالى « الصلاة » وهى الصلة القوية بين العبد وربه ، وكانت القبلة آنذاك هى صخرة بيت المقدس ، حيث أمر الرسول ﷺ باستقبالها ، وكان يصلى – بمكة – بين الركنين فتكون الكعبة بين يديه وهو يستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، تعذر عليه أن يجمع بينهما ، وعندئذ أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس ، واستمر على ذلك نحو ستة عشر شهرا . وكان الرسول ﷺ يدعو ربه ، ويبتهل إليه أن تكون وجهته إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت الحرام ، فخطب الناس ، وأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها صلاة العصر . وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾(2)

وروى البخارى – بسنده – عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت ، وكان الذين قد ماتوا على القبلة قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر مانقول فيهم ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(3)

وكلما تعاودنا ذكرى الإسراء والمعراج تثور فى القلوب المؤمنة صيحات الحق والجهاد والفداء من أجل استرداد بيت المقدس .

---

(1) سورة النور (٤٠)
(2) سورة البقرة (١٤٤)
(3) سورة البقرة (١٤٣)

ولايمكن أن تتفجر طاقات الجهاد بالنفس والمال ، إلا بالوحدة الإسلامية الشاملة التى يتجمع فيها المسلمون تحت راية القرآن منطلقين بعقيدة إسلامية صحيحة ، تشق طريقها إلى القلوب على هدى ونور ، وعلى أساس العقيدة الصحيحة ، تنطلق الطاقات المؤمنة ، بكل ماوسعها الجهاد وبكل ماتملكه دفاعا عن العقيدة وعن الأرض والعرض ، مستبسلة فى جهادها ، ومضحية بكل غال ونفيس وقائمة على حدود الله ، ناصرة لدينه محققة للإيمان الحق فى حياتها ... وعلى أساس هذاالإيمان وهذا النصر لدين الله يتحقق نصر الله تعالى لنا.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١)

❁❁❁

(١) سورة الحج (٤٠)

الدعوة إلى التضامن لنصرة الأقليات الإسلامية

لقد أصبح التضامن الإسلامى ضرورة حتمية ، يفرضها الواقع ، وماتعرضت له الأقليات من اضطهاد ومحاولات الإبادة والتصفية ، واليوم .. ودنيا الناس تشاهد مدا دينيا بعيد المدى وانطلاقا إسلاميا فى كل أرجاء المعمورة .. ثم إلى جانب هذا ما أحرزته بلاد الإسلامَ فى الأغلب – من حرية واستقلال ، ومن إطاحة بالاستعمار .. بعد هذا كله أصبح التضامن الإسلامى صيحة تدوى فى دم كل مسلم ، لاستنقاذ الأقليات المضطهدة ولاستنقاذ المقدسات الإسلامية العزيزة .

ومازال التاريخ والواقع يشهدان بما تعرضت له الأقليات ، وما أحدثه دعاة الإلحاد والسطو والتخريب من تدمير وتغريب فى بعض البلاد الإسلامية .. وما أتت عليه معاول الهدم .. وماتعرضت له المساجد والقائمون فيها .

فمن أظلم من هؤلاء الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ؟ كما قال تعالى:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١)

إن مخططات أعداء الإسلام بما تنطوى عليه من خبث وعدوان لم تعد بعد خافية على أحد وأن مايحدث فى كثير من بلاد الإسلام من اضطهاد وتصفية ، ومن هدم وضياع لاينكره أحد ، وأن مايحدث من فتن وقلاقل ومايثار من مخاوف ويحاك من مؤامرات كل ذلك وغيره كثير . تكشف عنه الأحداث ساعة بعد أخرى ، وهو يشير إلى مخالب الصهيونية المسمومة ومعاول الإلحاد والاستعمار ، وفى هذا كله ما يدعو العالم الإسلامى

(١) سورة البقرة (١١٤)

اليوم فى شتى أنحاء الدنيا إلى التكاتف وإلى تضافر القوى وجمع الكلمة ورأب الصدع وتوحيد الصفوف فى ميدان واحد لتنطلق كتائب الإيمان تحت راية واحدة وحول كلمة واحة هى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وتحت راية الإسلام انضوى رجال أخلصوا النية لله ولرسوله وتخطوا بدعوتهم كل الحواجز النفسية والمعتقدات الزائفة .. وهذا الرعيل من المؤمنين الصادقين ساروا خلف رسولهم صلوات الله وسلامه عليه وتحملوا فى سبيل عقيدتهم كل أذى واضطهاد .

إن هؤلاء يمثلون النماذج الأولى لقافلة الإسلام فى دورها الأول : وفى حياتهم المضطهدة دروس بالغة لدعاة الحق وأتباعه على مر أدوار الحياة إنهم يمتحنون في أموالهم وفى أنفسهم بالقول والعمل وبالصبر والتقوى وبالعزائم المؤمنة القوية ، لايكترثون باضطهادهم بل يزدادون إيمانا مع إيمانهم .. فأهل الحق ودعاته يعملون لعودتهم بإخلاص ويعلمون يقينا أنهم فى سبيلها سيمتحنون ويبتلون فى المال وفى النفس . كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]

وفى عصرنا الحاضر نشاهد صورا للمضطهدين بسبب عقيدتهم من الأقليات الإسلامية الذين يتعرضون لأنكى مظاهر التعذيب والاضطهاد وأبشع صور الإبادة والتصفية .

وهذه المشاهد تذكرنا بما حدث للمسلمين الأوائل ، وكيف كانوا على قلة عددهم لايركنون إلى الدعة ولايستسلمون للهوان يقع عليهم ولكنهم قاتلوا فى سبيل الله وجاهدوا باسم الحق .. حتى نصرهم الله ووعدهم بالنعيم المقيم فى الآخرة وبشرهم بنهاية أعدائهم حتى لايغتر أحد بتقلب الذين كفروا فى البلاد .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟

---

(١) سورة آل عمران (١٨٦)

﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١)

وقد وعد الله تعالى ووعده الحق أولئك الذين ظُلموا بأن يبوئهم فى الدنيا حسنة ، وأن يجعل لهم فى الآخرة أكبر الأجر ، وماذاك إلا بصمودهم وجهادهم ووقوفهم فى وجه الكفر والطغيان وتوكلهم على الله واعتصامهم بدينه .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢)

والإسلام دائما وأبدا ينادى أتباعه أن يجاهدو فى سبيل الحق وفى نصرته ، حتى لايستشرى الفساد فى الأرض ، وحتى لاتتفاقم الأخطار والاضطهادات للمستضعفين من المسلمين . وبين كذلك - أنه لولا أن الله تعالى يدفع بقوم عن قوم لأهلك القوى الضعيف وضاعت كل المعالم ، وقد قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يبتلى الناس على مختلف أشكالهم وطبقاتهم ، فالمستضعفون مبتلون بما هم فيه وغيرهم من الأقوياء مبتلون بموقفهم من الحق ، وهل يقفون بجانب المستضعفين فى الأرض ؟

ومن الأمور المقطوع بها أن الله تعالى قادر على نصرة الأقليات قادر على تحطيم القوى الباغية .

ولكن حكمته العالية وإرادته النافذة قضت على العباد أن يبذلوا جهدهم فى طاعته ، وفى سبيل عقيدتهم ، وليبلوهم حتى يظهر المجاهدون الصامدون ويبلو كذلك أخبارهم . قال الله سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣) . وتشرق القوانين الإلهية من كتاب الله لترسم للأمة الإسلامية أصول الحياة الجادة ترسمها لهم على

---

(١) سورة آل عمران (١٩٥ - ١٩٧)　　(٢) سورة النحل (٤١ ، ٤٢)

(٣) سورة محمد صلي الله عليه وسلم (٣١)

السواء للكثيرين منهم وللأقليات للأقوياء وللضعفاء ، إنها أصول ثابتة لاتتغير ، وقواعد محكمة لاتبديل لها. لمن يكون عون الله ؟ عمن يدافع الله ؟ إن الله يدافع عن الذين آمنوا. نعم دفاع الله يكون عن الذين صانوا دينهم وحققوا أصول الإيمان ، واستوعبوا مبادئه وساروا على نهجه واستقاموا على الصراط المستقيم وأخذوا فى أسباب الحفاظ على الدين والذود عن حماه ، وجاهدوا فى سبيل الحق .. والله القادر على نصرهم من غير جهاد . ولكن لابد من الابتلاء ولابد من إظهار الطاعة ليظهر المخلص من غيره وتأخذ العادات اتجاهها المخلص وجهادها الصامد المنتصر .

وكيف تصان المعالم فى الأرض ؟ وتحفظ من الهدم والضياع ؟ بدفاع الناس بعضهم عن بعض ، وجمع الكلمة ووحدة الصف الإسلامى على مسار الإيمان والجهاد .

ولينصرن الله من ينصره ، فمن دافع عن الدين دافع الله عنه ، ومن نصر الإسلام عقيدة وعادة وسلوكا نصره الله ، تلك الأصول القرآنية المحكمة تجمعها الآيات الكريمة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ [1] ﴾

وبعد ، فإن هذا الذى قدمته بين يدى القارئ المسلم من واجب المسلمين جميعا .. وواجب الأكثرية والأقلية وواجب الحكومات والشعوب إنه واجب الكل على السواء بنص القرآن الكريم كما سبق ، ويبقى واجب الدول الإسلامية خاصة تجاه الأقليات ونصرتهم كما قال رسول الله ﷺ « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره »[2]. ويقول صلوات الله وسلامه عليه « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) [3] ..

(١) سورة الحج (٣٨ – ٤٠) (٢) راوه مسلم
(٣) راوه مسلم

وإن أحوال المسلمين فى الفلبيين وتايلاند وبورما والصين وروسيا والهند . وما تعانيه الأقليات الإسلامية فى تلك البلاد وفى غيرها من الأكثريات المضطهدة فى تنزانيا وتشاد والحبشة وغيرها يندى لها الجبين ، إنهم يستنجدون بالمسلمين فى شتى أنحاء العالم لاستنقاذهم من حروب الإبادة وألوان الفتك والتعذيب ، ثم إن المسلمين أكثرية فى هذه الدول ..

لقد استباح الطغاة أعداء الإسلام والإنسانية أموالهم وكرامتهم ومساجدهم ودور العلم وحولوا تلك المساجد ودور العلم إلى أماكن عبث وفساد .

ويقوم اليهود بتدريب المدنيين من الصليبيين فى الفلبين على القتل والاغتيال ، ويقول العالم الفاضل الشيخ محمد المنتصر الكتانى :

« ويهود فلسطين المحتلة ويهود أمريكا واليهودية العالمية يدربون المدنيين من الصليبيين الفلبيين على القتل والاغتيال الفردى والجماعى ، وعلى تحريق الفرد والجماعة وهدم البيوت والأحياء على ساكنيها أيقاظا وهم رقود . ومن أفلت منهم يفر بنفسه وتبقى لهم أرض المسلمين خاوية من أهلها فيستولون عليها ثم يجعلون لها صكوكا وملكيات يزعمون فيها أنهم اشتروها من أهلها عن طيب خاطر منذ سنوات . وهؤلاء اليهود الذين يدربون نصارى الفلبيين هم خبراء المخربين اليهود فى فلسطين منذ الانتداب البريطانى وإلى اليوم.. أ . هـ .

هذا الواقع المر يفرض على المسلمين جميعا أن يهبوا عن بكرة أبيهم وأن ينهضوا يدا واحدة لاستنقاذ إخوانهم المسلمين .. والمسلمون يد على من سواهم .

إن على المسلمين اليوم أن يهبوا فى تضامن وتكاتف على شتى بقاعهم وبمختلف جبهاتهم ومواقعهم ومواهبهم وقدراتهم حكومات وشعوبا علماء ومفكرين وكتابا ومتحدثين، وجنودا وقوادا ، حتى يظهر دين الحق فى تلك البلاد على الدين كله كما قال الله تعالى .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[1]

(١) سورة التوبة (٣٣)

هذا ومما يندى له جبين العالم الإنسانى مايحدث فى أفغانستان من الشيوعية الملحدة التى تربصت بالإسلام وبكل دعوات الخير والإصلاح على ظهر الأرض ، واجب العالم الإسلامى أن يهب هبة رجل واحد ، وأن ينهض جميع المسلمين عن بكرة أبيهم لإنقاذ هذا الشعب المسلم من أيدى الشيوعيين الملحدين وأن ينفقوا من أموالهم وأنفسهم ماأوجبه الله عليهم وإلا فجميع المسلمين فى جميع أنحاء العالم مقصرون ومسئولون أمام الله ، على مافرطوا فى حقوق إخوانهم المسلمين والله الهادى إلى سواء السبيل ..

❁❁❁

ماء زمزم فى ضوء السنة النبوية

ماء زمزم منحة ربانية ، فيها من الغذاء والشفاء والخير والبركة ما فيها ، إنها المنحة التى منحها الله تعالى لإسماعيل عليه السلام فى وقت كان أشد حاجة إلى الماء ، ومنحة لكل المسلمين الذين يردونها ويسعدون بالشرب منها ، فهى سقيا من الله تعالى .

فعندما ترك إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، فنادته أم إسماعيل قائلة :

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولاشئ ؟

لقد قالت ذلك مرارا ، وهو لايلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت : إذن لايضيعنا . فلما نفد مافى السقاء عطشت وعطش ابنها ، فانطلقت تبحث عن الماء ، فوجدت الصفا أقرب جبل إليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس ، قال النبى ﷺ : فذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه – ترى نفسها – ثم تسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعد ماتغرف .

قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم و لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا » لقد شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك :

لاتخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه .. وإن الله لايضيع أهله [1] .

« أهل الحرم فى رعاية الله »

ويمكن أن نستنتج مما سبق : قوة إيمان السيدة هاجر . ومدى توكلها على الله سبحانه وتعالى ، واعتمادها عليه ، حيث إنها عندما سألت إبراهيم عليه السلام ، وعرفت أن ذلك عن أمر من الله تعالى أيقنت أنها وولدها لن يمسهما السوء ، ولن يضيعا ، فعندما سألت إبراهيم عليه السلام قائلة : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم. و عندئذ قالت : إذن لايضيعنا.

وبهذا الإيمان القوى ، واليقين العظيم ، والتوكل على الله ، كانت حرية بما منحها الله وأهلها به أن تكون أما لنبى الله إسماعيل عليه السلام ، ولهذه الأمة الكريمة .

كما يستنبط أيضا ، أنها مع إيمانها وثقتها فى الله ، وإخبار إبراهيم عليه السلام لها بأن ذلك عن أمر من الله تعالى حيث اطمأنت واستبشرت فلم تخف الضياع .. مع كل هذا كانت تسعى وتبحث عن الغوث وعن الماء . وباشرت الأسباب إلى جانب الإيمان والتوكل على الله سبحانه وتعالى ، فأخذت تسعى سبع مرات بين الصفا والمروة .

ويتضح كذلك من قول الملك لها – كما جاء فى صحيح البخارى :

«لاتخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لايضيع أهله» .

يتضح من ذلك أن الله تعالى حافظ أهل هذا البيت ، وحافظ لبيته وحافظ لأمة هذا البيت قبلتها .. ولقد جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا . وجعل من دخله كان آمنا ، وأحاطه بالعناية والخير ، تجبى إليه ثمرات كل شئ .

يعد ذلك ولى « إسماعيل » عليه السلام أمر البيت ، ثم وليه بعده ابنه « نابت » ثم وليه بعده « مضاض بن عمرو الجرهمى » ومن بعده إلى ابنه الحارث ، ثم إلى عمرو بن الحارث ، وكان مع جرهم بنو قطوراء وهما ابنا عم .

---

(١) رواه البخارى

ورئيس جرهم مضاض ، ورئيس قطوراء السميدع وقد وقعت الحرب بينهم وانتهت وأسفرت بنصر جرهم .

ولما بغى جرهم بمكة وأكلوا مال الكعبة أخرجهم الله من البلد الحرام على أيدى بنى بكر من كنانة وغبشان من خزاعة .

وقد عرفت مكة المكرمة حتى منذ عهد الجاهلية لايستقر فيها ظلم ولابغى ، ولايبغى فيها أحد إلا أخرجته ، ولايريدها أو يقصدها أحد بسوء إلا هلك حتى قيل :

« أنها ماسميت ببكة إلا أنها كانت تبك أعناق الرجال إذا أحدثوا فيها » (١)

وقال ابن هشام : أخبرنى أبو عبيدة أن بكة اسم لبطن مكة لأنهم كانوا يتباكون فيها أى يزدحمون ، يعنى فى الطواف بالكعبة والدعاء . والسعى بين الصفا والمروة .

ولما غلب الجراهمة على أمرهم ، وهموا بالخروج عمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى إلى غزالين من ذهب ، وسيوف وأدرع فجعلها فى « زمزم » وطمها أى دفنها وسواها ، وذهب بقومه إلى اليمن . وقيل : بل دفنتها السيول .

حفر زمزم :

وظلت « زمزم » منذ ذلك العهد مدفونة ومجهولة إلى أن قيض الله تعالى لها عبد المطلب جد الرسول ﷺ ، وكان ذلك قبل ميلاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وفيما رواه ابن إسحاق ، بشأن حفر زمزم أن عبد المطلب قال : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت – أى فى المنام – فقال : احفر طيبة « سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من ذرية إبراهيم » قال : قلت : وماطيبة ؟ فقال : ثم ذهب عنى فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر برة ، قال : قلت : ومابرة ؟ « وسميت بذلك لأنها تفيض للأبرار وتغيض عن الفجار » . قال ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر المضنونة قال :

(١) السيرة النبوية لابن هشام

قلت : وما المضنونة ؟

(وسميت بذلك لأنه يضن بها على غير المؤمنين ، فلا يتضلع منها منافق) .

قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر زمزم ، قال قلت : ومازمزم ؟

قال : لاتنزل (أى لاينتهى ماؤها ولايفرغ) ولاتذم (أى لاتكون قليلة الماء) . تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل .

ومعنى العلامات السابقة : بين الفرث والدم التشبيه لها باللبن فهو يخرج من فرث ودم[1] . وأما الغراب الأعصم : فهو الذى فى جناحه ريشة بيضاء . وأما قرية النمل ، فقد قال عنها السهيلى .

« أما قرية النمل أيضا ففيها من المشاكلة والمناسبة أن زمزم هى عين مكة التى يردها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك ، وهى لاتحرث ولاتزرع ، وقرية النمل لاتحرث ولاتبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب » . فلما تعين لعبد المطلب موضعها ، غدا بمعوله ومسحاته وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء فكانت «زمزم»، وكان عبد المطلب يسقى الحجيج من زمزم ويحمل ماءها إلى عرفة .

فضائل ماء زمزم وفوائده :

* ومما ورد فى فضل ماء زمزم : ما جاء عن أنس بن مالك : كان أبو ذر رضى الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم .. » [2]. وقد علل العلماء وشراح الحديث غسل

---

(١) أخرج الأزرقى أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم ، فبينما هو على ذلك إذ نحرت بقرة عند الحزورة فانفلتت من الذابح تجرى حتى غلبها الموت فى موضع زمزم فجزرت فى ذلك الموضع فأقبل غراب يهوى حتى وقع فى الفرث فبحث عن قرية النمل فقام عبد المطلب فحفر هناك .

(٢) الحديث راوه البخارى فى صحيحه .

صدره الشريف بما زمزم لفضله على جميع أنواع المياه إلا الماء الذى نبع من بين أصابع الرسول ﷺ ، فإنه ليس من الماء الذى على وجه الأرض بل هو من المعجزات .

* ومن فضائل ماء زمزم وفوائده : أنه يشبع الجائع ، ويروى الظمآن ، وفيه شفاء بأمر الله تعالى وإرادته ففى الحديث : « زمزم طعام طعم وشفاء سقم »(١).

وفى صحيح الإمام مسلم من حديث أبى ذر « أنها طعام طعم » أى مشبع ، وزاد الطيالسى من الوجه الذى أخرجه منه مسلم « وشفاء سقم » .

* ولاتقتصر فوائد الشرب من ماء زمزم على الشبع والرى والشفاء فحسب ، بل إنها تشمل سائر مايطلبه المؤمن من ربه بصدق وإيمان وإخلاص ، فهى تفيد فى كثرة الرزق وكثرة العلم وكل ماشرب له ، فقد جاء فى المستدرك من حديث ابن عباس مرفوعا : « ماء زمزم لما شرب له » واختلف فى إرساله ووصله ، وإرساله أصح ، وله شاهد من حديث جابر. وفيما رواه الدارقطنى والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له فإن شربته تستشفى به شفاك الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله وهى هزمة جبريل وسقيا إسماعيل » ورواه الحاكم وزاد فيه : « وإن شربته مستعيذا أعاذك الله » قال : فكان ابن عباس إذا شرب من ماء زمزم قال : « اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء » .

* ومن فوائده : شربه لعطش يوم القيامة ، وكان عبد الله بن المبارك إذا شرب من ماء زمزم استقبل الكعبة وقال : اللهم إن رسول الله ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له » وهأنذا أشربه لعطش يوم القيامة ، ثم يشرب(٢) .

* شرب ماء زمزم من السنة :

قال السائب رضى الله عنه : اشربوا من سقاية العباس فإنه من السنة ، وفى الشرب منه تأس برسول الله ﷺ ، ويصح الشرب منه فى جميع الأحوال من قيام وقعود أو ركوب قال ابن عباس رضى الله عنهما : « سقيت رسول الله ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم » قال

(١) رواه ابن أبى شيبة والبراز من حديث أبى ذر . (٢) راوه البيهقى بإسناد صحيح .

عاصم : فحلف عكرمة : ماكان يومئذ إلا على بعير . رواه البخارى وعند أبى داود من رواية عكرمة عن ابن عباس أنه أناخ فصلى ركعتين ، فلعل شربه من زمزم كان بعد ذلك ، ولعل عكرمة إنما أنكر شربه قائما لنهيه عنه ، لكن ثبت عن على عند البخارى «أنه شرب قائما» فيحمل عل بيان الجواز [1] .

* من الصحابة من شرب زمزم فكفته عن الطعام :

ذلكم هو الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه وحديث إسلامه مذكور فى صحيح البخارى ، وأنه أقام بالمسجد واستغنى بزمزم عن الطعام والشراب ثلاثين من بين يوم وليلة .. ووقع فى رواية أبى قتيبة : « فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد » [2] .

* من الأئمة المحدثين من شرب زمزم لأجل العلم :

وذلكم هو الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر الملقب بإمام الأئمة المولود سنة ثلاث وعشرين ومائتين والمتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة [3] . لقد كان هذا الإمام الجليل يحفظ فقهيات الحديث كما يحفظ القارئ السورة .

وكان يحفظ أسانيد الأحاديث ومتونها حفظا جيدا ، وقال ابن حبان : لم أر مثل ابن خزيمة فى حفظ الإسناد والمتن فهو إذًا قد جمع بين حفظ الإسناد والمتن وحفظ الفقهيات من الأحاديث ، وإنها لمقدرة فذة استحق بها أن يلقب بإمام الأئمة. وقيل لابن خزيمة يوما: من أين أوتيت العلم ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب منه » وإنى لما شربت ماء زمزم سألت الله علما نافعا [4] .

* ومن العلماء من شرب زمزم لحوائج أخرى :

منهم الشيخ الإمام عبد الوهاب الشعرانى ، فقد ذكر أنه لما حج سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، وشرب من ماء زمزم فى سبع وخمسين حاجة له ولإخوانه قال : « فقضى الله

---

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى
(٢) فتح البارى (٧ / ١٧٥)
(٣) مرآة الجنان (٢ / ٢٦٤)
(٤) النجوم الزاهرة (٣١١/٣)

جميع ماكان منها من حوائج الدنيا ، ونرجو من كرم الله قضاء الحوائج الأخروية ، فإن قضاء حوائج الدنيا عنوان للآخرة » (١) .

* ومن ذلك ماذكره العلامة الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عن نفسه ، فقال : وأنا شربته مرة ، وسألت الله وأنا فى بداية طلب الحديث أن يرزقنى الله حالة الذهبى فى حفظ الحديث ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة وأنا أجد من نفسى المزيد على تلك المرتبة فسألت رتبة أعلى منها فأرجو الله أن أنال ذلك .

* ومن ذلك - أيضا - مانقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : شربت من ماء زمزم لثلاث : شربته للعلم ، وشربته للرمى ، فكنت أصيب عشرة عشرة ومن عشرة تسعة ، وشربته للجنة وأرجوها (٢) .

* شفاء ماء زمزم للحمى :

جاء فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء» .

وفى حديث ابن عباس : « بماء زمزم » من رواية أبى جمرة ، قال : «كنت أجالس ابن عباس بمكة فأخذتنى الحمى» وفى رواية أحمد «كنت أدفع الناس عن ابن عباس فاحتبست أياما فقال : ماحبسك ؟ قلت. الحمى ، قال : أبردها بماء زمزم فإن رسول الله ﷺ قال : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء أو بماء زمزم » شك همام كذا فى رواية البخارى من طريق عامر العقدى عن همام ، وقد تعلق به من قال بأن ذكر ماء زمزم ليس قيداً لشك راويه فيه . وممن ذهب إلى ذلك ابن القيم .

وتعقب بأنه وقع فى رواية أحمد عن همام : « فأبردوها بماء زمزم » ولم يشك . كذا أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم من رواية عفان ، وإن كان الحاكم وهم فى استدراكه . وترجم له ابن حبان بعد إيراده حديث ابن عمر فقال : ذكر الخبر المفسر للماء المجمل فى الحديث الذى قبله وهو أن شدة الحمى تبرد بماء زمزم دون غيره من المياه ،

---

(١) لواقح الأنوار للشيخ الشعرانى ص ٢٤٢

(٢) الجامع اللطيف للشيخ جمال الدين القرش المكى ص ٢٦٦

وساق حديث ابن عباس ، وقد تعقب على تقدير أن لاشك فى ذكر ماء زمزم فيه ، بأن الخطاب لأهل مكة خاصة لتيسر ماء زمزم عندهم [1] ..

* ومما روى أن رسول الله ﷺ جاء إلى زمزم فنزعوا له دلوا ، فشرب ثم مج فى الدلو، ثم صبه فى زمزم ، ثم قال « لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم »[2]

وفى رواية أنه غسل وجهه وتمضمض منه ثم أعاده فيها ، وروى أن الذى نزع له الدلو هو العباس بن عبد المطلب .

* لماذا سميت زمزم ؟

وسميت زمزم لكثرتها ، يقال : ماء زمزم أى كثير ، وقيل : لاجتماعها .

وعن مجاهد : إنما سميت زمزم ، لأنها مشتقة من الهزمة ، والهزمة بالعقب فى الأرض ، وقال ابن هشام : والزمزمة عند العرب الكثرة والاجتماع .

وقيل : لأنها زمت بالتراب حين نبع الماء لئلا يأخذ يمينا وشمالا ، ولو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شئ ، وكذا نقل عن ابن عباس ، وقيل : سميت بذلك لزمزمة الماء وهو صوته ، قاله الحربى ، وقيل : لأن الفرس كانت تحج فى الزمن الأول فتزمزم عليها .

وقال المسعودى : والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء .

* آداب الشرب من زمزم :

يستحب لمن أراد الشرب من زمزم أن يستقبل القبلة ، ويذكر اسم الله ، ويتنفس ثلاثا خارج الإناء ، بأن يشرب على ثلاث مرات وأن يتضلع منها ، والتضلع هو أن يشرب حتى ترتفع أضلاعه كناية عن كثرة الشرب . وأن يحمد الله بعد الشرب . وأن يصحب شربها حسن الاعتقاد فى فوائدها ومنافعها بإذن الله تعالى وإرداته وأن يرش على البدن من ماء زمزم .

---

(١) فتح البارى (١٠ / ١٧٦)

(٢) رواه الطبرانى.

وقال الشيخ عبد الله بن حميد – رحمه الله تعالى – فى كتابه « هداية الناسك إلى أهم المناسك » : «ويشرب من ماء زمزم لما أحب ويتضلع منه ويرش على بدنه وثوبه ويقول: بسم الله اللهم اجعله لنا علما نافعا ورزقا واسعا وريا وشبعا وشفاء من كل داء، واغسل به قلبى واملأه من خشيتك . وقال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمعنى العلم والرزق والشفاء بمن صحت نيته وسلمت طويته ولم يكن به مكذبا ، ولايشربه مجربا ، فإن الله مع المتوكلين وهو يفضح المجربين .

وقال ابن عرفة : إنما لم يكن عذبا ، ليكون شربه تعبدا لا تلذذا ، نقلا من كتاب هدايةالناسك أ هـ .

وروى ابن ماجه والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل : « إذا شربت من زمزم فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله وتنفس ثلاثا وتضلع منها فإذا فرغت فاحمد الله ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لايتضلعون من زمزم» (١)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا شرب من ماء زمزم قال : «اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء» وقال الخطيب فى المغنى والكمال الدميرى ، قال الحاكم هو صحيح الإسناد ، ثم قال رحمه الله : وينبغى أن يزاد على ذلك «وقلبا خاشعا وذرية طيبة» قال العلماء : ولايقتصر على هذا الدعاء بل يدعو بما أحب من أمور الدنيا والآخرة ، ويجتنب الدعاء بما فيه مأثمة (٢)

* هل يجوز نقل ماء زمزم إلى البلاد ؟

ذكر صاحب كتاب «الجامع اللطيف فى فضائل مكة وأهلها» قال : يجوز نقل ماء زمزم إلى البلدان للتبرك به ، باتفاق المذاهب الأربعة: بل ذلك مستحب عند الشافعية والمالكية. وقال الملا رحمه الله – فى المتفرقات ، من الأوسط – ويجوز الاغتسال والتوضؤ

(١) البداية والنهاية (٢ / ٢٤٧)
(٢) الجامع اللطيف للعلامة جمال الدين القرش المكى

بماء زمزم على وجه التبرك ولايستعمل إلا على طاهر ، ويكره الاستنجاء ، ويستحب حمله إلى البلاد . أ هـ .

ومما يستدل به على ذلك أن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها حملت من ماء زمزم فى قوارير ، وقالت : « إن رسول الله ﷺ حمله فى الأداوى والقرب » (١)

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم ، فبعث له براويتين (٢).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه كان يصبه على المرضى ويسقيهم منه ، وأنه حنك به الحسن والحسين رضى الله عنهما مع تمر العجوة .

اقتراح ..

وإذا كانت فضائل ماء زمزم وفوائده بهذه المثابة ، وإذا تبين لنا جواز نقله ، وأن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها قد حملته فى قوارير ، وقالت : إن رسول الله ﷺ حمله، فهل من الممكن تعبئة بعض ماء زمزم بطرق علمية صحية ، على حسب مايراه المسئولون ، ليعم نفعه بعض البلاد الإسلامية ليتمكن من شربه والانتفاع به من لايستطيع الحج والعمرة ، لمرض أو لغير ذلك من الأعذار ؟

ومن الواضح أن ماء زمزم منحة ربانية ، وأن فى شربه عبادة إلى جانب ماله من فوائد عديدة ، ولذا فليس فى بيعه ، ونقله إلى البلاد الإسلامية مقصد من مقاصد التجارة والربح ، بل يكون القصد من نقله عموم الانتفاع به ابتغاء وجه الله .

وأما العائد المالى من ثمن مايباع فمن الممكن أن يرصد لمشاريع تحفيظ القرآن الكريم ،الفقراء والعاملين عليه ، أى الذين يقومون بتعبئته ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

❁❁❁

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه

(٢) أخرجه الطبرانى بسند رجاله ثقات .

البلاغة النبوية

إن الحديث عن البلاغة النبوية ، حديث متسع الجوانب ، لايحيط به بحث ، ولايحصره كتاب .. وذلك لأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مبلغ عن ربه سبحانه وتعالى ، وداع إلى سبيل ربه ، ومبعوث فى وقت وصلت فيه البلاغة والفصاحة إلى مكانة عالية ، فلابد أن يرسل بلسان قومه ، وأن تكون معجزته الكبرى وهى : « القرآن الكريم » من جنس مابرع فيه القوم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وهم أهل الفصاحة والبيان، وأدرى الناس بفنون الألفاظ والعبارات ، كان ذلك من أقوى الأدلة على صدق صاحب الدعوة ، وأنه مرسل من ربه ، وأنه لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

ولقد أوتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، وكان يعجب الصديق رضى الله عنه ، من فصاحته عليه الصلاة والسلام ، ويقول له :

«لقد طفت فى العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك» ؟

قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : يارسول الله ، كلنا من العرب فما بالك أفصحنا ؟ قال أتانى جبريل بلغة إسماعيل وغيرها من اللغات فعلمنى إياها » [1] .

وهذا يدل على أن عناية السماء ، ورعاية الله تعالى ، وراء هذا الإعداد والاستعداد .

وناهيك بمن كانت عناية الله معه ، وفضل الله ورحمته عليه ، ومن أنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعلمه مالم يكن يعلم ، فمما لاشك فيه – والحال كذلك – أن يكون أفصح العرب ، وأقوى الناس حجة وبياناً ، قال الله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ

(١) مرآة الزمان نقلا عن كشف الخفاء

لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١)

ولقد عصم الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، من الخطأ ، ومن الهوى ، وعصمه من الناس ، وكيف لا ، وهو المبلغ عن رب العزة سبحانه وتعالى .

وقد أقسم الله سبحانه ، بأن رسوله على الحق والعلم والهدى ، وأنه بعيد كل البعد عن الضلال والغواية ، وعن النطق عن هوى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ (٢)

فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لاينطق إلا حقاً ، ولايقول إلا حقاً ، في كل أحواله ، حتى فى وقت الغضب ، وحتى إذا مزح فلا يقول إلا حقاً .

روى الإمام أحمد – بسنده – عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، فقالوا : إنك تكتب كل شئ تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال :

« اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى إلا الحق » .

إنه يلازم الحق ، والحق يلازمه ، فلا يتخلى عن ذلك فى وقت من الأوقات ، ولا فى حال من الأحوال ، حتى فى وقت الغضب ، ووقت المزاح والمداعبة .

بل إن الأمر الذى يخبر به ، هو الذى لاشك فيه ، ولاريبة تحوم حوله ، وهذا جانب هام من أهم جوانب الفصاحة والبلاغة والبيان ..

فالفصحاء والبلغاء وأهل البيان ، والشعراء والكتاب – من سائر البشر – تتميز

---

(١) سورة النساء (١١٣)   (٢) سورة النجم (١ – ٦)

تعبيراتهم بطابع من الخيال الخصب والعاطفة الجياشة ، والمبالغة التى تكسب أساليبهم ضخامة فى المعنى ، وقد تغرق فى الخيال والمبالغة فتبعد عن الحق والواقع ، بل أكثر من ذلك : وهو أنها كثيراً ماتكون مشوبة بالكذب ، حتى أنه قيل : « أعذب الشعر أكذبه » .

وأما البلاغة النبوية ، وفصاحة صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، فطابعها الأساسي : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ .

وسماتها المعروفة الواضحة هى الحق والصدق ، فهو الصادق الأمين . عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ماأخبرتكم أنه من عند الله فهو الذى لاشك فيه » [١] .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لاأقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه :

فإنك تداعبنا يارسول الله ؟

قال : « إنى لاأقول إلا حقاً » .

ولقد اجتمعت أسباب أخرى لفصاحة الرسول ﷺ وبلاغته ، سوى ماتقدم .

وأهم تلك الأسباب وأولها، ماسبقت الإشارة إليه من تعليم الله تعالى له ، وتأديبه إياه.

* كذلك : نشأته فى بنى سعد بن بكر ، فهو من قريش ، ولسانه لسان بنى سعد بن بكر .. ومثل هذه الأسباب كفيلة أن تبعد عنه أدنى خيط من اللحن ، وكفيلة باستقامة اللسان فى الفصاحة والبلاغة .

ولقد أشار صلوات الله وسلامه عليه ، إلى بعض هذه الأسباب :

أخرج ابن عساكر عن محمد بن عبد الرحمن الزهرى ، عن أبيه ، عن جده ، قال: قال رجل : يارسول الله أيدالك الرجل امرأته ؟

قال : نعم إذا كان ملفجا [٢]، فقال له أبو بكر : يارسول الله ما قال لك ، وماقلت له ؟

قال : إنه قال : أيماطل الرجل أهله ؟ قلت له : نعم إذا كان مفلساً .

---

(١) رواه البزار

(٢) ألفج أى أفلس

قال أبو بكر : يارسول الله ، لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ؟

قال : « أدبنى ربى ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر » .

وأخرج الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أعرب العرب ، ولدت فى قريش ونشأت فى بنى سعد ، فأنى يأتينى اللحن ؟ » .

* وبالحكمة والموعظة الحسنة ، دعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إلى ربه ، وبالتى هى أحسن جادل المعرضين والمعارضين ، مستجيباً لأمر الله تعالى ، القائل له فى محكم التنزيل :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١)

* ولقد ألقت البلاغة إلى رسول الله ﷺ زمامها ، فكان كلامه عليه الصلاة والسلام واضحاً لاغموض فيه ، وافياً لا قصور حوله ، مناسباً بيناً لا فضول ولاتقصير ، ولا إفراط ولاتفريط ، وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : ماكان رسول الله يسرد الحديث كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه .

وروى أنها قالت : إنه كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه (٢) ، ويقول الجاحظ، عن بلاغة الرسول ﷺ ، وعظمة كلامه : ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولازلت له قدم ، ولابارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولايلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولايحتج إلا بالصدق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولاأصدق لفظاً ، ولاأعدل وزناً من كلامه ﷺ .

---

(١) سورة النحل آية (١٢٥)   (٢) رواه البخارى ومسلم

وكان لديه المقدرة الفائقة لأن يخاطب كل جماعة أو قبيلة بلهجتها . عن عاصم الأشعرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس من امبر امصيام فى امسفر »[1] يريد: ليس من البر الصيام في السفر ، وهى لغة الأشعريين يبدلون اللام ميما .

* وتميز الأسلوب النبوى الحكيم بالإيجاز مع كثرة المعانى ، وبالبعد عن الصنعة والتكلف ، يستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، ويهجر الغريب الوحشى ، ويرغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة . كما وصفه الجاحظ .

وقد وصف الرافعى ، كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : « كان أفصح العرب ، على أنه لايتكلف القول ، ولايقصد إلى تزيينه ، ولايبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة ، ولايجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، ثم لايعرض له فى ذلك سقط ولااستكراه ، ولا تستزله الفجاءة ، وما يبدّهَ[2] من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع ، وعن النمط الغريب ، والطريقة المحكمة ، بحيث لايجد الناظر إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً ، ثم أنت لاتعرف له إلا المعانى التى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج من الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد ، وبراعة القصد والمجئ فى كل ذلك من وراء الغاية » .

* وإذا حاولنا تعليلاً لبلاغة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإن أول مايُطالعنا هو توفيق الله تعالى له ، وتوقيفُه حيث بعثه فى العرب أهل الفصاحة والبيان ، فكان أبلغهم وأفصحهم ، فقد كاشفته اللغة بأسرارها ، فملك زمامها وحقائقها ، فكان يخاطب كل قوم بلهجتهم ويخاطبهم على قدر عقولهم .

كما كانت له فطرته النقية الصافية ، وحسه الدقيق ، ونفاذ بصيرته ودقة حكمته .

هذا بالإضافة إلى نشأته الخصبة بالفصاحة والبلاغة والبيان ، وتقلبه فى أقوى القبائل منطقاً ، وأسلسهم لساناً ، وأعذبهم بياناً ، قال ﷺ :

---

(١) رواه أحمد بن حنبل

(٢) بدهه : استقبله به أوبدأه به ، والبده والبداهة : أول كل شئ وما يفجأ منه .

«أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر» [1] . ويقول الرافعى : وليس فى العرب قاطبة من جمع الله تعالى فيه هذه الصفات ، أعطاه الخالص منها ، وخصه بجملتها ، وأسلس له مآخذها ، وأخلص به أسبابها – كالنبى ﷺ فهو اصطنعه لوحيه ، ونصبه لبيانه وخصه بكتابه ، واصطفاه لرسالته ، وماذا عسى أن يكون وراء ذلك فى باب الإلهام ..

ولقد عقد الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – فصلاً فى كتابه « زاد المعاد » عن هدى الرسول ﷺ ، فى حفظ المنطق ، واختيار الألفاظ ، فقال :

« كان يتخير فى خطابه ، ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش ، فلم يكن فاحشاً ولامتفحشاً ، ولا صخّاباً ولا فظاً ، وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون فى حق من ليس كذلك ، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله . فمن الأول : منعه أن يُقال للمنافق «سيد» وقال : «فإن لم يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» .

ومنْعُه أن تسمى شجرة العنب كرْماً ، ومنعه تسمية أبى جهل بأبى الحكم ، وكذلك تغييره لاسَم أبى الحكم من الصحابة بأبى شريح ، وقال « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » .

ومن ذلك نهيه للمملوك أن يقول لسيده أو لسيدته : ربى وربتى ، وللسيد أن يقول لمملوكه : عبدى ، ولكن يقول المالك : فتاى وفتاتى ، ويقول المملوك : سيدى وسيدتى ، وقال لمن ادعى أنه طبيب « أنت رفيق ، وطبيبها : الذى خلقها » [2] .

والجاهلون يسمون الكافر الذى له علم الشئ من الطب : حكيماً وهو من أسفه الخلق .

ومن هذا قوله للخطيب الذى قال : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى » : « بئس الخطيب أنت » [3] – ومن ذلك قوله : لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ماشاء الله ، ثم ماشاء فلان ، وقال له رجل : ماشاء الله وشئت ، فقال : أجعلتنى لله ندًا ؟ قل : ماشاء الله وحده أ . هـ .

(١) ذكره القاض عياض فى الشفاء ، وذكره القارئ فى الأسرار المرفوعة
(٢) أخرجه أحمد (٣) أخرجه مسلم .

وهكذا يتضح لنا عناية الرسول ﷺ ، ببلاغة الكلام ، وسلامة العبارة ، وفصاحة اللسان المسلم ، بحيث لايزلّ بكلمة فيها خروج عن مبادئ الإسلام وتعاليمه ، أو فيها إسفاف وضعف ، فالإسلام هو دين العلم والمعرفة ، قام على عقيدة صحيحة ، تغرس العزة والكرامة فى نفوس المسلمين ، وتجعل منهم خير أمة أخرجت للناس .

وإذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قد ملك زمام البلاغة والفصاحة ، وكان أفصح العرب .. فإنه عليه الصلاة والسلام دعا إلى انتشار البلاغة والفصاحة ، وإلى تهذيب العبارة ، واختيار الكلمات والأساليب ، بالنسبة لغيره من المسلمين .

فكان للبلاغة النبوية آثارها الطيبة على لغة التخاطب بين الناس ، وعلى تعبيرات المسلمين ، حيث أكسبتهم ، دقة فى التعبير ، وحسن اختيار للألفاظ والكلمات .

كما أنه عليه الصلاة والسلام .. قد دعا المسلمين ، إلى هجر الكلمات التى لاتتفق مع عقيدتهم الإسلامية ، ولاتساير معنى التوحيد والتنزيه .

فطهر الرسول عليه الصلاة والسلام ، محيط اللغة العربية من بعض الرواسب التى خلفتها عهود الجاهلية .. كما نقّى اللغة من بعض ماكاد يشوبها من شوائب أخرى .

* ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يوجز القول ، حيث كان المقام يستدعى الإيجاز ، ويطيل القول إن لم يكن من الإطالة بد ، فكما يقول العلماء : لكل مقام مقال، وفيما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، خطب بعد العصر، فقال :

« ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه .. ».

قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : ولم يزل ﷺ ، حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال ﷺ :

« إنه لم يبق من الدنيا إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » (١) .

---

(١) راوه الترمذى

وقد روى عن **على بن أبى طالب** رضى الله عنه :

« ماسمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ ، وسمعته يقول:

« مات حتف أنفه » [1] وماسمعتها من عربى قبله .

فصلوات الله وسلامه عليك يارسول الله ، ياأبلغ الناس وأفصحهم ، وياخير من نطق بالضاد.

❁❁❁

(١) رواه الحمزاوى فى مناهل الصفا.

تدوين السنة

لقد كان للعهد النبوى ، طابع متميز ، فى تلقى العلم ، وتطبيقه بالعمل ، وكان المسلمون آنئذ لايتعلمون شيئاً من الكتاب والسنّة ، ولايحفظون آية من كتاب الله تعالى ، إلا إذا فقهوا مافى الآية من العلم ، وطبقوا ماتدعو إليه من عمل .

ولهذا الطابع دلالات لها أهميتها البالغة ، ولها آثار بعيدة المدى فى مسار **الدعوة الإسلامية** ، والحفاظ على أصولها ، والوقوف عند منابعها النقية الصافية التى لم تَشُبْهَا بعد شائبة مامن الشوائب . ومن أهم دلالات هذا الطابع الذى تميز به العهد النبوى فى تلقى العلم ، ثم فهمه ، ثم تطبيقه عملياً ما يأتى :

** أولا : **التمسك القوى بالدين** ، والاعتصام به ، والحرص الشديد على العقيدة ، واستيعاب ماتدعو إليه ، وتطبيقه .

** ثانيا : **الرغبة القوية الجادة فى العلم** والتفقه فى الدين والدعوة إليه ونشره ، استجابة لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« نضر الله امرءاً سمع مقالتى فرعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع»(١) .

** ثالثاً : الطاعة المطلقة لله ولرسوله ، والخضوع الكامل ، والتسليم لحكم الرسول فيهم ، والانقياد له ، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(٢)

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه

(٢) سورة النساء آية (٦٥)

قال ابن القيم : **أقسم الله** سبحانه وتعالى بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ماشجر بينهم من الدقيق والجلى ، ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده ، بل حتى ينتفى عن صدورهم الحرج والضيق، من قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً[(١)] ..

هذا الطابع الذى تميز به العهد النبوى ، لدى المسلمين آنئذ – من العلم والفهم والعمل – كان يمثل **المنهج العلمى التطبيقى** ، الذى ساروا عليه منذ فجر الدعوة الإسلامية، فقد جعلوا العلم للفهم والعمل ، يقول **أبو عبد الرحمن السلمى** :

حدثنا الذين يقرئوننا القرآن **كعثمان بن عفان** ، وعبد الله بن مسعود أنهم كانوا إذا تعلموا من **النبى ﷺ** عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

لقد حفظ أصحاب هذا العهد كتاب ربهم وسنّة نبيهم ﷺ ، وسار **الفهم والعمل** جنباً إلى جنب مع **العلم والنظر** .. ثم سارت الحياة كذلك – رُخَاءً طيبة – فى عهد الخليفتين ، **أبى بكر وعمر رضى الله عنهما** ، حتى كانت الخلافات ، التى بدأت تبرق شرارتها بعد ذلك ، حيث تسربت الفتنة بين الناس ، وتولى كبرها **عبد الله بن سبأ اليهودى.**

وفى العهد النبوى لم يكن هناك مجال للخلاف ، ولاخوف على السنّة الشريفة ، لأن الصحابة كانوا إذا ظهر بينهم خلاف فى مسألة من المسائل يرجعون إلى النبى ﷺ ، وإذا عَنَّ لهم أمر يسألونه فيه .. فلما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى خيف العبث بالسنّة ، خصوصاً والحديث لم يُدَوَّن بعد فى كتاب ، والإسلام تتسع رقعته يوماً بعد يوم ويدخل فيه الكثير وفيهم من لايؤمن جانبهم على الدين من المنافقين ونحوهم .

لذا كان من الضرورى أن يتثبت الصحابة فى سنّة نبيهم الذى وضع لهم الأساس الأول فى قاعدة التثبت ، فبنوا عليها منهجهم فى الرواية ، وذلك بما بيّنه لهم عليه الصلاة والسلام من خطر الكذب عليه حين قال :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[(٢)] .

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم
(٢) راوه البخارى ومسلم

وسار على سنّة التثبت التابعون ومن جاء بعدهم ، وعُنوا بالأسانيد ، وبالنقد العلمى الدقيق .

وظل الحال كذلك حتى ظهرت الفتن ، وقام أعداء الإسلام يعملون فى ظلام الفرقة التى دبت بين المسلمين ، كما وجدوا المناخ ملائماً لبث سمومهم ، ودس أكاذيبهم.

وكان ظهور الكذب والتلفيق ووضع الحديث ، من أهم الأسباب التى حفزت همم العلماء والأئمة لتدوينه ، وتصنيفه ، صيانة له من الأيدى العابثة .

يقول الإمام الزهرى : « لولا أحاديث تأتينا من المشرق ننكرها لانعرفها ماكتبت حديثاً ولا أذنت فى كتابته » .

ولم يكن ذلك الوقت الذى ازداد فيه نشاط العلماء فى الجمع هو مبدأ زمن التدوين ، وإنما بدأت كتابة الحديث منذ عهد النبى ﷺ بصورة خاصة وغير رسمية .

فالسنّة النبوية ، لم تبق مهملة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن عبد العزيز .. وإنما كانت تكتب كتابة فردية فى عهد الرسول ﷺ ، والصحابة والتابعين .

وحُفظت فى الكراريس والصحف بجانب حفظها فى الصدور ، حيث كانت توجد بعض الصحائف التى شاركت الصدور فى حفظ السنّة .

ومن هذه الصحائف : صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التى تسمى بالصادقة ، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة ، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص المجاهد : « هذه الصادقة فيها ماسمعته من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه أحد » ، وهى **تشتمل على ألف حديث** . وكان **لسعد بن عبادة الأنصارى** صحيفة ، **ولسمرة بن جندب** صحيفة ، والصحيفة التى دوّنت فيها حقوق المهاجرين والأنصار واليهود وعرب المدينة .. وكان **لجابر الأنصارى** صحيفة ، **ولأنس بن مالك صحيفة** ، كان يبرزها إذا اجتمع الناس ، **ولهمام بن** منبه صحيفة ، تسمى « **الصحيفة الصحيحة** » ، رواها عن **أبى هريرة** ، وكان ابن **عباس** معروفاً بطلب العلم ، وبعد وفاة النبى ﷺ .. كان يسأل الصحابة ويكتب عنهم ، وكانت

تلك الصحف والمجاميع ، تحتوى على العدد الأكبر من الأحاديث التى دوّنت فى القرن الثالث الهجرى .

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « رجال الفكر والدعوة » : « وإذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وماااحتوت عليه من الأحاديث كوّنت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث .. وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس ، حتى المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودوّن فى القرن الثانى ، ومانشأ هذا الغلط إلا عن طريقتين :

* الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث في القرن الثانى ، ولايعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

* الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لايتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت من القرن الأول - أ . هـ .

ويقول العلامة مناظر أحسن الكيلانى متفقاً مع الندوى فى كتابه « تدوين الحديث» : « وقد يعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية ، فيقال إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبى زرعة ، ويروى عن الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث، ولايعرف كثير من المتعلمين فضلاً عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون ، فحديث « إنما الأعمال بالنيات » يروى من سبعمائة طريق ، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله الذى يعتبر من المتسامحين المتوسعين أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لاتبلغ عشرة آلاف » - أ هـ .

وأنا أرجح هذا الرأى ، وهو كتابة الحديث فى القرن الأول ، لأن أهل القرن الأول هم حلقة الاتصال بالنسبة لمن بعدهم من أصحاب القرون التالية الذين انتقلت على أيديهم السنّة . وأهل العهد الأول وإن كانت الأحاديث المدوّنة عنهم يظن أنها قليلة إلا أنها صحيحة كلها لا يداخلها شك ، إذ لم يكن الكذب أو الوضع قد شاع فيهم كالذين جاءوا من بعدهم ، فهم عدول ، وهم خير القرون ، ومامن شك فيما كانوا عليه فى العهد الأول من المنزلة العالية فى الحفظ والضبط ، وليس هذا غريباً على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قمماً عالية فى الحفظ والإتقان ، ولكن مع هذا فقد كتب بعضهم الأحاديث فكان وصولها إلى القرون التالية شفاهة وتحريرا ، وهذا أدق وأوثق .

يقول ابن الصلاح : « ولولا تدوينه – أى الحديث – فى الكتب لدرس فى الأعصر الأخر » .

وقد وردت بعض أحايث تنهى عن الكتابة ، منها ماررواه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال :

« لاتكتبوا عن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » [1] .

وعن أبى نضرة قال : قيل لأبى سعيد : لو اكتتبنا الحديث ؟ فقال : « لانكتبكم ، خذوا عنا ، كما أخذنا عن نبينا ﷺ » [2].

وهذا النهى عن كتابة الحديث كان فى بدء الدعوة خشية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس ، أو أن النهى كان فى حق من يوثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ، ولذا أذن بالكتابة لمن لايوثق بحفظه كأبى شاه .

أو أن النهى كان عاماً وخص بالسماح له من كان كاتباً مجيداً لايلتبس عليه الحال بين السنّة والقرآن كعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : « مامن أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب » [3] .

---

(١) رواه مسلم والدرامى

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٦)

(٣) رواه البخارى والدرامى

كما كان للنهى عن الكتابة ثمرة عظيمة : هى اتساع المجال أمام القرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة ويثبت فى صدور الحفاظ ، أو أن النهى كان خاصاً بكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة ، والإذن فى تفريقهما .

أو أن النهى كان متقدماً ، فالإذن بالكتابة ناسخ له عند الأمن من الالتباس ، وهذا أقرب الآراء .

وقد ظل النهى عن الكتابة قائماً حتى كثرت السنن وخيف عليها أن تضيع من البعض ، فكان الإذن بالكتابة ناسخاً لما تقدم من النهى ، ولم يلحق رسول الله ﷺ ، بالرفيق الأعلى إلا وكان الإذن بالكتابة .

وقد هم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكتابة الحديث واستشار أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه ، فطفق يستخير الله فى ذلك مدة ثم عدل عن ذلك .

ولما اتسعت الفتوحات ، وتفرق كثير من الصحابة فى الكثير من الأقطار ، دعت الحال إلى تدوين الحديث ، وذلك حين أفضت الخلافة إلى الإمام العادل عمر بن عبد العزيز ، وكان ذلك على رأس المائة الأولى ، فقد كتب إل بعض علماء الأمصار أن يجمعوا الأحاديث ، كما كتب إلى عماله فى أمهات المدن الإسلامية ، وأصدر أمره إلى الأقطار الإسلامية : «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه» .

وكتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « اكتب إلى بما يثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ ، وبحديث عمرة ، فإن خشيت دروس العلم وذهابه » .. كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبى بكر كما أمر ابن شهاب الزهرى وغيره بجمع السنن فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذى أشعل هممهم ، وصادف أمره فى نفوسهم الاستجابة والقبول ، وهكذا أتم الله على يد عمر بن عبد العزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى عدل عنها خشية التباس السنّة الشريفة بالقرآن الكريم .

وكان تدوين الإمام الزهرى للسُنّة ، عبارة عن جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص ، فكان لكل باب من الأبواب مؤلف قائم به ، فكتاب للصلاة مثلاً وآخر للصوم وهكذا ، وكل مؤلف من هذه المؤلفات تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه ، ومختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

وقد أخلص الإمام الزهرى نيته وعمله لله وللرسول فى تدوين السنّة ، والتنبيه على العناية بأساليبها .

وقد قام الأئمة – بعد ذلك – بإتمام ما بـدأه الزهرى ، فكان عمل الزهـرى ، يعتبر – بحق – حجر الأساس لتدوين السنّة فى كتب خاصة ، ولكى يوضح الإمام الزهرى هذا العمل ويسلم أساس البناء للجيل الذى سيأتى بعده ، كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه .

وبعد الإمام الزهرى ، تعاون الأئمة والعلماء فى المدن الإسلامية فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام وخراسان واليمن ومصر وواسط والرى .. واضطلع الأئمة من أمثال الإمام ابن جريج بمكة ، والإمام مالك بالمدينة ، والإمام سفيان الثورى بالكوفة وغيرهم اضطلعوا بالمهمة الجليلة الملقاة على عاتقهم فأكملوا مابدأه الزهرى ، الذى قام بالتدوين فجمع كل باب فى مؤلف خاصٍّ كما سبق ، فجاء هؤلاء من بعده ، فجمعوا أحاديث كل باب من أبواب العلم على حدة ، ثم ضموا الأبواب بعضها إلى بعض فكانت مصنفاً واحداً ، وخلطوا الأحاديث بأقوال الصحابة والتابعين .

وأما مَنْ جاء بعد هؤلاء الأئمة – من أهل عصرهم – فقد سار على دربهم ، ونسج على منوالهم ، إلى أن رأى بعض الأئمة إفراد الحديث خاصة على رأس المائتين فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، فألفت المسانيد .

ثم جاءت طبقة أخرى دوّنت السنّة فى كتب خاصة تحرّوا فى تدوينها الصحيح على شروطهم ، وأفردت الحديث عن غيره وجمعته على أبواب الفقه ، واختارت الرواة المشهورين بالثقة .

وبهذا يتضح أن تدوين السنّة لم يأخذ وضعه فى الظهور والتصنيف تماماً إلا فى منتصف القرن الثانى فى خلافة بنى العباس وإن كان قد بدأ قبل ذلك .

ولقد كان لتدوّين السنّة على هذه المراحل أثره الجليل فى حفظها من الدخيل ، ومن الكذب على الرسول ﷺ ، كما كان لتدوين السنّة على هذه المراحل أثره حيث يسهل الطريق للاجتهاد والاستنباط .

وهكذا نقف على حقيقة علمية هامة ، وهى أنّ السنّة قد حفظت فى الصحف

بجانب حفظها فى الصدور ، ولم تبق مهملة طيلة بقية القرن الأول ، وإنما كتبت الأحاديث، وحفظ الكثير منها فى الصدور من لدن صدورها من الرسول ﷺ ، إلى أن تلقتها الصدور الواعية والصحف الأمينة وتناقلتها جيلاً بعد جيل .. وفى هذا مايرد كل افتراءات المبشرين والمستشرقين ، ويدفع كل مايثيرونه من شبه واهية حول الأصل الثانى من أصول التشريع ، والمصدر الهام – بعد كتاب الله تعالى – وهو حديث الرسول ﷺ .

وفقنا الله تعالى إلى خدمة السنّة الشريفة ، ورزقنا حسن القول والعمل ، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

❁❁❁

الرواية فى الإسلام

للرواية فى الإسلام أهميتها القصوى ، فى نقل أشرف العلوم وأفضلها وأهمها ، وكان للرواية فى الإسلام ، وفى علم « أصول الحديث » بصفة خاصة ، خصائص تميزها عن غيرها وسمات محددة انفردت بها .

لقد تميزت الرواية عند المحدثين بالإسناد المتصل ، وبثقة الراوى ، وبخلو المروى من أى شذوذ أو مخالفة ، ومن أية علة من العلل . ولم يُعْنَ العرب – قبل الإسلام – بتصحيح الأخبار ، وتمحيص المرويات والعناية الكاملة بها .

وماذلك إلا لأن مروياتهم لم يكن لها من القداسة ، مايدعو إلى ذلك ، ففيها الأساطير ، والأحاديث المختلقة .

أما الرواية فى الإسلام ، وفى الحديث بصفة خاصة ، فقد شَدَّدَ العلماء فيها ، وقعَّدوا لها القواعد ، وصاغوا لها الشروط ، بعناية فائقة تعتبر أدق ماوصل إليه النقد فى القديم والحديث .

ولم تبلغ الرواية فى العلوم الأخرى شأو مابلغته رواية الحديث ، ولم تَلقَ من العناية مثل مالقيته لدى المحدثين ، من دقة النَّقد ، وتمحيص المرويات .

ولم يتمسك رواة العلوم الأخرى بالإسناد طويلاً ، كما تمسك به المحدثون ، فلم نر لعلماء اللغة مثلاً مُعجَماً مُسْنَداً ، كما هو الشأن فى صحيحى البخارى ومسلم .

بل إن ماجمعه علماء اللغة وغيرهم ، لم يكن كله فى درجة واحدة من الثقة والصحة ، فقد تعرض للتصحيف ، وتسلل إليه الوضع والتحريف ، وحامت حول بعضه الشكوك والشبهات ، ويرجع ذلك إلى أسباب يمكن إجمالها فيما يأتى :

* إن سائر العلوم الأخرى واللغات ، باستثناء القرآن والسنة لم تتمتع بالقداسة والإكبار فى النفوس ، ولم يكن لها من الأثر البالغ الذى للقرآن الكريم والحديث الشريف . فلهذين الأصلين الشريفين – الكتاب والسنة – أثر عقدى وروحى فى نفوس المؤمنين ، إنها ينابيع الهدى والرشد والحكمة ، ودستور إلهى سماوى ، فكان لزاماً عليهم أن يصونوهما لأنهما يحتويان على سعادتهم دنيا وأخرى .

* ثم إن الألفاظ اللغوية ، لاتقع تحت حصر ، فلو حاول العلماء تدوين كل كلمة ، وكل اشتقاق عن طريق الإسناد ، لوصل بهم الأمر مدى لايحصى .

* وكان بعض علماء اللغة ليسوا فى دقة المحدّثين الذين بلغوا فى التحرّى والضبط والإتقان مدى بعيداً .

* وبعض علماء اللغة ، أخذ عن الكتب والصحائف فى العصور الأولى ، ولم تكن يومئذ منقوطة ولامشكولة ، إلا ماكان فى القرآن الكريم فقط .

الموازنـــة

وليس معنى هذا أن نفقد الثقة بتلك العلوم ، ولكن المراد توضيح اختلاف النظريتين عند الموازنة ، فالمحدّثون نظروا على أنه دين وتشريع له قداسته ، وأما غيرهم فلم تصل نظراتهم فيما دوّنوه ماوصلت إليه نظرة أهل الحديث .

ويتبين لنا الفرق واضحاً بما صنعه ابن جرير الطبرى فى كتابه « التفسير » حيث تحرّى الدقة فى الرواية أكثر ما صنع فى كتابه « التاريخ » وماذلك إلا لتغاير النظرتين . هذا بالإضافة إل ماأمر به المسلمون فى القرآن الكريم ، من قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٢)

---

(١) سورة الحجرات آية (٦) (٢) سورة الإسراء آية (٣٦)

وماورد فى السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، من التحذير من الكذب ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن كذباً على ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

ومن أهم ماتميزت به الرواية – عند المحدثين – « الإسناد » وللإسناد أهميته فى تمحيص الأخبار وتوثيقها ، وتمييز صحيحها من ضعيفها .

وإذا نظرنا إل السنة الشريفة ، وجدناها تمثل المصدر الثانى من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم ، فهى المفسرة لمبهمه ، المفصلة لمجمله ، المقيدة لمطلقه ، الشارحة لأحكامه .. كما أتت السنة بأحكام لم يرد نص فى القرآن عليها ، كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها وغير ذلك .

فكانت السنة بهذا متممة لأحكام القرآن ، ومطبقة لما فيه ، وجاءت مرتبتها بعده مباشرة ، لهذا كله ، كان الطريق الذى يصل بنا إليها – وهو الإسناد – له نفس الأهمية ، إذ لولاه لما عثر طالب الحديث على طلبته ، ولما وقف المسلمون على أحكام دينهم مفصلة واضحة .

وبالإسناد يمكن تحقيق الأخبار ، ومعرفة مايقبل ومايرد منها . كما يستطيع طالب الحديث أن يقف على درجة كل قول أو فعل أو تقرير أو صفة مما وردت به السنة من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف أو ما إلى ذلك .

وبالإسناد يمكن صيانة السنة وحفظها من الدس والتحريف أو الوضع والتبديل أو النقص أو الزيادة .

وبالإسناد – أيضاً – تدرك الأمم والشعوب درجة السنة وأنها قد ثبتت بأدق طرق النقد والتحقيق ، التى لاتعرف الدنيا لها مثيلاً ؛ لأن الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية ، وهذا يرد دعاوى المبطلين وشبههم التى أثاروها حول صحة الحديث الشريف ، وحسب الإسناد فضلاً أن الله حفظ به الدين من تحريف المبطلين .

---

(١) رواه البخارى ومسلم

منزلة الإسناد

ولما كان للإسناد هذه المنزلة ، وهو العمود الفقرى « للرواية » فقد حث الشارع على طلب الإسناد وحض المسلمين على تتبعه ، من ذلك : مارواه الحاكم وغيره عن مطر الوراق فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ (١) قال : إسناد الحديث ، وفيما أخرجه مسلم : قال ابن المبارك : الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء .

وقال الإمام أحمد : طلب الإسناد العالى سنة عمن سلف . وإلى جانب هذا حث الشارع الحكيم عليه ، فقد قيض الله له الأئمة الثقات الضابطين العدول ، الذين أفنوا أعمارهم فى خدمته، وكان الإسناد ، بحق من خصائص الأمة الإسلامية ، يقول ابن حزم :

« نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبى ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل ، وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد فى كثير من اليهود ، ولكن لايقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً ، وإنما يبلغون إلى شمعون ونحوه .

وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق فقط .. وأما النقل بالطريق المشتملة على كذاب أو مجهول العين ، فكثير فى نقل اليهود والنصارى » .

وقال أبو على الجيانى : خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها : الإسناد ، والأنساب ، والإعراب .

وقد حدد علماء مصطلح الحديث قاعدة لقبول الرواية ، وهذه القاعدة تتلخص فى كلمة واحدة هى : « الثقة » .

والمراد بالراوى الثقة : أمران : الأول عدالته ، والثانى ضبطه . فأما شرط العدالة ، فهو لتحقق كون الراوى ثقة فى دينه ، وأما شرط الضبط ، فهو لتحقق كون الراوى ثقة فى روايته . والراوى العدل : هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة.

وذلك بأن يعرف بالصلاح والتقوى ، فيمتثل ماأمر به ، ويجتنب مانهى عنه ، فلا

---

(١) سورة الأحقاف آية (٤)

يقترف كبيرة من الكبائر ، ولايكون مصرا على صغيرة من الصغائر ، ولايكون صاحب بدعة، لأن من شأن المبتدع أن يميل إلى بدعته ، ويسعى فى نصرة مذهبه ، فلا يؤمن الكذب عليه .

وقد حذر الله تعالى من أخبار الفاسق فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1]

وفيما رواه البيهقى من حديث ابن عباس : « لاتأخذوا العلم إلا ممن تقبلون شهادته » وعن ابن سيرين : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » وفيما رواه البيهقى عن النخعى قال : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سـمته وإلى صلاته وإلى حاله ثم يأخذون عنه . والراوى الضابط : هو اليقظ الذى لايغفل والحافظ إذا كان يروى من حفظه ، الضابط لكتابه من التبديل والتغيير إن حدث من كتابه العالم بما يحيل المعنى إن روى بالمعنى .

ومتى كان الراوى عدلا ضابطاً على نحو ماسبق سمى : « ثقة » فتجب الطمأنينة إليه ، وقبول روايته .

وهكذا بالعدالة والضبط ، يصبح « الراوى » فى درجة القبول فينظر إلى « المروى » بعد هذا ، فإذا تحققت شروط القبول فيه بأن سلم من « الشذوذ » أى لم يخالف الراوى من هو أوثق منه وأرجح ، وسلم من « العلة » أى لم يكن فيه قادح خفى ، عندئذ يصبح المروى فى درجة القبول . فينظر فى « الرواية » فإذا كان الإسناد متصلاً سالماً من الخلل ومن العلل، ترجحت صحة الحديث وكان مقبولا .

وبهذا ندرك كيف قامت قوانين هذا العلم ، على قواعد دقيقة فى النقد والتوثيق ، توجب الثقة المطلقة فى السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد اجتهد المحدثون فى « الرواية » فحققوا أمهات كتب الحديث ،حديثاً حديثاً ، وحرفاً حرفاً ، ونقدوا كل راو ، وقارنوا بين رواياته بعضها مع بعض ، وقارنوا بين رواياته وروايات غيره ، فإن عثروا فى نقدهم لراو من الرواة على شبهة فى صدقه وعلموا أنه وقع

---

(١) سورة الحجرات آية (٦)

منه الكذب فى شئ من كلامه هو ، رفضوا روايته وردوها ، وإن لم يعهد الكذب عليه فى الحديث .

وإن وجدوا فى الراوى خطأ كثيراً ، أو كان حفظه غير جيد حكموا على روايته بالضعف وإن كان صادقاً وورعا ًولاطعن فى سيرته وذلك مخافة أن تكون ذاكرته قد خانته .

فلم يكتفوا بجانب الصلاح والتقوى فحسب ، ولابجانب الضبط فحسب ، لأن الراوى قد يكون عدلا وصالحاً وورعاً لامطعن على حياته وسلوكه ولكن حفظه قد يخونه وضبطه غير قوى .

وقد لاتخونه ذاكرته ولاحفظه ، ولكنه غير عدل ولاصادق ولاصالح ، فلذا كان لابد من مراعاة الأمرين معاً .

وبتلك القواعد الأصيلة ، والقوانين الدقيقة ، حرر المحدثون ورجال السنة أصولهم التى وضعوها كموازين لنقد الرواية ، وحققوا قواعدهم بهمة عالية ، وبأقصى مافى الوسع البشرى ، حفاظاً على السنة ، واحتياطاً فى الرواية ، فكانت قواعدهم – بحق – أقوى القواعد للإثبات التاريخى ، وقد نسج على منوالهم كثيرون من علماء اللغة والأدب والتاريخ وغيرهم فكانت قواعدهم وكان هذا العلم «علوم الحديث» أساساً لكل العلوم ، وكان المشعل الذى أضاء الحياة أمام النقد والتحقيق .

وفقنا الله تعالى لخدمة الإسلام والسنة إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

❁❁❁

الشباب فى ضوء الكتاب والسنة

الشباب مرحلة من مراحل العمر ، تتمثل فيها القوة والحيوية ، والحركة والنشاط ، ومرحلة الشاب هذه جعلها الله وسطا بين مرحلتين ، كلتاهما تتسم بالضعف :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الطفولة من حين يولد الطفل ضعيفا لايقدر على الحركة ، ولايستطيع التعبير ، ولايعى من الأمر شيئا ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

والمرحلة الأخرى : هى مرحلة الشيخوخة والكبر ، وفى هذه المرحلة تنقلب حال الإنسان من القوة إلى الضعف ، فتنقص معلوماته ، وتضعف بنيته وقواه كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) فمن وصل إلى هذه المرحلة يكون قد تقلب فى المراحل الثلاث ، وانتهى حاله إلى الضعف والنقص ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ (٣) وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك المراحل أيضا فى قول الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ (٤)

وتعتبر مرحلة الشباب من أدق المراحل فى حياة الإنسان ، فهم يحملون نفوسا خصبة، صالحة للخير والإصلاح ، وقلوبا صافية لم تقتحمها بعدُ عاداتٌ سيئة ، ولاتقاليد

---

(١) سورة النحل آية (٧٨)
(٢) سورة يس آية (٦٨) .
(٣) سورة الحج آية (٥)
(٤) سورة الروم آية (٥٤)

ضارة ، ولاضروب من الأخلاق التى تتراكم عادةً لدى الكبار ، ومن أجل هذا كانوا أسرع فئات المجتمع إلى قبول النصيحة ، واستجابة الدعوة . وكان لتوجيههم وإرشادهم أكبر الأثر فى مستقبل حياتهم ، خاصة منذ الصغر ، قبل أن يشبوا ويكبروا على بعض العادات أو الرذائل التى قد تغشاهم فترة ما من الزمن أو تهب عليهم بعواصف الشك والقلق ، فيصبح علاجهم حينئذ صعبا ، لأن من شب على شئ شاب عليه .

وفى هذه المرحلة أيضا ، كثيرا ماتتحرك العواطف ، وتهب من ركودها فى نشاط وحيوية ، تتسم بحسن الخلق ، والإعجاب بمظاهر البطولة فى سبيل الحق والخير ، كما تتسم بحدة العقل .

ومن نصائح السلف ، قول ابن شهاب الزهرى : « لاتحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان ، واستشارهم يبتغى حدة عقولهم » .

ولطالما كان رسول الله ﷺ يُعنى بتشجيع الشباب ، ويكشف عن أهمية دورهم فى الحياة فيمنحهم الثقة بأنفسهم ، إذ يثق بهم فى معضلات الأمور ، وأصعب المهام وأخطرها، فيسند إليهم الأعمال العظيمة ويوليهم القيادة ، كما حدث لعَلى يوم بدر ، وزيد بن ثابت يوم تبوك .

رعاية الشباب فى ضوء القرآن الكريم

وإذا نظرنا إلى رعاية الشباب فى ضوء القرآن الكريم ، فإننا سنقف أمام عطاء غامر ، ودروس باهرة تتضافر فى إبراز ما للشباب من أهمية ، وتلقى الضوء على كيفية المحافظة عليهم وتوجيههم، وتربيتهم وتعليمهم.

وأمامنا الآن أربعة معالم تتصل رعاية الشباب بها :

أولا – أنهم نعمة من الله سبحانه وتعالى ، يتمناها الناس ، كما تمناها الأنبياء ، فلذا يدعون ربهم أن يهبهم ذرية صالحة .

ثانيا – رعاية الله تعالى لهم منذ الإقرار فى الرحم إلى أن يخرجوا إلى الوجود .

ثالثا – المحافظة على حياة الأبناء ، ورعاية طفولتهم ، والدفاع عنهم ، وتوفير السعادة لهم .

رابعا – تربيتهم وتعليمهم .

أما بالنسبة للأمر الأول ، وهو أنهم يمثلون نعمة من أكبر النعم التى يتمناها الناس كما تمناها الأنبياء ، ويدعون ربهم بها ، فنرى قول الله تعالى فى وصف عباده الذين شرفهم بالإضافة إليه وسماهم عباد الرحمن **قال** : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) وقال سبحانه فى شأن زكريا عليه السلام ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (٢)

وأنهم أيضا زينةُ الحياة الدنيا ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن هذه النعمة قد ينالها البعض ولاينالها آخرون ، ومايمنح الله لعباده منها قد يكون ذكرا وقد يكون أنثى وقد يكون الأبناء من الذكور والإناث وقد لاينجب الرجل مطلقا بأن يكون عقيما، وذلك كله دالٌّ على سعة علم الله وحكمته ، وقدرته وإرادته، قال سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٣)

ومن أجل هذا فإن القرآن حين يشير إلى الأبناء باعتبارهم زينة يتزين وينعم بهم الإنسان كما يتزين وينعم بالمال ، فإنه يردف الحديث بأن الأبقى ثوابا ونفعا، يكون فى الباقيات الصالحات من أعمال الخير التى تبقى ثمرتها قال تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٤)

وهداية الأبناء هى أمنية الآباء التى يدعون الله بها لهم ولأنفسهم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (٥)

(١) سورة الفرقان آية (٧٤)
(٢) سورة آل عمران آية (٣٨)
(٣) سورة الشورى آية (٤٩ ، ٥٠)
(٤) سورة الكهف آية (٤٦)
(٥) سورة إبراهيم آية (٣٥)

ويصور القرآن الكريم أثر الآباء في الأبناء ، حين تصح عقيدتهم ، ويسلكون الصراط المستقيم ، ويتبعون هدى الله فتتبعهم ذريتهم على طريق الإيمان قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (١)

وأما بالنسبة للأمر الثاني ، وهو رعاية الله للأبناء منذ الإقرار في الرحم فقد وضح القرآن الكريم أطوار الخلق ، مبينا كيف كانت رعاية الله للإنسان منذ اللحظة الأولى ، التي كان فيها نطفة ، ثم تدرج إلى علقة ، ثم إلى مضغة .. إلى أن يخرج طفلا ، ثم إلى أن يكبر ، واستدل بهذه الأطوار على كمال قدرته تعالى على البعث ، قال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ (٢)

كما راعى الإسلام للأبناء حق الرضاع حتى يضمن للطفل من اللحظات الأولى ماتنهض به حياته ، وتقوم عليه فقال سبحانه : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ (٣)

وأما عن الأمر الثالث ، وهو المحافظة على حياة الأبناء ، والدفاع عنهم ، وتوفير السعادة لهم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (٤) فقد نهى الله عن قتلهم من أجل فقر موجود حال ، وفي موطن آخر قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ (٥) أى مخافة وقوع فقر . كما راعى الإسلام في سبيل المحافظة على

(١) سورة الطور آية (٢١)
(٢) سورة الحج آية (٥)
سورة البقرة آية (٢٣٣)
(٤) سورة الأنعام آية (١٥١)
(٥) سورة الإسراء آية (٣١)

حياة الأبناء ، حمايتهم وصيانتهم من التعرض لهزات الزمن ، وتقلب الحياة ، فأمر الأوصياء أن يخشوا ربهم ويتقوه في أمر اليتامى ، وأن يتصرفوا معهم بما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعفاء بعد موتهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (١)

وأما بالنسبة للأمر الرابع ، وهو تربية الأبناء وتعليمهم ، فقد قدم لنا القرآن الكريم صورة من الوصايا في إطار متكامل ، ترسم للشباب معالم الطريق ، وملامح الحياة المستنيرة المستقيمة ، التي تظل موصولة بالله ، وبالمجتمع الذي يعيشون فيه على أساس ثابت من العقيدة المستقيمة . هذه الوصايا يقدمها القرآن على لسان لقمان ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ⑭ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑮ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ⑯ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ⑰ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ⑱ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٢)

إن أولى الوصايا ، وأهم أساس من أسس التربية والتوجيه : « العقيدة » التي تتمثل في توحيد الله تعالى ، ثم كانت الوصية بالوالدين ، وهي وإن لم ترد على لسان لقمان ، إلا أنه أوردها هنا تأكيدا لتصحيح مسار العقيدة والمبالغة في عدم التهاون بها ، حتى وإن كان ذلك ممن وصى الله بهما بعده مباشرة وهما الوالدان ، ثم كان التوجيه إلى علم الله الذي

---

(١) سورة النساء آية (٩)　　(٢) سورة لقمان الآيات (١٣ - ١٩)

أحاط بكل شئ ، ولطفه الذى يدرك كل دقيق من الأمور ، وكل خفى عن الناس ، ثم الوصية بالصلاة ، التى تعنى الصلة بالله تعالى ، والتى من ثمراتها تهذيب النفس ، والانتهاء عن الفحشاء والمنكر﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) .

ثم تنتقل الوصايا من الصلاة التى تتهذب بها النفوس وتكمل فى هداها ، إلى مايهذب من الغير ويكمل هداه ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكل ذلك فى حاجة إلى الصبر والاحتمال واستمرار مواصلة السير . ولايكفى لتهذيب الفرد إرشاده والتقويم من اعوجاجه ، مجرد النصيحة ، أمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، بل لابد من المعاملة الحسنة مع الغير ، وممارسة القدوة والتطبيق العملى معه ، كما لابد أيضا من التواضع والتآلف .. هكذا سارت بنا هذه الوصايا الحكيمة ، ترسل عطاءها وهداها ، رعاية للأبناء والشباب ، فى جميع الجوانب ، مايتصل منها بعقيدته وصلته بالله ، ومايتصل منها بسلوكه وتهذيبه وتنشئته تنشئة صالحة ، ومايتصل منها بعلاقاته الإنسانية ، فى أسمى صورها العديدة الرشيدة .

ويرسى القرآن الكريم أصولا فى الآداب العالية ، ومن بينها : أدب الاستئذان فيما يتصل بالأسرة والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، والشباب الذين بلغوا الحلم ، وذلك عند دخولهم على الكبار فى وقت الراحة والخلوة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

---

(١) سورة العنكبوت آية (٤٥)

(٢) سورة النور آية (٥٨ ، ٥٩)

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن غلام أسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت الآية ، وقيل : أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر رضى الله عنه : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لايدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن ، ثم انطلق معه إلى النبى ﷺ ، فوجده وقد أنزلت تلك الآية السابقة ، ولقد ضرب لنا القرآن الكريم أروع الأمثلة فى أنبل نموذج للطهر والعفاف مع نبى الله يوسف – وهو شاب – فلقد تعرض لفتنة الجمال مع امرأة العزيز ، قال تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]

كما ضرب المثل الرفيع بنبى الله موسى عليه السلام فى مروءته ونجدته مع بنات شعيب ، ويشيد القرآن بقوته وأمانته إذ يقول ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[2].

---

(١) سورة يوسف آية (٢٣)

(٢) سورة القصص الآيات (٢٣ – ٢٦)

رعاية الشباب فى ضوء السنة الشريفة

أولا - جانب التربية :

لقد عُنى الرسول ﷺ برعاية الشباب عناية فائقة ، باعتبارهم طلائع الأمة وعدتها فى الجهاد ، وفى العمل والنهوض ، وباعتبارهم رجال المستقبل وأسبق فئات المجتمع إلى قبول دعوات الإصلاح .

ومن هنا حرص الرسول ﷺ على تنشئة الأبناء على أساس من العقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة ، وتقوى الله تعالى منذ نعومة أظافرهم ، حتى إذا شبوا وكبروا ، كانوا متعودين على العبادات وعلى طاعة الله تعالى ، وكانت سائر أعمالهم وعلاقاتهم بغيرهم نابعة من محيط إسلامى نقى . وأول ماينبغى أن يتعلمه الأبناء من العبادات - بعد معرفة الله تعالى - هو إقامة الصلاة ، قال ﷺ :

« مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع[1] » فيجب على المسلم أن يوجه ابنه ، ويأمره بالصلاة عقب تمام سبع سنين إذا كان الطفل مميزا ، وإلا فعند التمييز ، ويضربه ضربا غير مبرح على تركها وهو ابن عشر سنين ، أى بعد تمامها ، واعتمد جماعة من الشافعية أن الضرب يجب فى الشروع فى العاشرة ، لأن الضرب عقوبة ، والعشر من احتمال البلوغ بالاحتلام ، وفى هذه السن يقوى عوده ويحتمل .

ولما كان لتربية الشباب أثرها البالغ فى الشباب أنفسهم ، وفيمن يؤثرون فيهم بعد ذلك جيلا فجيلا ، كانت نظرة الإسلام إلى تربية الشباب وتوجيه القوى الكامنة فيهم بعيدة المدى ، وبحيث تُقَدَّم تربيتهم على أى عمل آخر حتى ولو كان صدقة ، عن جابر بن سمرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع »[2] .

---

(١) رواه أحمد وأبو دواد الترمذى

(٢) رواه الترمذى .

ويجعل هداية الوالد لولده ، وتوجيهه له التوجيه السديد أفضل هدية يقدمها الآباء للأبناء ، قال ﷺ : « مانحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن »[1] .

ومن أهم مايغرس فى نفوس الأبناء من فضائل الإسلام وآدابه « خلق الصدق » فإذا مانشأوا عليه وألفوه منذ الصغر كبروا عليه ، فكانوا صادقين صالحين فى سائر أقوالهم وأعمالهم ، عن عبد الله بن عامر قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت : تعال أعطك ، فقال لها ﷺ : ماأردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، فقال لها : « أما أنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة »[2] .

ومن أجل أن يشب الأبناء على سائر معانى الإسلام وفضائله ، كانت الرعاية بغرس خلال البر والخير والرجولة فيهم منذ صغرهم لها أهميتها ، ومن ذلك : تحية الإسلام التى هى « السلام » ، عن أنس رضى الله عنه أنه مرَّ على صبيان ، فسلّم عليهم وقال : « كان رسول الله ﷺ يفعله »[3] .

ولم تدع السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام جانبا من جوانب التربية والرعاية إلا واشتملت على وصايا وتعاليم فيه ، ترقى بالشباب ، وتهذب من سلوكهم ، ومن ذلك : جانب قد يغفل الناس عنه ، وقد يهمله بعض الآباء فى أبنائهم بدافع العاطفة والرحمة والإشفاق ، وهو أدب المائدة ، وعندما يتناول الأبناء الطعام ، هنا يوجه الرسول ﷺ النظر إلى ضرورة مراعاة البدء فى الطعام باسم الله ، وأن يأكل الإنسان مما يليه . عن أبى حفص عمر بن أبى سلمة ، ربيب رسول الله ﷺ قال :

كنت غلاما فى حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدى تطيش فى الصحفة ، فقال لى رسول الله ﷺ : « ياغلام سمِّ الله تعالى ، وكل بيمينك وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى بعد »[4] .

---

(١) رواه الترمذى

(٢) راوه أبو دواد .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه البخارى ومسلم

ويوصى الإسلام باليتيم ، لأنه فى حاجة ماسة إلى العناية والرعاية والرحمة ، قال الله تعالى :﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ[1] ﴾ وقال سبحانه وتعالى :﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ[2] . ﴾ «وقال ﷺ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما[3]» .

كما خص البنات بمزيد رعاية وإشفاق ، باعتبارهن ضعيفات ، وباعتبار أهميتهن فى تكوين الأسرة ، فالأسرة أساس المجتمع ، والفتاة عنما تكبر وتصبح أمّـا فإن أهميتها بالغة ، وفى أحضانها تنمو عواطف الأبناء ، وتترعرع أخلاقهم ، لذا كان لها مزيد عناية واهتمام ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخَرجت فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته ، فقال : « من ابتلى من هذه البنات بشئ فأحسن إليهن كن له سترا من النار »[4] .

وهكذا يكون جانب التربية فى ضوء السنة الشريفة ، إنه يقوم على ترسيخ أسس الدين والعقيدة فى قلوب الشباب وعقولهم ، وأخذهم بمعانى الإسلام وقيمه ، وتربيتهم تربية صحيحة ، يستقيم معها سلوكهم وسيرهم فى الحياة .. ثم ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الآخر ، وهو : تحمل المسئولية . أو بعبارة أخرى : جانب العطاء ، فإن جانب التربية بمثابة الأخذ تمثلت فيه التوجيهات والنصائح والتربية الصحيحة المستقيمة .

ثانيا - جانب تحمل المسئولية :

وتقع على عاتق الشباب مسئولية كبيرة ، تبدأ بنفسه وشبابه ، فإن المرحلة التى يمر بها الشباب من حياتهم ، يجب عليهم أن يغتنموها ، قبل أن يغزوهم الهرم والمشيب فيضعفوا عن القيام بمهام الحياة التى نيطت بهم ، وتفلت منهم المرحلة الذهبية فى تحمل

(١) سورة الضحى (٩ - ١٠) .
(٢) سورة الماعون (١ -٣) .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

المسئولية ، وفى عطائهم لأمتهم الإسلامية .. وقد حثت السنة الشريفة على اغتنام هذه المرحلة قبل ضياعها ، كما يجب اغتنام غيرها من فرص الحياة الكريمة التى يمكن أن نثرى بها قوة أمتنا وإنتاجها ، والبذل والتضحية فى سبيلها ، والإنفاق والعمل والسعى فى كل دروب الخير والمنفعة .. يجب اغتنام كل هذا ، عن عمر بن ميمون قال : قال رسول الله ﷺ : « اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك[1] » .

والإنسان مسئول عن هذه المرحلة من حياته ، مرحلة الشباب ، فيم أبلاها ، وكيف قطعها ؟ إنها فترة القوة والنشاط والحيوية ، ويمكن للإنسان أن يستغل شبابه الفتى فى كثير من أوجه الحياة النافعة فى الخير والإصلاح ، فى التقوى والعمل الصالح ، فى الإنتاج فى كل مايدفع بموكب الحياة الإنسانية قُدماً إلى الأمام ، وفى كل مايجعل الحياة تسعد وتزدهر.

إنه مسئول عن كل ذلك ، فقد منحه الله تعالى هذه القُوى الدافقة ، ليستخدمها فى خيره وخير الإنسانية ، أما إن سخرها فى غير ماينفع نفسه ، أو استخدمها فى غير ماينفع الناس والمجتمع ، وتباهى بقوته ، ووجهها للفحشاء والمنكر ، أو الظلم والعدوان ، أو لمصلحة نفسه الخاصة ، فغلفها بالأنانية والأثرة ، فإنه مسئول أيضا عن كل ذلك ، عن أبى بردةَ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيمَ أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به »[2] .

وقد أعد الله تعالى منزلة عالية للشاب الذى ينشأ فى طاعة الله ، إنه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الترمذى ، والبزار ، والطبرانى .

ﷺ : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[1] .

والإسلام إذ يحمل الشباب المسئولية ، ويكلفه الواجب ، إنما يحمله ذلك بعد اكتمال نضجه ، ولايحاسبه إلا بعد بلوغه ، أما قبل ذلك ، فقد رفع القلم عنه ، قال ﷺ : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر »[2] . وفى رواية بلفظ : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم »[3] .

وحرص الرسول ﷺ على توجيه الشباب توجيها سديدا ، وتحميلهم مسئولية الحياة بالزواج وتكوين الأسرة الذى يدفع إلى الكسب والعمل ، فوجههم توجيها يملك عليهم أقطار نفوسهم ويكبح جماحهم ، ويهديهم سواء السبيل ، فناداهم بالوصف القائم فيهم ، الداعى لهم أن يصيخوا السمع ، ويرهفوا الإحساس إلى ماسيُلقى عليهم بعدُ من توجيه فناداهم بوصف الشباب ، قائلا : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[4] » .

ففى الزواج عصمة من الزلل ، ومحافظة من الانزلاق فى وحل المعصية ، أو التردّى فى مهاوى الفساد ، فإنه أغض للبصر فيكفه عن النظر إلى ماحرم الله ، وأحصن للفرج فتكون به العفة وسلامة الخلق والدين وحماية الأعراض ، هذا بالإضافة إلى مافيه من السكن والمودة والرحمة .

---

(١) رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم والترمذى والنسائى (٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه .
(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم . (٤) رواه البخارى ومسلم .

وفى طريق تحمل المسئولية ينبغى أن يكون اتجاه الشباب على أساس من العقيدة الصحيحة استعانة بالله ، وتوكلا عليه ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كنت رديف رسول الله ﷺ يوما فقال : « ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا عل أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف »[1] .

وفى سبيل حمل الشباب للمسئولية ، تركز السنة الشريفة على قيام كل شاب قادر بالعمل ، وأداء الواجب المنوط به ، والسعى على المعاش ، فيقوم بالعمل الذى يعف به نفسه، ويؤدى ماوجب عليه حيال أهله وعشيرته ، أو إن كان له أبوان كبيران وهكذا .. بل إن مثل هذا العمل الشريف الرائد ليعتبر فى سبيل الله مرّ رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا : يارسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»[2] .

وقد وضح الرسول ﷺ – للشاب الذى جاءه يستأذنه فى الجهاد – قيمة مسئولية العمل من أجل برّ الوالدين ، فقال له : أحيٌّ والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد[3].

ويتفرع جانب المسئولية لدى الشباب ، من ناحية الكسب والعمل ، والسعى والجد ، إلى جانب الجهاد فى سبيل الله فيقول ﷺ : « علموا أولادكم السباحة والرماية »[4] ويوضح قيمة الصناعة الحربية التى تكون فى سبيل الله ، ومن أجل إعلاء كلمة الحق ، وقيمة الرماية والتدريب عليها ، عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير،

(١) رواه الترمذى .
(٢) الترغيب والترهيب .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) الديلمى وابن منده .

والرامى به ومنبله ، وارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا ، ومن ترك الرمى بعدما علمه رغبةً عنه فإنها نعمة تركها . أو قال : كفرها »(١) وعن سلمة بن الأكوع قال : مرَّ النبى ﷺ على قوم ينتضلون فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال لهم الرسول ﷺ : مالكم لاترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعا »(٢) .

ثم يتفرع جانب المسئولية – فى الشباب – إلى ناحية ثالثة ، هى الناحية الإنسانية وفيها يتمثل التعاون ومساعدة الضعفاء وكبار السن ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: « ما أكرم شاب شيخا لسنّه إلا قيّض الله له من يكرمه عند سنه »(٣) ذلك أن من المعلوم أن الصحة نعمة من النعم يجب أن يؤدى صاحبها حقها من المساعدة للضعفاء ، ومعاونة كل محتاج وكبير ، يقول الرسول ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »(٤) .

انحرافات الشباب
أسبابها .. وعلاجها

تظهر أسباب انحراف الشباب تدريجيا على حسب نشأته المتدرجة من المنزل ، إلى الشارع إلى المدرسة ، إلى المجتمع ، ثم إلى وسائل الإعلام المختلفة ..

أما بالنسبة للمنزل ، فترجع أسباب الانحراف منه إلى عدم تمثل الوالدين للقيم الدينية ، وعدم تمسكهم بآداب الإسلام قولا ، وعملا ، وتطبيقا ، وتربية لأبنائهم . والبيت هو أول مدرسة تنمو فيها عواطف الشباب وميوله وغرائزه ، وعلى الأبوين المسئولية الأولى بالنسبة للأبناء ، فإذا مارأى الابن أن الأبوين منصرفان عن التعاليم الإسلامية ويهملان شأنها ولايُعْنَيان بأخذه بها وتربيته عليها ، انطلق من البيت ومعه الميول والنزعات القابلة لأى انحراف بعد ، لأنه لم يأخذ الحصانة الأولى من البيت .

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) رواه البخارى

ومن هنا فإنه إذا خرج إلى الشارع ، فوجد انحرافاً ما ، أو سلوكا غير صحيح من بعض الشباب الذين يقاربونه فى السن ، فإنه لايجد بأسا فى تقليدهم ، أو السير معهم ، ولايشعر فى نفسه بأى امتناع عن سلوك الشر أو النزوع إليه ، فيسلك مايسلكون ، ويسير فيما يسيرون فيه ، بل قد يصادفه فى الشارع أو فى الأماكن العامة مثلا بعض المظاهر المخالفة للفضيلة ، فلا يجد فى نفسه إنكاراً لها ، بل ربما استهوته تلك المخالفات فأشعلت فى نفسه الرغبة فى الشر أكثر .

وإذا ما ذهب بعد ذلك إلى المدرسة الْتَقَى بمن فى سنه فيجد منهم نماذج مختلفة وطباعا متباينة ، فيها الخير وفيها الشر ، فإذا مازحف الشر عليه ، فمن المفروض أن فيما يتلقاه من دروس ، وفيمن يلتقى بهم من أساتذته من قدوة ، كل ذلك يكون من المنتظر منه أن يهذب من سلوكه ، وأن يجعله يتخلى عن رذائله ، ويتحلى بفضائل جديدة .. ولكنّ ضعف التربية وقلة المواد الدينية فى بعض المدارس ، وعدم كفايتها للقيام بالدور الهام الذى ينبغى أن يكون موجها ومربيا . كل ذلك لايكوّن من شخصية الشباب النفس الصالحة المهذبة التى تسير دوما إلى الخير .

ثم إذا تنقّل بعد ذلك فى جوانب المجتمع الأخرى ، كالنادى أو السوق أو أى موقع آخر ؟ لم يجد فى تلك المواقع من أسباب الخير شيئا بقدر مايرى من أسباب الشر ، ففى المعاملة من بيع وشراء يصادف المخالفات والبعد عن الحقيقة ، وفى النادى وفى غير ذلك من الأماكن .

وإلى جوار ذلك ماتقوم به المدارس الأجنبية فى بعض البلاد من دور فعال ، وماتقوم به الإرساليات التبشيرية لتشكيك الشباب المسلم فى عقيدته .. وأيضا فتح المستشفيات والمستوصفات ودور التمريض وغير ذلك ، وإشاعة الدعاية الكاذبة للثقافة الغربية وأخلاق الغربيين ومعاملاتهم ، وإبراز كل هذا فى مظهر خلاب ، ومع هذه المظاهر تسير المذاهب الهدّامة جنبا إلى جنب ، لنشر المبادئ الفاسدة كالشيوعية والماسونية والبهائية والقاديانية وغير ذلك .

ثم إفساد المرأة وظهورها متبرجة سافرة باسم التقدم الحضارى حينا ، والمدنية الحديثة أحيانا أخرى ، وإباحة الاختلاط بين الجنسين ، وتهيئة عقول الشباب للغزو الفكرى الذى يبيح كل ذلك .

ولايقتصر الأمر على ماسبق ، بل يساعد على كل ذلك « الفراغ » الذى يعيش فيه بعض الشباب ، والذى تهيأ لأن يملأ بأى جديد برّاق أو أى شئ فيه تسلية له ، وقد وجد فى وسائل الإعلام ذلك فماذا قدم الإعلام للشباب ؟ إنه فى كثير من البلاد قدم المجلات والصحف الخليعة ، والأفلام والمسرحيات والتمثيليات والأغانى فى الإذاعة المسموعة والمرئية، وفى السينما والمسرح ، وكلها تطفح بما يثير الغرائز لدى الشباب ، ومايشيع الخلاعة والمجون بينهم .

هذا بالإضافة إلى مالحق بالأدب نثرا وشعرا وقصة ومسرحية من البعد عن الآداب الرفعية والقيم العالية ، وهبوطه ، وتشويه الكثير من أفكاره بالإباحية فى مختلف الأعمال الأدبية ، وإشاعة مؤلفات بعض الأدباء الإباحيين فى هذا الصدد .

والصهيونية العالمية واقفة وراء أزمة الشباب بالمرصاد ، إنها دائبة السعى بشتى المظاهر والمحاولات للقضاء على القيم الدينية .

هذا وقد ظهر من تلك الأسباب ظواهر خطيرة متعددة الأشكال برزت من بينها النزعة العدوانية على الأنفس والأموال والأعراض .. ثم الاستجابة إلى الرغبات غير الإنسانية من الخيانة والغش والمجاهرة بالمعصية والانحراف وعقوق الوالدين ، وعقوق الوطن ، وظاهرة القمار والمخدرات ، وأحيانا يصاب بعض الشباب باليأس حين تضيع من يده الحيل ، وينتابه الشك وتطغى عليه الغرائز فى جموح عجيب يفقده عقله وعقيدته ، مما يدعوه أحيانا إلى التخلص من الحياة ، والانسحاب منها فى صورة بعيدة عن الدين والإنسانية والتعقل ، وذلك فى ظاهرة الانتحار التى لاتكون إلا لدى ضعاف القلوب الذين بعدوا عن جوهر الإيمان الحق .

وأحيانا تستهوى الشباب المظاهر الكاذبة الذميمة فى شباب الغرب ، فيحاول تقليدهم حين يتشبه بالنساء ، أو حين تتشبه النساء بالرجال ، وقد لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنسا ءوالمتشبهات من النساء بالرجال[1] ، وقد يظهر فى لبس ماتلبس المرأة أو تظهر المرأة بما يلبس الرجل ، وقد لعن رسول الله ﷺ «الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل[2]» .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أبو داود .

كذلك فإن للأيديولوجيات الأجنبية والتبعية الفكرية أثراً كبيراً فى تسرب الفكر الأجنبى الدخيل ، هذا إلى جانب أن تلك الأيدولوجيات الأجنبية قد وُضِعَتْ لمشاكل خاصة لاوجود لها فى مجتمعاتنا الإسلامية لاسيما وقد دلت التجارب العملية فى بيئاتها على إفلاسها فى علاج ماوضعت له ، بل إنها قد أوجدت مشاكل اجتماعية واقتصادية جديدة ، وبريق تلك الأيدولوجيات بريق خادع لايمثل إلا الطعم لإغراء الوقوع فى مخالب الأخطبوط العالمى[1] . والإسلام لايعادى العلم أو التقدم الصناعى بل إنه دين العلم ولكن يجب أن يتجه بالعلم إلى مافيه سعادة البشرية وكرامتها وعمارتها ، لا إلى مافيه الهدم والدمار أو ضياع الكرامة الإنسانية ، ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى – فى رسالته « تحديات العصر الجديد والشباب » : « ولتلقوا نظرة عابرة إلى هذا العصر الجديد الذى يقال عنه بمنتهى الاعتزاز والمباهاة إنه عصر التقدم والرقى ، إنه عصر الفكر المتنور ، ومما يمتاز به هذا العصر هو تقدمه العلمى وهو على كونه أمرا جديرا بالتقدير والإجلال يستغل استغلالا فاحشا فى دمار البشرية وهلاكها وبوارها ، وشقائها أكثر من أن يستغل فى سعادتها وسلامتها ، وبواسطة هذا التقدم العلمى يبتكر اليوم لإبادة الشعوب بأسرها أخطر مايمكن من الأسلحة والأدوات ، ويعد لتنكيل الإنسان وتشويه شخصيته من المعدات مالا مثيل له فى تاريخ الشيطانية ، وتكتشف الجاسوسية أساليب لم يبق أمامها أى معنى لحياة الإنسان الخاصة ، وتكرس الدراسات لتوليد الإنسان بطريقة يتولد الإنسان بعدها فى معامل العلم بدون اتصال الأب والأم بطريقة فطرية ، وطبعا المتولدون بتلك الطريقة العملية سوف لاينتمون إلى أسرة من الأسر ، ولايميل بعضهم إلى بعض أو إلى غيرهم من الإنسان ميلا فطريا ، ولايرتبطون بماض له التقاليد المتوارثة أو البذور الممتدة ، وسوف تجهز المصانع الأوادم من كل لون من الألوان وكل صورة من الصور وكل شيمة من الشيم ، وكل قابلية من القابليات حسب مبدأ الطلب والعرض فى الأسواق . وتبيعهم للأشخاص أو للشركات والحكومات بالمفرد أو بالجملة ، وهكذا يريد تمرد العلماء الملحدين أن يبلغ من التدهور نهايته ، ليفتح على البشرية أحدث عصور الاستعباد وأسوأها ينحط فيه الإنسان إلى درجة الأغنام والأبقار ، بل لعل المصانع سوف تعد للأنظمة المناوئة لكرامة الإنسانية فى العالم أوادم

(١) خمس رسائل إلى الشباب د . محمد البهى .

عند الطلب يكونون أشد افتراسا من الوحوش الضارية ، هذا هو التقدم العلمى الذى يفتخر به غاية الافتخار ويدعى أنه قد سما بالإنسان إلى آفاق السماء مع أنه فى الحقيقة قدْرَ مارفَعَ الانسان قدْرَ ماهبط به ، وأنه جلب على الإنسان الويل والثبور أكثر مما وفّر له الخير والحبُور»[1] . أ هـ . وذلك راجع إلى عدم الإيمان والاتجاه بالعلم إلى خير البشرية ونفع الإنسان .

خطوات لعلاج الشباب وحمايتهم من الانحراف : إن أولى خطوات حماية الشباب من الانحراف وعلاج ماقد يعتريه من ميل أو خطأ ، تتمثل الخطوات الأولى فى الأسرة وبين الأبوين حتى يتشرب منذ الصغر روح التدين ، وآثار العقيدة الصحيحة والسلوك النقى بالقدوة من ناحية وبالتوجيه من الأبوين من ناحية أخرى . ومن المعلوم أنّ لنصائح الوالدين أثراً كبيرا، فهى خلاصة عُمر ووليدة تجارب ، يقول موسى بن سعيد لولده :

واجعل وصاتى نصب عين ولا ... تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التى احتكمت ... فى ساعةٍ زُفّت إلى فطنتك
فللتجاريب أمور إذا .. ... طالعْتهَا تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة ... فإنها عون إلى يقظتك

ثم بعد ذلك ماينبغى أن تتضمنه خطبة الجمعة من توجيه رشيد ، يتم فيها حصر الشكوك والأوهام التى تساور الكثير من الشباب مع وضع الحلول والعلاج لها ، ومحاولة محو الأثرة والأنانية وسائر الرذائل الأخرى ، والعناية بغرس الفضائل الإسلامية من التعاون على البر والتقوى وحب الخير والبذل ، حتى يشبوا على روح التعاون والتعاطف والبذل .

ومن أهم ماينبغى التركيز عليه فى تلك المرحلة : تربية الضمير الدينى ، والعناية باتباع التعاليم الدينية الصحيحة ، النابعة من العقيدة الصحيحة ، وأداء العبادات ، وإبراز ماتتضمنه من النتائج والآداب وسائر الآثار الحميدة ، فإن المرجع فى عظمة شباب السلف ، إنما كان يتمثل فى سلامة العقيدة والنشأة الصالحة فى البيئة الصالحة ، فى الأسرة وفى المجتمع .

---

(١) تحديات العصر الجديد والشباب للأستاذ أبو الأعلى المودودى .

كما ينبغى أن يُعنى المربون والمصلحون بتنمية الجوانب المتعددة فى الشباب ، والمواهب المتفتحة عندهم ، وتقوية الاستعدادات .. وأهم مايجب أن يتسلح به الشباب فى معركة الحياة هو «الصبر» ، وذلك لأنه سيواجه في الحياة صعابا وعقبات ولايكفى فى حلّها ما مارسه الشباب فى المدارس أو فى تجارب الطفولة ، فهم إذاً فى حاجة إلى صبر وتحمل وأشد تلك العقبات « هوى النفس »[1] . وبالجملة فإن حماية الشباب من الانحراف تتمثل فى إزالة تلك الأسباب المؤدية للانحراف التى سبق الحديث عنها ، وسد المنافذ أمام التيارات المادية الوافدة ، التى تحاول أن تستولى على عقول الشباب والتى هى نتيجة جهود المبشرين والصهيونية والاستعمار ، وإنها لمحاولة ظالمة تتجنى على الإسلام وأبناء المسلمين ، وتعمل على رسم صورة مشوّهة للإسلام فى عقول الشباب ، فإن الاستعمار يعلم تمام العلم أن عدوه الأول هو الإسلام ، يقول أحد المستعمرين – فى إحدى خطبه – وهو يحمل المصحف بيده : « لن يقر للاستعمار قرار مادام هذا المصحف بين أيدى المسلمين » .

❁❁❁

(١) الإسلام فى حياة المسلم د . محمد البهى .

دلائل الإيمان فى خلق الإنسان وفى الكون

لم يكن للإلحاد وتياراته من أثر على القلوب المؤمنة الصادقة التى عرفت ربها مَنْ خلقها ومَنْ خلق الكون ، فإنه لايدبر إلا الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ومن استنار قلبه وفكره لايحتاج إلى دليل إلا أن هناك تيارات منحرفة ، مضللة، أخذت أشكالا متعددة وطفت على سطح الحياة الإنسانية متمثلة فى ظواهر مختلفة منها : المادية الملحدة والحركات الهدامة ، والوجودية المتبجحة الضالة ، مما يبثه أعداء الإسلام .

والإسلام بكتابه الخالد ودستوره المبين يرد على المنكرين مسفها أحلامهم رافعا راية الحق : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ وقد روى عن جبير بن مطعم قال : «سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب « الطور » فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾[1] كاد قلبى أن يطير إلى الإسلام ..

وكتاب الله تعالى منذ القدم وعلى مر أدوار الحياة يتحدى كل أفاك أثيم ، وكل جاحد ومعاند ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[2]
وفى آية أخرى يكشف عن جهلهم الفاضح وانحرافهم الذى بلغ درجة السفه والتخريف بحيث يدعون غير الله من أصنامهم فيقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[3].

---

(١) سورة الطور آية (٣٥ – ٣٧) (٢) سورة لقمان آية (١١)
(٣) سورة الحج آية (٧٣)

* أدلة الإيمان فى النفس *

ويوضح الله آياته فى أنفسهم فيقول ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)

ويوضحها فى الكون ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

ويوضح الله تعالى أدلة الإيمان من أقرب طريق وذلك من خلق الإنسان وأطوار حياته التى مر بها من أول مرحلة منذ أن خلق من نطفة إلى أن صار علقة فمضغة إلى آخر تلك الأطوار .

قال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (٣)

تلك هى الأطوار التى يتقلب فيها الإنسان بقدرة الخالق الواحد الذى بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير .

الطور الأول : ذكره فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ والسلالة هى الخلاصة التى تسل من بين الكدر . وقال ابن عباس وعكرمة المراد منه آدم عليه السلام فهو الذى سل من طين ، وأما ذريته فمن ماء مهين .

الطور الثانى : ذكره فى قوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى بعد أن خلق أولا جوهر الإنسان من طين أو الجنس الإنسانى وهو المتمثل فى آدم عليه السلام جعل تكرار أفراده عن طريق نطفة فى قرار مكين . إنها نطفة واحدة تخرج

---

(١) سورة الذرايات آية (٢١) (٢) سورة فصلت آية (٥٣)

(٣) سورة المؤمنون الآيات (١٢ – ١٦)

من صلب الرجل تستقر فى رحم المرأة ، بل إنها خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الموجودة فى تلك النطفة فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى ، ومن رحمته سبحانه أن جعلها ثابتة فى الرحم بين عظام الحوض لتحفظ من التأثرات والتحركات ، فالمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر .

الطور الثالث : فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ وذلك عندما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر ويكون غذاؤها عن طريق دم الأم ، وإنها لقدرة عظيمة تلك التى حولت النطفة البيضاء إلى علقة حمراء ومن صفاتها الأولى إلى صفات العلقة وهى الدم الجامد .

الطور الرابع : فى قوله تعالى فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً أى جعلها قطعة لحم بمقدار ما يمضغ ، وسمى التحويل خلقا لأنه يفنى أعراضا ويخلق أعراضا أخرى .

الطور الخامس : فى قوله تعالى فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا أى صيرناها عظاما وشكّلها سبحانه فكانت ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها .

الطور السادس : فى قوله فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا فيكون اللحم كالكسوة للعظم ، وهنا يثبت القرآن الكريم حقيقة علمية رائعة سبق بها العلم الحديث الذى لم يعرفها إلا بعد تقدم علم الأجنة وهى أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وأنها تتكون أولا فإذا تمت كانت خلايا اللحم التى تكسوها بعد ذلك .

الطور السابع : فى قوله ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ أى خلقا مختلفا عن الأطوار الأولى حيث انتقل من الجمادية إلى الحيوانية ، وكان أبكم فصار ناطقا ومنحه السمع والبصر وغير ذلك من الخلقة الإلهية العظيمة التى تتمثل فى صورة البدن والروح والقوى بنفخه فيه فَتَبَارَكَ اللَّهُ أى تعالى شأنه فى قدرته وحكمته ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المقدرين تقديراً .

الطور الثامن : فى قوله تعالى﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ أى صائرون إلى الفناء

والموت وليس هذا نهاية الأطوار كما يظن البعض وإنما هو نهاية الحياة الدنيا وطور من أطوار النشأة الأخيرة .

الطور التاسع : فى قوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ وهنا نشاهد أن الله تعالى جعل الموت الذى هو نهاية الحياة الدنيا ، وجعل البعث الذى هو إعادة ماأنهاه وأفناه ، جعل هذين دليلين أيضا على عظيم قدرته وهو سبحانه وتعالى بهذه الأدلة التى سقتها قد أعطى الإنسان دليلا قويا ومحسوسا حتى يؤمن عن اقتناع كامل ويقين راسخ ، وأن تلك الأدلة إنما جاءت من أقرب طريق من أطوار خلق الإنسان وتقلبه بين الحياتين الدنيا والآخرة وعن خلق آدم من الطين .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك» [1] وعن معنى قوله ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.. يقول ابن كثير يعنى نفخنا فيه الروح . وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم هرما ، وقد روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما » وفى بعض الروايات ، نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أم سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينهم إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها [2].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش : يايهودى إن هذا يزعم أنه نبى فقال لأسألنه عن شئ لايعلمه إلا نبى قال

(١) رواه أبو دواد والترمذى وقال : حسن صحيح (٢) رواه أحمد والبخارى

فجاءه حتى جلس فقال : يامحمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال : يايهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم فقال هكذا كان يقول من قبلك ..

* أدلة الإيمان فى الكون *

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أدلة الإيمان فى النفس عن طريق خلق الإنسان والأطوار التى مر بها يكرر أدلة الإيمان فى الكون فقال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (١)

لقد خلق الله سبع سموات وسميت طرائق لتطارقها فبعضها فوق بعض أو لأنها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران ، أو لأنها طرائق الكواكب . فيها مسيرها ، وفى هذه الآية :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ دليل كونى على أن خالق السماوات وجميع المخلوقات لايهملها وإنما يحفظها من الزوال ومن الاختلال، ويدبر أمرها حتى تصل إلى ماقدره الله تعالى لها ، وأنه سبحانه وتعالى يعلم أعمال العباد وأقوالهم ، وماتكنه صدورهم ، وهذا يفيد الزجر عن مخالفته ، وفى الآية الكريمة دلالة واضحة على كمال قدرة الله وعلمه وأن فيها دليلا على وجود الله تعالى لأن خلق السماوات على هذه الصورة البديعة ومايعتريها من أحوال كل ذلك يدل على وجود الخالق المدبر لها ، والصانع القادر العظيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الدليل الكونى الأول على الإيمان هو خلق السماوات فإن الدليل الثاني هو : خلق الماء وإنزاله من السماء والنعم التى نحصل عليها عن طريقه، قال تعالى :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾فقد أنزله سبحانه من السماء بتقدير يتناسب مع حاجة الحياة والأحياء . وبحيث يكون نفعه كثيرا ، وجعله

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (١٧ – ٢٢)

سبحانه وتعالى ثابتا مستقرا فى الأرض وهو القادر أن يذهبه إن شاء بإزالته أو تصعيده أو تعميقه بحيث يتعذر استخراجه، فيمكن أن يجعل الماء يغور فى الأرض عن طريق شقوق فى طبقات الصخور أو غير ذلك من الوجوه . فإن القادر على إمساكه قادر على إزالته وتبديده .

ومن هنا يتضح فضل الله على العباد، كما أن فى إنزال الماء بقدر وبحسب الحاجة حكما عالية دقيقة، فلم يسقه كثيرا غامرا يفسد العمران، ولا قليلا لايكفى الحاجة بل على حسب الحاجة إليه بل إن الأرض التى تحتاج إلى ماء كثير للزرع ولاتحتمل بلادها إنزال المطر الكثير عليها مخافة أن يفسد ماعليها من الديار والزروع كان من لطف الله تعالى وحكمته ورحمته أنه يسوق إليها الماء عن طريق بلاد أخرى. كما فى أرض مصر. فإنه يسوق إليها ماء النيل ومعه الطين الأحمر من بلاد الحبشة فى أوقات المطر بها فيسقى الأرض ويقر الطين على الأرض ليزرع أهل مصر فيه لأن الأرض هناك سياح يغلب عليها الرمال .

ثم ذكر سبحانه بعد نعمة الماء مايترتب عليه من النعم الأخرى التى تحصل عن طريقه فقال ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ وإنما ذكر النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الإدام ومقام الفواكه كما أشار إلى غيرها من الفواكه الكثيرة مما يعجز الناس عن القيام بشكر الله تعالى فيه . كما أنشأ أيضا شجرة هى شجرة الزيتونة تخرج من طور سيناء ، والطور الجبل وهو الذى كلم الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عنده ، وهو بين مصر وأيلة ، وقيل بفلسطين وفى قوله تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ إنها متلبسة به ومتصحبة له ، وصبغ للآكلين ، أى أدم ، ففيها ماينتفع به من الدهن والاصطباغ .

وأما الدليل الثالث من الأدلة الكونية على الإيمان فهو ماذكره فى قوله تعالى﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وهنا نشاهد أنه بعد أن أبرز دليل التوحيد عن طريق الإنسان وأطوار

خلقته انتقل من جانب النفس الإنسانية إلى جانب الآدلة الكونية ، فأوضح خلق السماوات وإنزال الماء وإحياء النبات فى الأرض ، ثم انتقل من ذلك إلى عالم الحيوان فذكر على طريق الإجمال مافى الأنعام من عبرة يمكن للعاقل أن يعتبر بها ويستدل عن طريقها على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته . ثم أخذ فى تفصيل تلك العبرة فبينها فى الوجوه التالية :

أولا - نسقيكم مما فى بطونها من الألبان ، وإذا تمعن الإنسان فى كيفية خلق اللبن شاهد أدلة القدرة الإلهية عن كثب ، فهذا اللبن يجتمع فى الضرع ويتخلص من بين فرث ودم ويستحيل إلى طهارة ولون وطعم ، غذاء نافعا مفيدا ، ومن عظيم قدرة الله وحكمته أن الأنعام إذا ذبحت لاتجد له أثرا .

ثانيا - ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ فى ظهورها وأصوافها وأوبارها وأشعارها أو فى بيعها للانتفاع بأثمانها وماشاكل ذلك .

ثالثا -﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾وفى هذا الوجه انتفاع بأعيانها ، فكما ينتفع بها وهى حية بما سبق ينتفع أيضا بها بعد ذبحها بالأكل ..

رابعا - ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وذلك لأن الانتفاع بالإبل فى الحمل والركوب على البر مثل الانتفاع بالفلك فى البحر أو ماهو بمنزلته قال سبحانه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

تلك هى دلائل القدرة الإلهية فى النفس وفى الكون وفى الإنسان وفى الحيوان وفى الماء والنبات وغير ذلك من المخلوقات ، أفبعد كل هذا يستسيغ منكر أو جاحد أن يقف فى وجه الحق ؟ أو يثير شبها حول هذا الدين القيم ؟﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢)

❁❁❁

---

(١) سورة النحل آية (٧)

(٢) سورة آل عمران آية (٨٥)

الاعتدال بين المادية والروحانية

الإسلام هو دين اليسر والسماحة ، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة ما فيه سعادة الناس دنيا وأخرى ، وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس ، أو بين متطلبات الجسد وبين أشواق الروح فى الإنسان .

ففى كل إنسان جانبان أحدهما مادى يتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والزواج وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة .

والجانب الآخر : روحى يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح ، والاتجاه إلى الله يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] وغير ذلك من العبادات التى شرعها الإسلام وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإسلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولايحدث بينهما تفرقة أو انفصال .

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل ، والتقصير فى أحد الجانبين تضييع لحقوق يجب أن تراعى . وإهمال لأوامر لها أهميتها ومنزلتها . ومن هنا كان نداء الإسلام معتدلا وقائما على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح ، وإذا استقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى ، وأخذ الإنسان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لاعوج فيه وفى انتظام لاغلو فيه ولاتقصير . فلا رهبانية فى الإسلام ولاعسر ولاحرج ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ماكان عليه بعضهم من رهبانية وماحاوله بعضهم من عزل الدين عن الحياة ، وإذا عزل الدين عن الحياة ضلت طريقها وتخبطت فى شكوك وأوهام فالدين بمبادئه ونظمه، بتعاليمه وقيمه يضئ للحياة طريقها ويبعث فى جوانبها التفاؤل والأمل ويجعلها موصولة بالخير الدائم الذى لاينقطع وبالفعل المستمر الذى لايتوقف. وعن

---

(١) سورة البقرة آية (١٨٣)

تلك الرهبانية التى لم يرعها أهلها تحدث القرآن الكريم ، فقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (١)

وفى السنة الشريفة تحذير من تلك الرهبانية وترغيب فى إعطاء الجسم حقه من الراحة ومن طيبات الحياة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفرا من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر ، فقال بعضهم : « لاأتزوج النساء وقال بعضهم : لا آكل اللحم وقال بعضهم : لاأنام على فراش ، فحمد الله وأثنى عليه فقال : « مابال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢) وقال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٣)

وقد وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين وقلوبهم إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا وأنها لعب ولهو وزينة ، والناس فيها متفاخرون ومتكاثرون ولكن نهايتها إلى زوال وآخرتها إلى فناء فلا بقاء لها ولاخلود فيها وكل ماعليها عرض زائل فليس لإنسان أن يتكالب عليها أو أن يتزاحم على حطامها ويتقاتل على بريقها ، وإنما اللائق بالإنسان أن يكبح جماح نفسه فيعمل لآخرته ، وليس معنى هذا أن يهجر دنياه أو أن يتركها ويهملها ؟ لا ، وإنما يوفق بين دار العمل والتكليف ، وبين ماتتطلبه دار الجزاء ، الدار الأخرى التى هى خير وأبقى يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الحديد آية (٢٧)

(٢) رواه مسلم

(٣) سورة القصص آية (٧٧)

(٤) سورة الحديد آية (٢٠)

وحين يقصر الناس اتجاههم فى الحياة على طلب المال والولد والمنصب فإنهم حينئذ يتجهون اتجاها ماديا بحتا .. والإسلام لايحرم التمتع بالطيبات ، وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد ولكن على شرط أن تكون قائمة على أساس من الفضائل والمثل التى نادى بها الإسلام فهو ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل ، بالتضحية والإخلاص بالتعاون والتساند على البر والتقوى . قال الله تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(١) وبين الله سبحانه وتعالى أنه لم يحرم زينة الله التى أخرجها لعباده ، ولا الطيبات من الرزق فقال جل شأنه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(٢)

وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية ، وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطا جامدا خاليا من الروح والمعنى بعيدا عن المبادئ السامية بل حربا على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة .

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ويزعمون أنهم يفعلون فعلا حسنا ويقومون بإصلاح الحياة ، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى :﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٣)

وأما السائرون على منهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو تفريط ومن غير غلو ولاتقصير ، فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم . قال سبحانه :
﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾(٤)

تلك حقيقة قرآنية لايرتاب فيها امرؤ ومعه عقله فالمهتدون السائرون على الحياة هم الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة والذين لاتشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها هم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم

---

(١) سورة الكهف آية (٤٦)
(٢) سورة الأعراف آية (٣٢)
(٣) سورة الكهف آية (١٠٤)
(٤) سورة مريم آية (٧٦)

السامية فى المجتمع الإنسانى ، ومن أجل ذلك هم حريصون على أن يتمثلوا مبادئ الحق . وأن يرتادوا سبل الخير والإصلاح وهم بهذا كله جديرون لأن يمكن الله تعالى لهم فى الأرض . وقد رسم القرآن الكريم صورة مشرقة لركائز التمكين فى الأرض وهى تقوم على المبادئ الآتية :

أولا – توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى ، بالقيام بأداء أوامره واجتناب نواهيه ، والإعلان عن ذلك إنما يتمثل فى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله سبحانه وتعالى ، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى تكف صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[1] وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه الكبير المتعال .

ثانيا – ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيدا وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الإنسان وأخيه الإنسان وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة .

ثالثا – المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مسلم على دينه ودعوة الغير إلى الرشد والخير بالحكمة والموعظة الحسنة والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2]

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه .

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لايميل ولايحيد ولاينحرف يمنة أو يسرة ، والوقوف فى مواجهة التيارات المادية الجارفة التى تشكلت بأشكال مختلفة وتسمت بأسماء متباينة متخذة بعض المذاهب الفاسدة مجرى لها أو بعض النظريات الوافدة مذهبا وطريقا ، وفى هذا تضييع للقيم وحرب للإسلام ومقاومة

(١) سورة العنكبوت آية (٤٥) (٢) سورة الحج آية (٤١)

هذه التيارات الوافدة من شيوعية وقاديانية وبهائية وغير ذلك من المذاهب الهدامة من أهم ركائز التمكين فى الأرض لأنه باب واسع من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هذه الأمة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (1)

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ..» (2)

* رد بعض الشبهات *

وقد آثار أعداء الإسلام وخصومه بعض الشبهات يحاولون بها أن يتهموا الإسلام بأنه يعادى الناحية الروحية ، وهى بدون شك – شبهة واهية لا أساس لها من الصحة ، فإن التشريع الإسلامى جاء وافيا بحاجات البدن والروح ، وبتنظيم الجانبين والاعتدال فيهما بلا إفراط أو تفريط ، فقد وجه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والآخرة حتى فى دعائهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿200﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿201﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (3)

ونهى القرآن الكريم عن تحريم الطيبات حفاظا على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرّم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك بل على الإنسان أن يأكل مما رزقه الله من الحلال الطيب على أساس من التقوى والإيمان وفى ضوئها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿87﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (4)

---

(1) سورة آل عمران آية (110)

(2) رواه مسلم

(3) سورة البقرة الآيات (200 – 202)

(4) سورة المائدة آية (87 ، 88)

ويركز الإسلام عل توجيهه للمسلمين محذرا لهم أن تغرهم الحياة الدنيا بماديتها ومباهجها ، وأن الأموال والأولاد فتنة وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سبحانه وتعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (٢)

وقد وضح الإسلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لها ، فمن كانت الآخرة همه ، وعمل لها جمع الله له مايريد ، وجعله غنى النفس بالإيمان وتأتيه الدنيا منقادة راغمة .

وأما الذى ينكب على المادة يجمعها ويجعل الدنيا همه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه ومهما واصل التعب والكد فى سبيلها فإنه لاينال منها إلا ماقدره الله سبحانه وتعالى .

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ماكتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله أمره وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة » (٣) . وحياة السلف حافلة بالإيثار والبذل والتضحية والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كل مايمتلكون .

نعم ، الإسلام دعا بالتوسط كما سبق .. قال الله تعالى :﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (٤) . ولكن سلفنا الصالح فى نظرتهم الإيمانية الفاحصة يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد .. وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها .

(١) سورة الأنفال آية (٢٨)

(٢) سورة آل عمران آية (١٤ ، ١٥)

(٣) رواه البخارى

(٤) سورة الإسراء آية (٢٩)

فمن الناس من يورث أبناءه أموالا طائلة وعقارات وفيرة ظنا منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر، وينسى أن الفقر من الإيمان هو أشر المخاوف، ومن الناس من يورث أبناءه إيمانا صادقا وعملا صالحا وسلوكا قويما ولم يترك لهم من المال شيئا . فإذا بثروة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة .

هاهو ذا نموذج من السلف الصالح إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقد قال له مسلمة بن عبد الله عند مرض موته: ياعمر لقد تركت أولئك لاشئ عندهم فيصبحون فقراء وماكان هذا يصح منك ياعمر ، فرد عليه قائلا والله مامنعتهم حقا هو لهم، فبنىَّ أحد رجلين .. إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب . وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن لأقويه على معصية الله .
«إن الإسلام دعوة إلهية لسعادة البشر دنيا وأخرى ، وفى قوانينه الرشيدة أمان للنفس والمال والعرض ، وفى ظل تعاليمه السمحة المضيئة تشرق حياة الناس بالخير والرشد والحق والسعادة والله هو الهادى إلى سواء السبيل ..

❁❁❁

التعليم الإسلامى بين النظرية والتطبيق

التعليم فى الإسلام حق من حقوق المسلم ، بل فريضة أوجبها الإسلام ففى الحديث يقول الرسول ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١)

فى ظل الإسلام تبوأت الإنسانية مكانتها المرموقة ، وعاشت وليس على عينها عصابة، ولافى قلبها غشاوة ، وانطلقت فى حياة خصبة ممتلئة ، وفى مجالات رحبة تشرق بالنور والأمل غير متلعثمة الخطى ، ولاحائرة الفكر لأن لديها من رصيدها الإيمانى علما ثابت الأصول ومعرفة نابضة بالخير والإصلاح فأمنت الإنسانية المؤمنة من مزالق الضلالة ، ومن تخبطات الجهالة ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » (٢) .

وقد نزل القرآن الكريم بقوانين السعادة والإصلاح والرشد والفلاح فأطفأ لهيب الجهل والظلم وأضاء الحياة بالعلم والعدل وبعث فيها روح الإخلاص والحق ، وكانت أولى آيات التنزيل دعوة صريحة للعلم والمعرفة على أساس الإيمان الحق بالله الذى علم الإنسان ما لم يعلم قال تعالى فى سورة العلق : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٣)

التحصيل والتبليغ

وليس العلم حصيلة يحتويها العالم ولايطالع بها أمته أو يرشد بها النشء أو يوجه بها الناس ، وإنما العلم فى الإسلام فريضة إذا قام بها المسلم وتعلم فلابد أن ينفع غيره ، ويعلم

(١) رواه ابن ماجه وابن عبد البر فى العلم عن أنس. (٢) رواه مسلم والحاكم فى المستدرك .
(٣) سورة العلق الأيات (١ – ٥)

الناس ، وينذر قومه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١)

ولقد حث الرسول صلوات الله وسلامه عليه على طلب العلم وتبليغه عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن سمعت معاوية خطيبا يقول : سمعت النبى ﷺ يقول «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله» (٢) .

فالعلم فى الإسلام أخذ وعطاء وتعلم وتعليم ودعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .

قال سبحانه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٣)

وهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعوة للإيمان والاستمرار فى مواصلة مسار الإصلاح والخير وبهذا تتبوأ الأمة الإسلامية مكانتها كخير أمة أخرجت للناس قال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(٤)

وتحصيل العلم ونشره ونزاهة التحقيق والحيطة لابد فيه من الأمانة العلمية للحفاظ عليه خاصة إذا كان فى الدين ، سواء أكان أمرا من القرآن أم من السنة الشريفة فلابد من الأمانة والضبط والإتقان فى التبليغ فيؤدى المسلم ويبلغ كما سمع قال ﷺ : « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (٥) .

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ليبلغ الرسالة الإلهية

(١) سورة التوبة آية (١٢٢)
(٢) رواه أحمد والبخارى
(٣) سورة النحل آية (١٢٥)
(٤) سورة آل عمران آية (١١٠)
(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه

للناس جميعا ، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب الحكمة ، ولذا فقد أعده إعدادا كاملا فرباه بعنايته وكلأه برعايته وعصمه من الناس وعلمه مالم يكن يعلم قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(١)

المنهج المثالى

وقد نهج رسول الله صلوات الله وسلامه عليه منهجا مثاليا يجب أن يقتدى به كل الموجهين والمعلمين والمصلحين إنه منهج القرآن الذى يأخذ الناس بالتدريج فى التوجيه والتعليم وفى انتزاع الشر والباطل وفى العمل على غرس أصول الحق والهدى .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يفتي كل سائل ومستفسر فيما يسأل عنه فى كل زمان وفى كل مكان حسبما اتفق فى الحل والترحال وفى المسجد وهو المكان المتعارف عليه . كما كان يتبع معهم أسمى الطرق فى التعليم فيتخولهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم ، ويتوخى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا معهم حليما كريما ، وبلغ من حرصه الشديد على تحصيل ما يقوله وحفظه وفهمه أن كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه وأحيانا يطرح المسألة على المسلمين ليختبر أفهامهم فذلك أدعى لتثبيت المعلومات فى العقول وجذب انتباههم ويتحرى أن يكون التدريس والتعليم فى الوقت المناسب وبما يتلاءم مع العقول ، وفى الظروف التى يتسنى للمسلمين أن يحضروا فيها وتكون عقولهم واعية ويقظة .

القدوة فى التعليم

إذا كان لابد للعلم والتعليم من أساس ثابت يتمثل فى الكتاب والسنة ، ولابد مع التحصيل من تبليغ ، ولابد مع التبليغ من أمانة . ولابد من منهج سليم يتبعه العلماء

(١) سورة النساء آية (١١٣)

والمتعلمون حتى يثمر العلم ، ويؤتى التعليم ثماره ونتائجه فإنه يبقى أمر هام هو القدوة فى التعليم ، والقدوة الحسنة إنما تتمثل فى أبهى صورها وفى أسمى مقاصدها فى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان فى حلمه وعلمه وصبره وسعة صدره يسعد الناس بخلقه الكريم وسجاياه الحميدة مما جعل الناس يقبلون عليه ويستمعون إليه قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾(1)

وقد وجه الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يدعوه قائلا : «رب زدنى علما » هذا هو موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو القدوة الحسنة ولنا فيه الأسوة كما قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(2)

ومن ذلك نخلص إلى أن العلم لا يصل إلى نهايته أحد ، ومهما بلغ العلماء فى علمهم والباحثون فى بحوثهم فإن المجهول كثير ، والغيب لايعلمه إلا الله سبحانه . قال تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(3)

ومادام الأمر كذلك فيجب على كل مشتغل بالعلم – تعلما أو تعليما – أن يكون لين الجانب متواضعا متحليا بمكارم الأخلاق وحسن المعاملة والمعاشرة والألفة حتى يصل إل طلبته ويحقق جوهر الرسالة التى نيطت به فللعلم منزلته العالية فى الإسلام وبمقدار هذه المنزلة تسمو مكانة العالم والعلم قال سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(4) وقال ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(5) وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(6) فبالعلم يصل الإنسان إلى مراقبة الله وخشيته ، وبالعلم تتحقق أعظم غاية هى أساس العبادات والمعاملات وصلات الناس بربهم وبعالمهم الذى يعيشون فيه ، تلك

---

(1) سورة آل عمران آية (١٥٩)
(2) سورة الأحزاب آية (٢١)
(3) سورة النمل آية (٦٥)
(4) سورة المجادلة آية (١١)
(5) سورة الزمر آية (٩)
(6) سورة فاطر آية (٢٨)

هى العقيدة الصحيحة التى تتمثل فى توحيد الله سبحانه وتعالى ، إنها الحقيقة القرآنية الكبرى التى شهد بها رب العالمين وشهد بها الملائكة المقربون وشهد بها أولو العلم قال الله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

وعلى هذا النحو تتضح لنا أهمية العلم كهدف من أهداف الرسالة الإلهية قال جل شأنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

وللقدوة أثرها البالغ وأهميتها وفاعليتها فى المتعلمين والشباب وخاصة إذا تمثلت المبادئ التى يتعلمونها تطبيقا بين الجميع . فلم تعد مجرد نظريات جامدة أو أفكار هادمة لاحركة تدفعها . ولاحيوية تنبعث منها فلابد من التطبيق العملى ، فإذا تحدثنا عن الصلاة قمنا إليها مسرعين وإذا تحدثنا عن الزكاة كنا أسبق المتصدقين ، وإذا تحدثنا عن مكارم الأخلاق تعاملنا بها مع الجميع ، وبذلك تشرق البيئة الإسلامية بمثاليات لها واقع ، ولها أصالة وعمل .

وحدة التعليم الدينى

وإذا كانت مناهج التعليم تختلف فى بعض البلاد الإسلامية عن بعضها فى بعض المواد والدروس والمناهج فلا يصح أبدا أن تختلف فى التعليم الدينى ودراسة المواد الإسلامية . فالإسلام هو الإسلام فى عقيدته وعباداته ومعاملاته وسائر أحكامه وآدابه .. فإذا ماتفقت سائر البلاد الإسلامية على خطة موحدة فى التعليم الدينى .. من أولى مراحل التعليم إلى نهايتها فى المدارس والمعاهد والجامعات بحيث تكون المواد أساسية وأصيلة فى جميع الأقطار

(١) سورة آل عمران آية (١٨) (٢) سورة الجمعة آية (٢)

(٣) سورة آل عمران آية (١٦٤)

الإسلامية وبكمية كافية ، وتأليف مستساغ يلبى حاجة المجتمع ويكون فى مستوى الفهم والإدراك لدى كل مرحلة على حسب ماينا سبها كان هذا أعظم نجاح .. ويكون هناك لقاءات ورحلات علمية بين علماء البلاد الإسلامية للتعرف على مشاكل الحياة ومايحتاجه شباب الأمة ووضع العلاج لكل مشكلة أو انحراف وإعطاء القدوة الحسنة بما تشتمل عليه السنة الشريفة من قول وفعل ، وبما يزخر به تاريخ سلفنا من نماذج رائعة ، على أن يقوم بجوار ذلك منهج تربوى تطبيقى يشارك فيه العالم والمتعلم والأستاذ والطالب والداعية والمدعو، وهكذا حتى نستطيع إعداد شباب أمتنا المسلمة إعداد دينيا سليما على أساس سليم ، وحتى لاندع شبابنا للتبعية والامتصاص والتقليد وبذلك يمكن مناهضة كل موجات التحلل السافر التى اجتاحت كثيرا من شباب أمتنا المسلمة ، ومن هنا نحقق ماندبنا الله إليه من نصر دينه فيكون نصره الدائم لنا . قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[1]

وإن العلم فى الإسلام ليس مجرد نظريات تعطى وليس أقوالا تحفظ فحسب وإنما هو تبليغ وتعليم وعمل وتطبيق .

ومن أجل ذلك فالويل كل الويل لمن كتم علما سئل عنه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »[2] .

هذا إذا كان يعلم ماسئل عنه وكتم علمه . أما إذا كان لايعلم فلا يصح أن يقول بهواه أو بما لاعلم له به . وإنما يقول : الله أعلم .. وهكذا كان سلفنا الصالح .

عن عبد الله بن مسعود قال : « يأيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن تقول لما لاتعلم الله أعلم » .

قال الله تعالى لنبيه: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾[3]

❁❁❁

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وسلم آية (٧)   (٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى

(٣) سورة ص آية (٨٦)

مكانة الحرمين الشريفين

للمسجد الحرام مكانته العظيمة فى الإسلام فهو أول بيت وضع للناس وهو مقر الأمن ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾(١)

ويشير القرآن الكريم إلى مكانة البيت الحرام فى قول الله تعالى : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢)

فقد جعل الله تعالى البيت قياما للناس يقوم به أمر دينهم بالحج إليه وأمر دنياهم حيث أظله بالأمن فكان من دخله آمنا .. كما جعل سبحانه الأشهر الحرم قياما لهم بأمنهم القتال فيها .. واستجاب ربُّ العزة سبحانه دعوة إبراهيم عليه السلام بالأمن والرخاء :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣)

لقد جعل الله البيت مثابة للناس يثوبون إليه ويرجعون إليه من كل جانب كما جعله مأمنا من الظلم ومن الإغارات التى تقع فى أى مكان سواه ، لقد كان الرجل يلقى قاتل

---

(١) سورة آل عمران آية (٩٦ ، ٩٧)

(٢) سورة المائدة آية (٩٧)

(٣) سورة البقرة آية (١٢٥ ، ١٢٦)

أبيه فيه فلا يزعجه ذلك ولايهيجه ، فضلا عن أن يقتله – وماذلك إلا لحرمة البيت ، ولمكة المكرمة من الحرمة والعظمة ما يجعل المؤمنين آمنين على عقيدتهم من الفتنة وآمنين على دمائهم أن تسفك ، وآمنين على أموالهم أن تنهب وآمنين على أعراضهم أن تنتهك .

إنها حرم الله الآمن ؛ ومن أجل ذلك لايحل حمل السلاح فيها ، عن جابر قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «لايحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» (١)

ولكن ليس معنى هذا أن يترك البغاة دون عقوبة تردعهم أو أن يفر إليها جان بدم أو ظالم أو قاتل أو معتد على الحرمات وعلى الأمن ثم يلجأ إلى الحرم .. لا ، فإن الحرم لايعيد عاصيا ولافارا بدم . عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولايعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب » .

فقيل لأبى شريح ماقال لك عمرو قال : « أنا أعلم بذلك منك ياأبا شريح إن الحرم لايعيد عاصيا ولافارا بدم ولا فارا بخربة » (٢) .

والخربة : تطلق على كل خيانة وفى صحيح البخارى أنها البلية . وقال الخليل : هى الفساد فى الدين ، وقيل هى العيب . وقال الترمذى : ومعنى قوله : (ولافارا بخربة) يعنى الجناية ، يقول : من جنى جناية أو أصاب دما ثم لجأ إلى الحرم فإنه يقام عليه الحد . ولقد تبرأ رسول الله ﷺ من كل باغ يحمل السلاح على المسلمين قال رسول الله ﷺ : « من حمل علينا السلاح فليس منا »(٣) .

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه البخارى ومسلم

هذا وقد وجه الإسلام أتباعه إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولى الأمر . وأمر حين تهب رياح الفتنة أن يلزم المسلمون الجماعة والإمام وألا يتفرقوا بل عليهم أن يعتصموا بحبل الله جميعا .

وقال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت : يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر :

قال نعم : قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير : قال : نعم وفيه دخن (وهو الحقد وقيل : فساد القلب) .

قلت : ومادخنه . قال : « قوم يهدون بغير هديى تعرف منهم وتنكر » .

قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : «نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت : يارسول الله صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام : قال «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» (١).

وإذا كان لزوم جماعة المسلمين وإمامهم بهذه المثابة وهو أمر عام فى جميع بلاد الإسلام ، فما بالنا به فى أشرف وأقدس بقعة على ظهر الأرض .. مابالنا به فى مهبط الوحى ومنطلق الرسالة ومنزل الملائكة وقبلة المسلمين. إن لمكة المكرمة مكانتها التى لاتعادلها مكانة.

قال صلوات الله وسلامه عليه «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت» (٢) .

وللمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وللحرم النبوى الشريف من المكانة والحرمة مايشير إليه رسولنا صلوات الله وسلامه عليه حين دعا لأهلها وبين حرمتها وأن من أحدث فيها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

---

(١) رواه البخارى

(٢) راوه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فقال : « الهم بارك لهم في مدهم وصاعهم [1] »

وعن أنس : أن النبى ﷺ قال : «المدينة حرم من كذا إلى كذا . لايقطع شجرها ولايحدث فيها حدث من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[2]

ولمسلم : عن عاصم الأحول قال :

سألت أنساً : أحرم رسول الله ﷺ المدينة ؟ قال : «نعم هى حرام ولايختلى خلاها فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن إبراهيم حرّم مكة وأنى حرّمت المدينة مابين لابتيها لايقطع عضاهها ، ولايصاد صيدها) [3]

نعم إن من أحدث فى الحرم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وأن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا هو ما عدده القرآن الكريم من العقوبة الرادعة لهم جزاء ماارتكبوه ، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاء رجل فقال : يارسول الله ابن خطل متعلق بأستار الكعبة .

فقال رسول الله ﷺ «اقتلوه»[4] . قال مالك : قال ابن شهاب ولم يكن رسول الله ﷺ محرما.

ولمسلم : من حديث جابر (وعليه عمامة سوداء بغير إحرام).

قال العلماء : إنما قتله لأنه كان قد ارتد عن الإسلام وقتل مسلما كان يخدمه ، وكان يهجو النبى ﷺ ويسبه ، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء المسلمين. وقال ابن عبد البر: فهذا القتل قود من دم مسلم ، وكذا قال الخطابى : لم ينفذ له رسول الله ﷺ الأمان وقتله بحق ماجناه فى الإسلام .

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه البخارى

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه الأئمة الستة .

وقال النووى : فإن قيل : ففى الحديث الآخر : «من دخل المسجد فهو آمن» فكيف قتله وهو متعلق بالأستار .

فالجواب : أنه لم يدخل فى الأمان بل استثناه هو وابن أبى السرح والقينتين وأمر بقتله وإن وجد معلقا بأستار الكعبة .

فإن الله تعالى يقول فى شأن المسجد الحرام ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .(١)

ونلاحظ أنه لم يعين مفعول الفعل (يرد) ليعلم وليتناول كل مخالف . والمعنى . - والله أعلم - ومن يرد أى ذنب أو مخالفة للإسلام بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام نذقه من عذاب أليم . وقال العوفى عن ابن عباس (بظلم) هو أن تستحل من الحرم ماحرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لايظلمك وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم . كما وضحت الآية أن من خصوصية الحرم أن يعاقب من يريد فيه الشر إذا كان عازما عليه وإن لم يوقعه . فما بالنا بمن يوقعه .. ؟

❀❀❀

(١) سورة الحج آية (٢٥)

الأبرص والأقرع والأعمى الذين امتحنهم الله

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام حدثنا إسحاق بن عبد الله قال : حدثنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع النبى ﷺ .. وحدثنى محمد : حدثنا عبد الله بن رجاء أخبرنا همام عن إسحاق بن عبد الله قال : أخبرنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة رضى الله عنه حدثه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة فى بنى اسرائيل أبرص وأعمى وأقرع ، بدا لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، قد قذرنى[1] الناس ، قال : فمسحه[2] فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا ، فقال : وأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال البقر هو شك فى ذلك : إن الأبرص والأقرع قال : أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ، فأعطى ناقة عشراء[3] ، فقال : يبارك لك فيها ، وأتى الأقرع فقال : أى شئ أحب إليك قال : شعر حسن ويذهب هذا عنى قد قذرنى الناس ، قال فمسحه فذهب وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر قال : فأعطاه بقرة حاملا وقال : يبارك لك فيها . وأتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والدا فأنتج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من بقر ، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت به الحبال[4] فى سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ[5] عليه فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى

---

(١) قذرنى : اشمأزوا من رؤيتى .   (٢) فمسحه : أى مسح على جسمه .
(٣) التى مر على حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل .
(٤) الأسباب .   (٥) أتوصل .

أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت هذا كابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت. وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ماقال لهذا فرد عليه مثل مارد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت ، وأتى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الحبال فى سفر فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال: قد كنت أعمى فرد الله على بصرى وفقيرا فقد أغنانى ، فخذ ماشئت فوالله لا أحمدك اليوم بشئ أخذته لله فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك » [1]

إن فى قصص الأمم السابقة عبرة لأولى الأبصار ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقص على أمته من أخبار الأمم مافيه العبرة ، ليعتبروا بمن كان قبلهم .

وفى هذه القصة دلالة على أهمية الوفاء ، وفاء الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع ماضيه الذى عاشه ، ومايجب عليه تجاه ماأنعم الله به عليه من شكر لتلك النعم ، أما عقوق النعم والغدر فيها فهو من أقبح الرذائل التى تورد الناس موارد الهلاك .. إن واجب الإنسان دائما وأبداً أن يتذكر ماضيه ، وألا ينسى ماكان فيه من مرض أو فقر أو شدة ، بعد أن أصبح اليوم فى صحة وعافية ورخاء وفرج .. إن على الإنسان أن يربط بين ماضيه وحاضره فيعتبر بالماضى ويثق أن الذى أفقره من قبل هو الله ، وأن الذى أغناه اليوم هو الله ، وأن الذى أسقمه من قبل هو الله ، وأن الذى شفاه اليوم هو الله ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين[2] ﴾ كما توضح القصة ابتلاء الله تعالى واختباره لعباده كما جاء فى الحديث : « بدا لله عز وجل أن يبتليهم » وقيل « أراد » : قضى الله أن يبتليهم أى يمتحنهم .. كانت نتيجة هذا الامتحان أن الأبرص والأقرع قد تنكرا لماضيهما وقال كل منهما عندما جاء الملك فى صورة رجل محتاج ، بل جاء إلى الأبرص فى صورته الأولى ، وجاء إلى الأقرع فى صورته الأولى فقال كل منهما : لقد ورثت هذا كابرا عن كابر، ولم يعتبر ونسى ماكان فيه، ونسى جميع ماضيه متنكراً له ، فرد الملك على كل منهما بقوله : فإن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .. وأما الأعمى

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) سورة الشعراء آية (٧٨ - ٨٠)

فعندما جاءه الملك فى صورته الأولى ، أى فى صورة رجل أعمى مسكين وطلب منه مد يد العون والمساعدة أجابه بقوله : « لقد كنت أعمى فرد الله على بصرى ، وفقيرا فقد أغنانى فخذ ماشئت فوالله لاأحمدك اليوم بشئ أخذته لله » أى لاأحمدك على ترك شئ يحتاج إليه من مالى ، وفى رواية مسلم : « لاأجهدك » أى لاأشق عليك فى رد شئ تطلبه منى أو تأخذه .. وعندئذ قال الملك : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك .

وفى هذه القصة من العبر والدروس إلى جانب ماسبق منها التحذير من كفران النعم والترغيب فى شكرها والاعتراف بها ، وحمد الله سبحانه وتعالى عليها ، لزيادتها كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [1] .

كما يستنبط من القصة : فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم مآربهم ، والتحذير من البخل ، لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى[2] .

وإن تذكر الماضى ، وشكر الله سبحانه وتعالى من أهم أسباب استمرار النعمة والخير ، وأما التنكر للماضى وعدم الشكر فيعرض النعمة للزوال ، فعلى كل مسلم آتاه الله نعمة فى الصحة والعافية أو فى المال أو فى الجاه ، أن يتذكر المحتاجين ، وأن يؤدى حق النعمة ، ليزيده الله تعالى منها ، ونعم الله تعالى كثيرة على الإنسان ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [3] .

ومن العبر والدروس المستفادة من هذه القصة أيضا أن الدنيا لاتدوم على حال ، وأن الغنى لايغتر بثرائه ، والقوى لاتغره قوته ، وصاحب الجاه لايزهو بجاهه ، فإن الحياة لابقاء لها ولا استمرار لما فيها ، فقد يفتقر الغنى ، ويمرض القوى ، ويحتاج صاحب الجاه ..

---

(١) سورة إبراهيم آية (٧)
(٢) فتح البارى لابن حجر
(٣) سورة إبراهيم آية (٣٤)

والمؤمن كيس فطن ، يعتبر بدروس الحياة ، فيعمل لآخرته ، ويؤدى حقوق ما أنعم الله به عليه من مال أو صحة أو جاه ، فإن الحياة الدنيا متقلبة ، وكلها ابتلاءات ، ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (1) .

❀❀❀

---

(1) سورة الحديد آية (٢٠)

أفضل الصدقة

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رجل للنبى ﷺ : يارسول الله أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولاتمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا . ولفلان كذا وقد كان لفلان »[1] .

قبل أن نتعرض لهذا الحديث بالبيان والتحليل ، يجدر أولا ، أن نوضح بعض الكلمات التى تحتاج إلى تفسير :

(أن تصدق وأنت صحيح حريص) أى أن تتصدق وأنت فى صحة وحرص وهذا هو أفضل الصدقة .

(حتى إذا بلغت الحلقوم) أى قاربت الروح مجرى النفس وهذا عند الغرغرة .

(قلت لفلان كذا ولفلان كذا) مرتين كناية عن الموصى له ، والموصى به .

(وقد كان لفلان) أى صار المال للوارث فيبطله إن شاء إذا كان زائدا على الثلث .

* الشرح :

كان المسلمون حريصين على اتباع المنهج القويم فى حياتهم ، والطريقة المثلى فيما يتقربون به إلى الله تعالى من وجوه البر وصنائع المعروف ، ويستفسرون من رسولهم صلوات الله وسلامه عليه عن ذلك كله ، فيجيبهم بما فيه مصلحة دينهم ودنياهم ، وما فيه زيادة فى الثواب والأجر ، وفى هذا الحديث اتجه أحد المسلمين سائلا رسول الله ﷺ عن أفضل الصدقة ؟ فأجابه بأن أفضلها أن يتصدق المسلم وهو صحيح حريص .

وفى رواية الإمام مسلم : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح » والشح أعم من البخل وكأن الشح جنس والبخل نوع ، وأكثر ما يقال البخل فى أفراد الأمور ، والشح عام

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

كالوصف اللازم وماهو من قبل الطبع ، وإنما كانت الصدقة عند غلبة الحرص وفى حال الصحة أفضل . لأن الشح حينئذ يكون غالبا والصدقة فى هذه الحال دليل على صدق نية صاحبها وإخلاصه فيها كما فى الحديث : « والصدقة برهان »[1] وهذا بخلاف من أشرف على الموت وأيس من الحياة فإن صدقته تكون ناقصة بالنسبة لحاله وهو صحيح . وقد نبه القرآن الكريم إلى مراعاة ذلك ، وأن على المسلم أن يسارع إلى فعل الخيرات قبل أن يأتيه يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة وحينئذ يندم ولايجدى الندم . قال الله تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[2]

وقد أشار الرسول ﷺ فى هذا الحديث بقوله : وأنت صحيح حريص تأمل الغنى وتخشى الفقر ، لأن الإنسان فى حال صحته وتمام قوته ، يكون من الصعب عليه أن يخرج ماله ، كما هو الغالب عند كثير من الناس ، فإن الشيطان حينئذ يزين له الحياة وإمكان طول العمر ، وأنه قد يحتاج إلى هذا المال ، كما قال الله تعالى : ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]

وبهذا يتبين لنا كيف تنشأ دوافع السوء والتكالب على الحياة والبخل بالمال ، إنه من الشيطان الذى يثير فى النفس الخوف والأمل الطويل فى الحياة .

وأيضا فربما زين الشيطان الظلم فى الوصية ، أو الرجوع عنها ، وما أجمل تعبير بعض السلف عن هذا النمط من الناس الذين يبخلون بأموالهم فى حال صحتهم وهى فى أيديهم ، فإذا ما أشرفوا على الموت أسرفوا فيها ، يقول بعض السلف : يعصون الله فى أموالهم مرتين يبخلون بها وهى فى أيديهم – أى فى الحياة – ويسرفون فيها إذا خرجت عن أيديهم ، أى بعد الموت ، وأخرج الترمذى بإسناد حسن وصححه ابن حبان عن أبى الدرداء مرفوعا قال : مثل الذى يعتق ويتصدق عند موته مثل الذى يهدى إذا شبع ، وروى

---

(١) رواه مسلم (٢) سورة : المنافقون اية (١٠ ، ١١)

(٣) سورة البقرة آية (٢٦٨)

أبو داود وصححه ابن حبان من حديث – مرفوعاً – : « لأن يتصدق الرجل فى حياته وصحته بدرهم خير له من أن يتصدق عند موته بمائة » وفى قوله ﷺ : « لفلان كذا .. » إلخ ، فلان ، الأول والثانى هما الموصى لهما . و « فلان » الأخير : هو الوارث ، لأنه – كما قال بعض شراح الحديث إن شاء أبطله وإن شاء أجازه . وقيل : ويحتمل أن يكون المراد بالجمع من يوصى له ، وإنما أدخل كان فى الثالث، للإشارة إلى تقدير القدر له بذلك، وهناك احتمال آخر وهو أن يكون الأول : هو الوارث والثانى هو المورث والثالث هو الموصى له .

ومن عرض هذه الآراء العلمية القيمة يمكننا أن نقف على أن وقت الكمال والأفضلية للصدقة لم يعد فى يد صاحب المال ، فأمامه طلابه مابين وارث أو صاحب وصية . ويمكننا أن نستنبط من هذا الحديث بعض أحكام وفوائد هامة منها :

فضل الصدقة فى حال الصحة ، وأنها أكثر ثوابا منها فى حال المرض وعند نهاية الحياة .

وإن على المسلم الواثق بما عند الله سبحانه وتعالى أن يسارع بإنجاز ماعليه من حق دينا كان أو زكاة أو صدقة وأن يسرع بالأداء فلا يعلم الأجل إلا الله علام الغيوب .

كما يستنبط من الحديث النهى والتحذير من تأخير الزكاة أو الصدقة أو أى عمل ما من أعمال الخير وصنائع المعروف . ويؤخذ أيضا من الحديث ماكان عليه سلفنا الصالح من التعرف على جوانب الكمال والأفضلية فى كل مايفعلون ومايتصدقون به ، فهم يسألون رسولهم صلوات الله وسلامه عليه عن كل صغيرة وكبيرة ، وهم يقتدون به فى سائر أقواله وأفعاله متخذين منه الأسوة الحسنة فى حياتهم ودينهم ولآخرتهم استجابة لقول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (1)

وهكذا كانت اهتماماتهم بالصدقة والإنفاق فى سبيل الله تعالى ، لأنهم على ثقة بأن الصدقة هى الدليل ، وهى البرهان على صحة الإيمان وقوته كما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه . « والصدقة برهان » (2).

وفقنا الله تعالى إلى مافيه الخير والنفع فى ديننا ودنيانا وآخرتنا ، وبالله التوفيق .

(1) سورة الأحزاب آية (21)   (2) رواه مسلم

لأقضين بينكما بكتاب الله

عن أبى هريرة وزيد بن خالد رضى الله عنهما أنهما قالا : إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أنشدك الله ، إلا قضيت لى بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله ﷺ : قل ، قال : إن ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته ، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبرونى أنما على ابنى مائة جلدة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، اغد ياأنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، قال : فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت (١) .

فى هذا الحديث يروى لنا أبو هريرة وزيد بن خالد الجهنى رضى الله عنهما موقف رجل من الأعراب لم يرد ذكر اسمه ، أتى هذا الرجل رسول الله ﷺ وطلب منه أن يقضى له بحكم الله ، فقال الخصم الآخر – وهو أفقه منه – نعم فاقض بيننا بكتاب الله .. وليس فى طلبهما الحكم بكتاب الله من الرسول ﷺ مايوهم أنه قد يحكم بغيره ، فإنهما يعلمان أن حكمه لايكون إلا بكتاب الله وإلا بالحق ، ولكنهما أرادا أن يحكم بالحق الصرف لا بالمصالحة ، فإن للحاكم أن يحكم بين الخصمين على طريقة المصالحة والأخذ بالأرفق إذا رضى الخصمان ، وهو أيضا حكم الله ، ولكنهما أرادا تنفيذ القانون الإلهى المشروع دون مصالحة ، فقال رسول الله ﷺ : قل ، قال : إن ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته .. وفى قوله كان عسيفا أى أجيرا ، مايوضح لنا السبب فى وقوعه فى المعصية ، وهو طول الملازمة وخلوته بها ، وفى هذا مايبين لنا خطورة التساهل فى هذه الأمور ، فإن الرجل أراد أن يذكر أن ابنه لم يكن من عادته الفجور – وهو وإن كان سببا لايعذر فيه – إلا أنه

---

(١) رواه البخارى ومسلم

يكشف عما ينطوى عليه التهاون من الوقوع فى الحرام ، وهذا بيان صريح للمتساهلين فى أعمالهم ومن يزعمون فى نسائهم الطهر ، وفى أصدقائهم وعملائهم العفاف ، كيف والشيطان لهم قرين ، وماخلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ، ولكم تعج كثير من المجتمعات برذائل كثيرة ، ومعاص لاحد لها من جراء هذا التهاون .

ثم عاد الرجل فقال : وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم ، وكان هذا ممن لاعلم عندهم – فافتديت ابنى منه بمائة شاة – أى من الغنم ، ووليدة : أى جارية ، ثم سألت أهل العلم ، والمراد بهم الصحابة الذين كانوا يفتون فى العهد النبوى ، كالخلفاء الأربعة ، وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ، وزاد ابن سعد في الطبقات ، عبد الرحمن ابن عوف ، فأخبروه أن الذى علي ولده هو جلد مائة وتغريب عام ، من البلد الذى وقع فيه الزنا إلى مسافة القصر فأكثر ، وأن على المرأة الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله .. إلخ الحديث ، وإنما أقسم الرسول ﷺ أن يقضى بينهما بكتاب الله دون أن يطلب أحد منه القسم ، ومع أنه لايظن فيه غير ذلك ، لأنه أراد أن يطمئن الخصمين وأن يجاريهما فيما يريدانه عندما طلبا منه ذلك ، وهذا من مكارم أخلاقه ﷺ وعظيم رفقه ، وحكم لهما بقوله : الوليدة والغنم رد عليك ، أى مردودة ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، ثم أمر أنيساً وقال له : اغد ياأنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، لأنها كانت محصنة ، فغدا عليها أنيس فاعترفت بالزنا ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت ، قال الشيخ الشرقاوى رحمه الله : يحتمل أن يكون هذا الأمر هو الذى فى قوله : فإن اعترفت فارجمها ، وأن يكون ذكر له أنها اعترفت فأمره ثانيا أن يرجمها لكنه يقتضى أن أنيسا إنما كان رسولا ليسمع إقرارها ، وأن تنفيذ الحكم كان منه عليه الصلاة والسلام ، ويشكل على هذا كونه اكتفى فى ذلك بشاهد واحد ، وأجيب بأنه ليس فى الحديث نص على انفراده بالشهادة ، فيحتمل أن غيره شهد عليها أيضا ، وفى رواية : فاعترفت فرجمها ، وهى ترجح الاحتمال الأول ، وتدل على أن أنيسا كان حاكما لاشاهدا ، وبعث أنيس كما قاله النووى محمول عند العلماء على إعلام المرأة بأن هذا الرجل قذفها بابنه ، فلها عليه حد القذف فتطالب به أو تعفو عنه ، إلا أن تعترف بالزنا ، فلايجب عليه حد القذف ، بل عليها حد الزنا وهو الرجم ، قال : ولابد من هذا التأويل لأن ظاهره أنه بعث ليطلب إقامة

حد الزنا وهذا غير مراد لأن حد الزنا لايحتاط بالتجسس بل لو أقرّ الزاني استحب أن يعرض له بالرجوع ، وأما خص عليه الصلاة والسلام أنيسا بهذا الحكم ، فلأنه من قبيلة المرأة ، وقد كانوا ينفرون من حكم غيرهم فيهم[١] .

وهذا الحديث من الأحاديث الصحيحة التي حاول بعض الناس قديما وحديثا أن يثيروا حولها الشبه ، ظنا منهم أنه يتعارض مع القرآن ، وقد دافع عنه ابن قتيبة في كتابه « تأويل مختلف الحديث » وأبان وجه الحق ، ونحن نورد هنا رأيه مع توضيح جانب الحقيقة والإدلاء برأينا في ذلك .

يقول ابن قتيبة : قالوا : رويت عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي هريرة وزيد بن خالد وشبل ، أن رجلا قام إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله نشدتك بالله ، إلا قضيت بيننا بكتاب الله تعالى ، فقام خصمه وكان أفقه منه فقال : صدق ، اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي ، فقال : قل : قال : إن ابني كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم ، ثم سألت رجالا من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأة هذا الرجم ، فقال : والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، المائة شاة والخادم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأة هذا الرجم ، واغد ياأنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها فاعترفت فرجمها[٢] .

وقال أبو محمد : هكذا حدثنيه محمد بن عبيد عن ابن عيينة ، قالوا : وهذا خلاف كتاب الله عز وجل لأنه سأله أن يقضي بينهما بكتاب الله تعالى ، فقال له : والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، ثم قضى بالرجم والتغريب ، وليس للرجم والتغريب ذكر في كتاب الله تعالى ، وليس يخلو هذا الحديث من أن يكون باطلا أو يكون حقا ، وقد نقض من كتاب الله ذكر الرجم والتغريب .

---

(١) فتح الباري لابن حجر

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١٢ ، فتح الباري (١٢ / ١١١) ، الموطأ ص ٢٤٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن رسول الله ﷺ لم يرد بقوله : لأقضين بينكما بكتاب الله ههنا القرآن ، وإنما أراد لأقضين بينكما بحكم الله تعالى ، والكتاب يتصرف على وجوه منها : الحكم والفرض كقول الله عز وجل : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (١) . أي فرضه عليكم ، وقال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ (٢) ﴾ أي فرض عليكم ، وقال : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ (٣) أي فرضت ، وقال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ (٤) ، أي حكمنا وفرضنا ، وقال النابغة الجعدي :

ومـــال الأولاء بالبـــلاء فملتم وماذاك قـــال الله إذ هو يكـــتب

أراد مالت القرابة بأحسابنا إليكم ، وماذاك أوجب الله إذ هو يحكم .

وهكذا نرى ابن قتيبة رحمه الله قد أجاب حسب مابدا له ، ولكن هناك أجوبة أخرى نرى من الأهمية إيرادها :

١ – قيل : إن المراد « بكتاب الله » القرآن الكريم .

٢ – وقيل : يحتمل أن يكون المراد ماتضمنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ (٥) فبين النبي ﷺ أن السبيل جلد البكر ونفيها ورجم الثيب .

٣ – وقيل : يحتمل أن المراد بكتاب الله الآية التي نسخت تلاوتها وهي : ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ .

وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : لما صدر عمر من الحج وقدم المدينة خطب الناس فقال : أيها الناس قد سنت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، ثم قال : إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل : لانجد حدين في كتاب الله ، فقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا ، والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبتة » (٦) ،

---

(١) سورة النساء آية (٢٤)
(٢) سورة البقرة آية (١٧٨)
(٣) سورة النساء آية (٧٧)
(٤) سورة المائدة آية (١٤٥)
(٥) سورة النساء آية (١٥)
(٦) الموطأ ص ٣٤١

قال مالك : الشيخ والشيخة : الثيب ، ووقع فى الحلية فى ترجمة داود بن أبى هند عن المسيب عن عمر (لكتبها فى آخر القرآن) .

وهذه العبارة الأخيرة تحدد لنا أن سيدنا عمر رضى الله عنه لم يكن ليكتبها إن شاء حسبما اتفق وإنما فى آخر القرآن ، وذلك محافظة على الترتيب القرآنى ، وليعلم الناس حكمها .

كذلك عبارته « لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله » وليس المراد خشيته من مقالة الناس فيه ، وإنما مراده أن يلتبس على الناس الأمر لو كتبها فلا يحسبون أنها منسوخة التلاوة .

وقد أخرج النسائى ذلك وصححه الحاكم من حديث أبى بن كعب ، قال « ولقد كان فيها – أى سورة الأحزاب – آية الرجم » وأرى أن احتمال كون المراد بكتاب الله الآية المنسوخة بتلاوتها لايفى بالمراد ، إذ أن الآية التى نسخت تلاوتها لم يرد فيها إلا حكم الرجم فقط ، أما التغريب فلم يذكر حكمه فيها .

٤ – وقيل : المراد بكتاب الله مافيه من النهى عن أكل المال بالباطل ، لأن خصمه كان قد أخذ منه الغنم والخادم بغير حق ، فلذلك قال : « المائة شاة والخادم رد عليك »[١] .

والذى أرجحه هو أن المراد بكتاب الله فى الحديث هو حكم الله تعالى الذى حكم به وكتبه على عباده ، كما رأى ابن قتيبة ، وذلك لما ورد فى رواية عمرو بن شعيب « لأقضين بينكما بالحق » وكل شئ حكم به الرسول ﷺ إنما هو حكم الله تعالى ، فهو المبلغ عن الله ، والمبين لأحكامه ، وقد فرض علينا طاعته وقبول قوله ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[٢] قال ابن القيم : « إن الله سبحانه نصب رسول الله ﷺ منصب المبلغ المبين عنه ، لكل ماشرعه للأمة ، فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه ودينه، ولافرق بين مايبلغه عنه من كلامه المتلو، ومن وحيه الذى هو نظير كلامه فى وجوب الاتباع ومخالفة هذا»[٣] .

---

(١) فتح البارى ٢١ / ١٥٢ ط الخيرية (٢) سورة الحشر آية (٧)
(٣) أعلام الموقعين ٢ / ٢٣٨ ط الخيرية

الاستنباط

١ – الرجوع فى الأحكام إلى كتاب الله تعالى بما ورد فيه من نصوص أو بطريق الاستنباط وإلى السنة النبوية الشريفة فهى المصدر الثانى فى التشريع الإسلامى .

٢ – جواز الحلف بغير استحلاف ، وجواز القسم على الأمور لتأكيدها .

٣ – إذا تم إصلاح بين الناس على غير ماجاء فى الشريعة ، فإنه يرد ولايتم أخذ المال عن طريقه .

٤ – وقال عياض : احتج قوم بجواز حكم الحاكم فى الحدود وغيرها بما أقرّ به الخصم عنده .

❁❁❁

يوم الجائزة

يأتى العيدان عقب فريضتين جليلتين ، فعيد الفطر عقب فريضة الصيام ، وعيد الأضحى عقب فريضة الحج إلى بيت الله الحرام .

ويستقبل المسلمون فى كل عيد ليلة تحيا فيها القلوب خاشعة خاضعة ، منيبة ضارعة ، والكل يبيت شاكرا لله ، مكبرا له على ماهداه ، حتى إذا ماتنفس فجر يوم العيد سالت الطرق المؤدية إلى بيوت الله حامدة مكبرة ، مسبحة شاكرة ، مهللة ومستغفرة ، والمسلمون فى هتاف روحى عذب يعلنون فيه تنزيههم لربهم وتوحيدهم له ، مرددين نشيدهم العظيم : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

وبهذا يعترفون لربهم قيوم السماوات والأرض أنه وحده هو الكبير المتعال ، فهو أكبر من كل عزيز وغال فى الوجود ، فهو خالق الوجود والمدبر لأمره وصاحب الأمر والنهى ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (1) ثم هم يعلنون كذلك توحيد الله ربهم ، فلا إله إلا الله ، هو وحده القادر والقاهر فوق عباده ، إنها عقيدة التوحيد التى رفع الرسول ﷺ رايتها ، وأكمل بناءها الذى بدأه الأنبياء من قبله ، فتمم بها ولها مكارم الأخلاق .

لابد من شكر الله بعد توفيقه لأداء فريضة الصيام فى رمضان ؛ لأن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، وابتدأت فيه الدعوة الإسلامية وصافح الوحى قلب الرسول الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ، ولابد من شكر الله على ماتوج به المسلمين من نصر مبين على عدوهم فى أول لقاء مسلح واجه فيه جند الإسلام أعداء الله ، فكانت الكرة على عدوهم وأمدهم الله بملائكته المسومين ، فاطمأنت قلوب المسلمين بنصر ربهم ، ولابد من شكره

---

(1) سورة الأعراف آية ٥٤

أيضا على ماأتمه الله تعالى من فتح كان عزة وسعادة للإسلام والمسلمين ، وشاء الله تعالى فى العاشر من رمضان من السنة الثامنة أن يفتح على رسوله مكة ، وأن يدخلها ظافرا ، ويصبح أعداؤه بين قبضة يده ، ويحطم الأصنام والأوثان ، ويطهر البلد الحرام ، والبيت والمقام من دنس الوثنية ، والتطامن للأصنام مرددا : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(1) .

وبهذا تحقق صدق الله تعالى بوعده ، ونصره لعبده ، وإعزازه لجنده ، وهزيمته للأحزاب وحده .

وفى العيد مع طهارة الظاهر وجماله طهارة الباطن وجماله ونقاؤه ، حيث يتطهر المسلمون من كل عيب ورذيلة ، ويتحلون بالفضائل ، ومكارم الأخلاق ، فلا مجال فى نفوسهم للرياء ، والأضغان والأحقاد ، وإنما تواصل وتعاطف وتحاب وتواد .

يصلون الأرحام ، ويعطفون على الفقراء والأيتام ، فتعم الفرحة جميع القلوب فلا مجال للحزن والأسى ، أو الحاجة والحرمان ، بل تسود الفضائل والمكرمات المجتمع الإسلامى الذى نقاه الصوم ، وتهذبت فيه العزيمة ، وقويت به الإرادة ، ووصل الصائمون إلى درجة التقوى التى فيها خافوا ربهم ، وراقبوه فرضى عنهم ورضوا عنه ، وفازوا برضوانه وذلك هو الفوز العظيم .

وفى ليلة العيد إعلان من ساحة الرحمة الإلهية ، لمثوبة الله ورحمته ، ومغفرته لذنوب عباده ،وحتى يشيع هذا التكريم للصائمين يشترك فى التكريم أهل السماء والملائكة، كلهم يشتركون فى تكريم الصائمين المخلصين .

فينادى الله تعالى الملائكة ، معلنا عليهم هذا الجزاء الوافر ، والأجر الكبير ، حيث إنهم قد أدوا ماكلفوا به .

فكان جزاؤهم أن يغفر الله تعالى لهم ، جزاء إخلاصهم وإخباتهم ، وتضرعهم وأدائهم لواجبهم .

---

(1) سورة الإسراء آية (81)

وقد جاء العيد فى الإسلام ، ليبدل الله تعالى به اللهو والعبث ، والصخب والهرج والمرج ومالا جدوى فيه ، يبدل ذلك بخير منه ، ولاشئ خير من يومى العيد حيث تنال الجائزة .

وإن لكل من عيدى الفطر والأضحى فى الإسلام معانى ومثلا ، ومبادئ وقيما فيهما الخير كل الخير .

يروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال « قدم الرسول ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فى الجاهلية ، فقال : إن الله تبارك وتعالى قد أبدلكما بهما خيرا منهما ، يوم الفطر ويوم النحر »[١] وتتلاقى للصائمين فرحتان عظيمتان بأدائهما فريضة الصيام ، وتظهر الفرحة الأولى عند الفطر ، حيث يفرح بما وفقه الله تعالى له وهداه له من أداء العبادة .

والفرحة الثانية عند لقاء ربه سبحانه وتعالى ، حيث تكفل بجزاء الصائمين وحده سبحانه ، فأضافه إلى نفسه وتكفل بجزائه . « الصوم لى وأنا أجزى به [٢] » من أجل هذا العطاء الوافر كانت فرحة الصائمين . يقول عليه الصلاة والسلام : « للصائم فرحتان . فرحة عند فطره . وفرحة عند لقاء ربه [٣] » ويوم العيد هو يوم الجائزة ، تنادى ملائكة الله تعالى المسلمين أن يهرولوا إلى ساحة الكرم ، وأن يقبلوا على فضل ربهم الكريم .

وتتلقى الملائكة عباد الله على أبواب الطرق ، تلقاهم ملائكة الله مرحبة ومكرمة ، ومشيدة بما أعد لهم من فضل ومكرمة ، ومثوبة ومرحمة ..

قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا: اغدوا معشر المسلمين إلى رب كريم ، يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل ، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم وأطعتم ربكم فاقبضوا جوائزكم ، فإذا صلوا نادى مناد : ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكم فهو يوم الجائزة ، ويسمى ذلك اليوم فى السماء يوم الجائزة[٤] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى
(٢) رواه أحمد والبخارى
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير

وقد جعل الله تعالى فى العيد استرواحا للنفوس ، وارتياحا للقلوب ، وتسرية نقية طاهرة لها .

وأباح للمسلمين فى يوم العيد من المرح الحلال ، والسرور النقى مايجعلهم ينشرحون ويفرحون .

وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك كله :

عن عائشة رضى الله عنها : أن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله ﷺ فى يوم عيد، فتطلعت من فوق عاتقه فطأطأ لى منكبيه فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت » ورووا عنها أيضا قالت : دخل علينا أبو بكر فى يوم عيد وعندنا جاريتان تتغنيان بيوم بعاث (يوم مشهور من أيام العرب) فقال أبو بكر : عباد الله ، أمزمارة الشيطان ؟ قالها ثلاثا ، فقال رسول الله ﷺ : « ياأبا بكر إن لكل قوم عيدا ، وإن اليوم عيدنا .. » وهى رواية عروة أنه قال : لتعلم يهود المدينة أن فى ديننا فسحة وأننى أبعث بحنيفية سمحة»[1].

هذا هو العيد ، ومفهومه فى الإسلام ، وهكذا تكون جائزة الصائمين المخلصين فاللهم امنح أمتنا جائزة النصر القريب ، والفتح المبين ، فلا يأتى العيد القادم إلا وهو عيد مزدوج نحتفل فيه بجائزة السماء ونصر الله لنا ، رافعين رايات النصر مكبرين من بيده النصر، وهو الله ذو الفضل العظيم .

❁❁❁

(١) رواه أحمد والشيخان

دروس من الهجرة

لقد أفاءت الهجرة النبوية على المحيط الإسلامى دروسا كريمة كان لها أكبر الأثر فى توجيه الحياة إلى الرشد والسداد ؛ ولما كان للهجرة أثرها الجليل فقد اتخذت مبدأ للتاريخ ، فقد كتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر رضى الله عنه : أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر رضى الله عنه الناس فقال بعضهم : أرخ بالمبعث . وقال بعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل ، فأرخوا بها .. وابتدأ التاريخ منها بالمحرم ، لأنه الشهر الذى ابتدأ فيه العزم والتصميم على الهجرة ، فإن بيعة العقبة كانت فى شهر ذى الحجة ، فبدأ الإعداد للهجرة بعد البيعة وذلك فى المحرم .

إذاً فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يقطع بالرأى فى اتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ إلا بعد المشاورة وأخذ الآراء ، حتى قيل أن البعض أشار أن يكتب بتاريخ الروم ، فقيل : إن الروم يطول تاريخهم يكتبون من ذى القرنين، وأشار البعض بتاريخ فارس ، فقيل: إن فارس كلما قام ملك طبع من كان قبله فاجتمع الرأى كما سبق على الهجرة .. ومعلوم أن للتاريخ أهمية عظيمة ، فبه تعرف مواليد الرواة ووفياتهم وبه يمكن الوقوف على صدق الرواة وعدمه ومعرفة الأعمار وما إلى ذلك من الفوائد .

ولنمر سريعا على بقية دروس الهجرة المباركة ، ففيها تبصرة وعبرة لأولى الأبصار .

ولقد كان من أهم الدروس التربوية : الفدائية ، والتضحية التى قام بها أعظم نفر مثلوا أروع نماذج المجتمع الإسلامى فى جهاده وفدائه ، وهؤلاء هم :

١ - أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه الذى مثل رجولة الرجل والصديق .

٢ - على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى ضرب مثلا بشبابه ظل أسوة على مر العصور لجميع الشباب .

٣ – أسماء بنت أبى بكر التى قامت بدور المرأة المسلمة ، وأدت واجب التضحية على أعظم مايكون .

٤ – عبد الله بن أبى بكر الذى قام بدور الاستطلاع ، فجمع أخبار الأعداء ، وهى مهمة من أخطر مايكون ، إنها (المخابرات) فى أشرف قصد وأسمى غاية لله ولرسوله .

٥ – عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الذى مثل الجندية الإسلامية فى أسمى معانيها وأدق صورها ، حيث قام بتوفير الأمان ، فرعى غنم الصديق ليروح إلى الغار فى الليل ليأخذوا حاجتهم منها ، وليعفى بالغنم آثار المشى إلى الغار فيضلل عنهم الأعداء.

ومن دروس الهجرة كذلك : الثقة بالله وصدق الإيمان به ، وماله من أثر فى حياة المسلم يجعله لايخشى إلا الله ، كما قال ﷺ لأبى بكر حين قال له : لو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآنا ، قال : ماظنك باثنين الله ثالثهما ، لاتحزن إن الله معنا . كذلك كان من تعاليم الهجرة ، بيان ثمرة الصبر ، وأن مع العسر يسرا ، وفضيلة الأنصار ، وإيثارهم لإخوانهم من المهاجرين ، نتيجة مؤاخاة الرسول ﷺ بينهم ، فأثمرت هذه المؤاخاة معانى إسلامية رائعة وكونت مجتمعا مؤمنا ، يشرق بمكارم الأخلاق .

فى الهجرة نصر وفتح :

وإن حادث الهجرة النبوية لمن أروع الأحداث الشاهقة فى تاريخ الإسلام ، فقد انتصرت به أمة ، وفتحت له دنيا ، وتواكبت على مساره أجيال ، ولئن حفت به مخاطر مهولة ، وتلاحقت عبر أيامه ظلمات جامدة فقد كانت بوارق الأمل تشرق فوق صحراء الزمن وتنبثق بين صخور الظلام رافعة شعارها الأخضر : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1]. ولقد عاشت الدعوة الإسلامية فترة ماقبل الهجرة على أشواك من الحياة الجافة تحيط بها ضلالة الوثنية الرعناء، وجهالة الشرك العنيد، وانطلقت من هذه الظلمات المتراكمة عداوات وإحن ، أخذت طريقها فى مطاردة الدعوة والداعية ، ومحاولة الإجهاز عليهما فى وقت واحد ، واتخذت قريش كل ألوان الأذى والعنت لتصرف الناس عن هذه الدعوة ، وتطفئ نورها

(١) سورة التوبة آية (٤٠)

بينهم ، وذاق المستضعفون من هذا الاضطهاد ماذاقوا إلا أنهم كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل الله ، وكلهم يقين وثقة أن ليل التآمر والغدر لابد أن يسفر عن نصر قريب ، فكان المؤمنون متمثلين قول ربهم سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1] . ولقد بث الرسول ﷺ فى أصحابه روح الإيمان ، والصبر فى الأزمات ، يقول خباب بن الأرت : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ فقال ﷺ : «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق مادون لحمه وعظمه ، ومايصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون[2] »

هذا والهجرة فى مفهومها الصحيح لم تكن فرارا ضعيفا من مطاردة المشركين ، لتختفى الدعوة وأصحابها عن تلك العيون المحدقة ، وإنما كانت انتقالا ببذور الدعوة إلى تربة صالحة يخرج نباتها بإذن ربه ، واتجاها إلى مناخ ملائم تترعرع فيه لتؤتى أكلها كل حين .

والحرب النفسية والمادية التى شنها أعداء الإسلام على الدعوة لم يكن القصد منها القضاء – فقط – على الداعية والمؤمنين التابعين له ، وإنما كان أهم مايعنيهم يومها أن تنتصر الوثنية وجندها ، وتنهزم هذه الدعوة الجديدة فلا يبرق لها شعاع بين أنحاء البلاد ، ولكنهم لم يستطيعوا إطفاء نورها ؛ لأن الله سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وفى مكرهم ومؤامرتهم لم يصلوا إلى شئ ؛ لأن رب الدعوة حارس لها ، ومؤيد رسوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[3] ؛ لذا كان تمسك أصحاب الرسول ﷺ بدعوتهم، وتغلغلها فى دمائهم وأرواحهم انتصارا للدعوة ، مهما بالغ الأعداء فى التنكيل بهم.

وإن أمثلة الإيمان والشجاعة التى ضربها أمثال بلال وآل ياسر وغيرهم إنما كانت أنماطا صادقة الرؤى لانتصار الدعوة لدى هؤلاء المؤمنين المخلصين حتى ولو انتهى بهم الأمر

(١) سورة البقرة آية (١٣٤) (٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود

(٣) سورة الأنفال آية (٣٠)

إلى القتل أو الموت خلال تمسكهم بدينهم وهجرتهم بدعوتهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١)

هذا وقد تحدث القرآن عن الهجرة حديث الانتصار قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

وقد أثمرت المؤاخاة التى أبرمها رسول الله ﷺ فكونت أساسا لأعظم مجتمع مثالى تألقت فيه معانى الحب والإخاء ، وأشرقت بين جنباته بطولة العقيدة التى حققت النصر فى الغزوات وتحقق على يديها الفتح المبين .

لا هجرة بعد الفتح :

ولنختتم حديثنا عن الهجرة بهذا الحديث الشريف : عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الفتح :

« لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا (٣) » .

كانت الهجرة فى مبدأ أمر الإسلام فرضا على من أسلم ، لأن عدد المسلمين بالمدينة قليل ، ولأن الحاجة إلى اجتماعهم وتوحدهم ضرورية ، تقوية لجانبهم ، ونصرة وأمانا لهم ، حتى يسلموا من أذى قومهم من الكفار حيث كانوا يذيقونهم من العذاب والتنكيل مايذيقونهم ، ويستغلون ضعف قوتهم فى محاولة إرجاعهم عن الدين ، ونزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٤)

وبعد أن فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق إلا أن

(١) سورة الحج آية (٥٨)
(٢) سورة التوبة آية (٤٠)
(٣) رواه أحمد والبخارى ومسلم
(٤) سورة النساء آية (٩٧)

يقولوا ربنا الله ، وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا حينئذ سقط فرض الهجرة ، وبقى فرض الجهاد فى سبيل الله والنية الصادقة المخلصة ، إذا دهم العدو البلاد.

وقد بقى من أنواع الهجرة : هجرة من أسلم فى دار الكفر واستطاع أن يخرج مهاجرا بعقيدته وعبادته . فالمفارقة إنما تكون بسببين : الأول : الجهاد . والثانى : النية الصالحة ، كالفرار من دار الكفر والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن ، فما لم يستطع الإنسان تحصيله بالهجرة يمكنه تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، ثم وجه الرسول ﷺ المسلمين إلى وجوب الاستنفار فى سبيل الله ، إذا طلب ذلك أولو الأمر « وإذا استنفرتم فانفروا » سواء كان ذلك للجهاد أو نحوه من الأعمال الصالحة ..

نسأل الله تعالى أن يوفق أمتنا فى جهادها فى سبيل الله ، وأن يتمم لنا النصر الذى وعد به : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

❁❁❁

(١) سورة الروم آية (٤٧)

عباد الرحمن

من المؤمنين رجال نعتهم الله تعالى بأشرف النعوت وأسماها ، وهى : « العبودية » ، وتوجهم بإضافة التشريف إلى جناب رحمته ، فسماهم « عباد الرحمن » وصفة الرحمن ، من الصفات الخاصة بالله تعالى شرعا فلا يصح إطلاقها على غيره من المخلوقين ، وهى تعنى سعة الرحمة فى الدنيا ، حيث يعم بها المؤمنين وغيرهم .

وقد بين الله تعالى أحوال عباد الرحمن فى « الدنيا » : حيث عاشوا حياتهم المترعة بالإيمان والعمل . وبين أحوالهم أيضا فى « الآخرة » : حيث يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . وأما ما اتصفوا به من صفات ، فهى تنقسم إلى قسمين .

القسم الأول : صفات إيجاب ، تدل على عظمة إيمانهم وعملهم ، وأنهم لايكتفون فى جانب العبادة بما وجب عليهم ، بل يتسمون بمكارم الأخلاق ، والكثير من النوافل ، حتى يصلوا إلى مكانة الحب والقرب . وهذا النوع من الصفات ، منه مايتعلق بأنفسهم ، وتذللها للكبير المتعال ، ومنها مايتعلق بمعاملاتهم مع الغير ، ومنها مايتعلق بمعاملاتهم مع ربهم سبحانه وخشيتهم منه ، ورجائهم لعفوه ورحمته وجنته .

والقسم الثانى : صفات سلب ، نفت عنهم فساد العقيدة ، وفساد الخلق وأثبتت لهم غاية من أشرف الغايات ، وهى تكوين مجتمع مثالى ، تنبثق أسسه من تقوى الله تعالى : أما الصفة الأولى من القسم الأول : فهى ماذكره الله فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(١) فهم لايتكلفون ، ولا يتصنعون ، ولايتعالون ولايتبخترون ، بل تظللهم السكينة ، ويعلوهم الوقار والتواضع ، وقد أكد القرآن الكريم النهى عن السير مرحا وخيلاء ، فمهما بلغ الإنسان فى ذلك ، فإنه لن يقطع الأرض بمشيه ، ولن يبلغ طول الجبال بتمايله وإعجابه بنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ

(١) سورة الفرقان آية (٦٣)

طُولًا ﴾[1] وبين سبحانه فى وصية لقمان لابنه ، النهى عن التكبر ، ووضح كيفية السير المحمود عند الله تعالى ، بأن يتوسط السائر بين الدبيب والإسراع ، ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾[2] وخوفا من تسرب رذيلة الإعجاب ، أو ذهاب وقار الإيمان ، يوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أمته أن يأتوا إلى الصلاة فى زى السكينة المشرق، فيقول ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا ، ومافاتكم فأتموا »[3] وقد أبرز القرآن والسنة مغبة أمر هذه الرذيلة – الخيلاء – وماتعود به على صاحبها من عذاب وغضب فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا ، فأخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، وأن الله قد خسف به وبداره الأرض وفى الحديث المتفق عليه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال فى مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة »[4] .

وأما فى الآخرة : فقد بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه كيف تجر هذه الرذيلة صاحبها إلى مهاوى الهلاك ، وفيما رواه الترمذى بسنده ، عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ماأصابهم» . وإذا ماتسرب البطر إلى نفس الإنسان فسد خلقه ، وغضب الله عليه فلا ينظر إليه يوم القيامة ، ففى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا » أما المسلم الهين اللين السهل ، فجزاؤه عند الله كبير ، روى الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار : تحرم على كل قريب هين لين سهل » وقد عنى القرآن الكريم ، والحديث النبوى بهذه الظاهرة وحفلت آدابهما بها ، لأنها مناط السلوك النفسى فى الإنسان ، ومن ثغراتها يمكن أن تتسرب شتى الرذائل ، أما حين يدفع الإنسان عن حياته وسيره الغفلة والجهل والكبر والتعالى فهو آنئذ فى وعى روحى ، يتبصر طريق عباد الرحمن فيسلكه فى تواضع حتى يرفعه الله ، وإذا كانت الصفة الأولى تنم عن حال الإنسان مع نفسه ، فإن « الصفة الثانية » لعباد الرحمن تنم عن حالهم

(١) سورة الإسراء آية (٣٧)
(٢) سورة لقمان آية (١٨ ، ١٩)
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه البخارى ومسلم

مع الغير ، وعلاقاتهم الإنسانية ، وهى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾[1] ففى قولهم وردهم على المسئ سلام من الأذى ، وسَدَاد فى القول ، وتستهدف هذه الصفة مبدأين :

﴿ الأول ﴾ الإعراض عن الجاهلين وعن لغوهم ، فلا يُرد السفه بمثله ، كما قال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2]

وكما قال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾[3]

والمبدأ الثانى هو أنهم يحاولون – مااستطاعوا – أن يخمدوا جذوة الشر ، حتى لايتفاقم الخطر، وحتى لايستشرى الفساد ، روى الإمام أحمد بإسناد صحيح : « حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى خالد الوالبى عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ :– سبَّ رجل رجلا عنده ، فجعل المسبوب يقول : عليك السلام – فقال رسول الله ﷺ : أما أن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا ، قال له : بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قلت له : وعليك السلام قال : « لا بل عليك وأنت أحق به » .

وكان الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة فى ذلك ، فبين جوهر الإسلام ، وهو الحلم والأناة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة[4] ، ومخاطبة الناس الذين يجهلون أقدار العظماء وولاة الأمور ، عندما تكون فى الحق ، يصبح لها وزنها ووضعها ، مهما تكن الصيغة التى تظهر بها ، وقد أثمرت وترعرعت فى حياة الرسول ﷺ ، وفى جو الإسلام النقى بحيث أصبح الصحابة يتلقونها بحفاوة ، ويحيطونها بحماية بالغة مادامت فى الحق ، ولذلك كان للمعارضة الحرة رعايتها فى عهدهم مهما تكن الأحوال ، فذات يوم جاء رجل إلى سدينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال له : اتق الله ياعمر ، وكررها مرات.. وحاول بعض الجالسين أن يزجر الرجل ، قائلا له : صه فقد أكثرت على أمير المؤمنين . ولكن أمير المؤمنين يقول له : « دعه ، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

ولكن مقابلة الجهل بالحلم ، والتهور بالأناة ، مشروط بما إذا لم يترتب على ذلك مذلة للإنسان المسلم ، أو ثلم للعرض والدين ، فإذا ترتب عليه ذلك ، فإن الواجب حينئذ هو

(١) سورة الفرقان آية (٦٣)
(٢) سورة الأعراف آية (١٩٩)
(٣) سورة القصص آية (٥٥)
(٤) رواه مسلم

الدفاع تعظيما لحرمات الله ، وحفاظا على حدود الشريعة ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (١)

ثم انتقلت الصفات بعد ذلك إلى بيان صلة عباد الرحمن بالرحمن ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ (٢) فهم يقطعون الليل فى عبادة الله وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣) .. ولقيام الليل ثلاث ثمرات فى الدنيا :

الأولى : إخلاص النية والعمل لله تعالى ، فإن ممارسة العبادة بالليل ، حينما يخلو كل حبيب بحبيبه ، وتسكن الحياة ، يفترشون لله أقدامهم ، ويسلمون له أنفسهم ، فهى عبادة أبعد ماتكون عن الظهور إلا لله ، فهى لهذا تطبع سلوك المسلم بالإخلاص فى كل سلوكه ومعاملاته مع الله ومع الناس .

الثانية : أن هذا اللون من العبادة الخالصة لله ، والتى لايراها إلا هو ، تكون شكرا لله تعالى على أنعمه التى أفاضها على الإنسان ظاهرة وباطنة ، وعلى مارزقه إياه من حيث لايحتسب ، وفى الحديث المتفق عليه ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يارسول الله ، وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا(٤) ؟ وهذه العبادة وهى فى محل الشكر لله تعالى تزيد من فضل الله على الإنسان ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٥)

الثالثة : التعرض لساعة القبول ، وتلقى رحمات الله تعالى ونفحاته ، روى الإمام مسلم قال حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن فى الليل لساعة لايوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » بل إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى

---

(١) سورة الحج آية (٣٠)
(٢) سورة الفرقان آية (٦٤)
(٣) سورة الذاريات آية (١٧ ، ١٨)
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) سورة إبراهيم آية (٧)

سماء الدنيا فى وقت من الليل تسكن فيه الدنيا ، ولايحظى بمقابلة فيوضات رحمته إلا من قام لله داعيا ، روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له ؟ ومن يسألنى فأعطيه ؟ ومن يستغفرنى فأغفر له » ، وأما ثمرة قيام الليل فى الآخرة : فهى دخول الجنة التى أعدها الله تعالى لعباده المخلصين الشاكرين . روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

ومن صفاتهم : أنهم مع عباداتهم ، دائبون فى الدعاء ويعيشون بين الخوف والرجاء، فيدعون ربهم ، أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، فإن عذابها موجع لازم ، وأنها ساءت مستقرا ومقاما .

ثم اتجهت الآيات بعد ذلك إلى إبراز صفات السلب التى تنفى عن « عباد الرحمن » كل نقيصة أو رذيلة ، وتبين كيفية تصرفهم فى أموالهم دون إسراف أو تقتير : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾(1) أى وسطا ، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾(2) إنها الصورة الصحيحة التى رسمها القرآن لرسول الله ﷺ ، وواجب أمته الإهتداء والاقتداء بها .. وقد طلب الإسلام من أتباعه التزين للمساجد ، كما وجههم إلى الاستمتاع بالأكل والشرب ، دون إسراف ، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾(3)

وروى عن الحسن : أنه ﷺ كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول : « إن الله جميل يحب الجمال »(4) وفى الحديث : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى

(1) سورة الفرقان آية (67)
(2) سورة الإسراء آية (29)
(3) سورة الأعراف آية (31 ، 32)
(4) رواه أحمد ومسلم

غير مخيلة ولا إسراف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[1] ، ومن صفاتهم أنهم: ﴿ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[2] فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، يستدلون على وحدته بالعالم المخلوق ، فهم يستعملون عقولهم ، ويرون الحقيقة تشرق فيزداد إيمانهم ، فلا يدعون مع الله إلها غيره ، لأن جميع ماعداه لايملك لنفسه نفعا ولاضرا ، ولا موتا ولاحياة ولا نشورا . ومن صفاتهم : أنهم لايعتدون على النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وهوالكفر بعد الإسلام أو الزنا بعد الإحصان ، أو قتل النفس .

ومن صفاتهم : أنهم لايعتدون على الأعراض ، فلا يقربون ماحرم الله عليهم .

وكان ظاهر السياق ، أن تتقدم هذه المنكرات التى نفاها الله تعالى عن عباد الرحمن ، وتتأخر صفات الإيجاب ، فإن الموصوف بالأوصاف السابقة لايمكن أن يكون متصفا بشئ من تلك المنكرات الشنيعة ، والجواب : أن ذلك إنما كان تعريضا بما عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم فإن المؤمنين مطهرون مما عليه أعداؤهم من الرذائل ، عن ابن مسعود : قلت : يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك[3] .

وبعد أن نفى الله تعالى هذه الجرائم عنهم وضح عقاب من يقترفها ، فبين أنه يلقى النكال ويضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه محتقرا ذليلا ، فيلاقى نصيبه من العذاب المادى والمعنوى .

كما بين سبحانه جزاء من يقلع عن هذه الرذائل ويتوب إلى ربه صادقا مخلصا ، يجمع بين الإيمان والعمل ، جزاؤه : أن يبدل الله سيئاته حسنات .

وللعلما رأيان فى هذا التبديل : « الأول » : أنه فى الدنيا ، وذلك بتوفيق الله لهم إلى صالح الأعمال ، وتيسيرها عليهم ، « والثانى » : أن التبديل فى الآخرة ، وذلك بأن يضع بدل عقاب السيئة ، ثواب الحسنة ، فهو تبديل الجزاء لاتبديل الأعمال ، وعلى كل

(١) رواه أحمد والبخارى (٢) سورة الفرقان آية (٦٨)
(٣) رواه البخارى .

فيمكننا التوفيق بين الرأيين بأنهما متفقان على أن التبديل لايكون إلا بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح .

وقد ظن المشركون – بعد نزول هذه الآيات – أنها خاصة بمن آمن قبل نزولها ، فنزلت الآية التالية تبين أن حال التائبين سواء قبل النزول وبعده : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (1) وقد قيل : « لله أفرح بتوبة العبد من المقل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد » .

ومن صفاتهم : أنهم لا يشهدون الزور ، فلا يحضرون مجالس الباطل ولايساعدون عليه أحدا من الناس ، وإنما ينكرونه فينزهون أنفسهم عن الشر وأهل الشر ، والزور شامل لكل باطل ، فهم مطهرون منه ، وإذا مروا به فإنما يمرون كراما مطهرين ، منكرين له ومعرضين عنه ، فإن استطاعوا تغييره غيروه ، كما قال ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (2) . ومن صفاتهم : أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم اعتبروا بما فيها ، واستنبطوا الموعظة الحسنة ، ووقفوا على مافيها من هداية وإرشاد ، فهم يقبلون عليها بآذان واعية وقلوب متفتحة ، فحالهم هى حال المقربين ، بعيدة عما عليه أولئك المبعدون الذين إذا استمعوا إلى آيات ربهم كانوا كمن به صمم لايعى مايقال ، ومن به عمى لايبصر . ومن صفاتهم كذلك : أنهم يطلبون من ربهم أن يهبهم الذرية الصالحة التى تجمع بين الإيمان والعمل ، والأزواج المؤمنات، والدرجات العالية ، فى الطاعة حيث يقتدى بهم فيها ، ولاشك أن فى هذا رقيا لبناء الأسرة التى هى جزء من المجتمع الكبير. فهم يعالجون المجتمع ويقومون على إصلاحه، ويرون أنهم حين يهبهم ربهم الذرية الصالحة والأزواج الصالحات ، تقر عيونهم ، فهم يحبون لهم مايحبون لأنفسهم ، ولقد كان المجتمع الأول يعج بالفساد والجهالة ، قبل أن يشرق نور الإسلام ، وتنتشر هدايته ، فكانت عبادة الأوثان ، فلما جاء الهدى الإلهى على يد الرسول ﷺ بفرقانه ، فرق بين الحق والباطل ، وكان الرجل يرى ولده أو أخاه أو والده كافرا ، ويعلم أنه إن ظل هكذا كان جزاؤه النار ، فيظل فى عيشة مريرة ، إذ أن أحب الناس إليه لم يهتد بهديه ، ولم يتبع هدى الله ، فكان المسلمون يطلبون من ربهم أن يهبهم من ذريتهم وأزواجهم من يعبد الله ويطيعه حتى يكون سعيدا فى دنياه وفى أخراه .

(1) سورة الفرقان آية (71)   (2) رواه البخارى ومسلم

فعباد الرحمن إذن تتجه رغبتهم إلى إصلاح بيئتهم ، ومعالجتها من كل فساد .

ثم أوضحت الآيات بعد ذلك جزاءهم عند ربهم ، وما أعده لهم فى آخرتهم من غرفات عالية فى الجنة جزاءِ على ماقدموه من صالح الأعمال ، فتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام . وهذه الدرجات إنما استحقوها بفضل صبرهم على طاعة ربهم، وترك شهواتهم .

وقد أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقول للناس ، ويبين لهم أنه لاقيمة لهم عنده إلا بالعبادة ، ولولاها مااهتم بهم ، لأن هذا هو الهدف من خلقهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١)

ولكن الكافرين الذين عموا وصموا ، وجه الله خطابه إليهم قائلا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (٢) وبهذه الصفات اشتملت الآيات على الضروريات وهى حفظ النفس والعرض والمال والعقل من الإشراك والعقائد الفاسدة، كما اشتملت على حال العبد مع ربه، وحاله مع الناس ، وبذا يتبين لنا أثرها القوى فى بناء المجتمع الإسلامى الصالح الذى ترفرف عليه سعادة الدنيا والآخرة ، وتنتشر فيه الطمأنينة والأمان ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من « عباد الرحمن » وأن يوفق أمتنا إلى التخلق بصفاتهم إنه سميع مجيب الدعاء ،،

❁❁❁

(١) سورة الذاريات آية (٥٦)　　(٢) سورة الفرقان آية (٧٧)

الوحدة سياج المجتمع

للوحدة أثرها وفاعليتها ومنزلتها وقوتها ، فهى من أهم ركائز التضامن الإسلامى الذى تنشده الأقطار الإسلامية عبر التاريخ ، فيوم أن يتحد العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها تحت راية : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يوم أن تنعم المجتمعات والشعوب بالأمن والاستقرار والسعادة والرفاهية فلا يتهددها عدو ولايحدق بها خطر ولايتآمر عليها الباطل مهما كان مدججا بالأسلحة ، ولايتسرب إلى حماها غزو فكرى .. ولا تيار من التيارات المادية ، ولاتحلل خلقى ، وذلك أن الوحدة سياج منيع يصون حماها من كل دخيل ويحفظ عليها أمنها واستقرارها .

* بل ولاخوف على غيرها من الأمم لأن لديها إيمانها ، وهو مايقرر العدل فى الأرض ويحقق السلام والإصلاح ويشيع فى جوانب الحياة كل معروف ويطهرها من كل منكر . ويومها يفئ الناس فى ظلال الإيمان أحبة آمنين قال الله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١)

* ويقرر القرآن الكريم أن أهل الإيمان والحق حين يمكن الله لهم فى الأرض فهم ينصرون دين الله ويرفعون راية العدل الإلهى .

* وبقيمون شعائر الدين وأحكامه ويؤدون الأمانة الإلهية على أكمل وجه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢)

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠)

(٢) سورة الحج آية (٤١)

* وقد أكد الله تعالى روح هذه الوحدة وجوهر هذا التضامن الإسلامى فى حب بين المؤمنين والولاة ورغبة فى الخير والإصلاح فقال :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

أساس الخير :

والوحدة أساس كل خير فى دنيا الناس وآخرتهم ، والفُرقة أخطر الآفات التى تقضى على سعادة المجتمعات والشعوب ، وترديهم فى مهاوى التهلكة وتجرهم إلى وحل المعصية وتظل تفرقهم شيعا حتى تجعلهم ينفصلون عن الدين قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

* بل إن العلم نفسه وهو من أهم دعائم الأمم حين لاتخلص فيه النية لله تعالى ويخلو من روح الإخلاص تتسرب إلى ميدانه آفات ورذائل فتميل به يمنة أو يسرة فتكون النتيجة هى الاختلاف من جراء البغى والحسد والعناد والتعصب .

* فدعوة الوحدة إذن لابد لها من فكر صاف مستنير لاتشوبه آفات الفرقة والاختلاف ولذا نجد القرآن الكريم حين ينبه إلى هذا الخطر الداهم من جراء البغى والعصبية يدعو إلى أساس من التوحيد الخالص والتمسك بهذا الدين الحنيف قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٣)

---

(١) سورة التوبة آية (٧١)

(٢) سورة الأنعام أية (١٥٩)

(٣) سورة آل عمران آية (١٩)

أساس الوحدة :

وكما بين الله أن أساس الفرقة والاختلاف يكون من التعصب والبغى والحسد والعناد وماإلى ذلك ، فقد بين أساس الوحدة التى يدعو إليها الإسلام ، وذلك هو الدين والاعتصام بحبل الله ففى ذلك القوة والخير والسعد والفوز فى الدنيا والآخرة ، ولطالما تعثرت خطا البشرية بأشواك الحياة الجافة القاسية ، واضطربت فى جو ملبد خانق ، فبينما كانت تعانى من ظلام دامس واضطراب فى شتى نواحى الحياة كانت وطأة الصراع المادى وكان بطش القوى بالضعيف وتطاول الغنى على الفقير حتى جاء الإسلام بظلاله الوارفة .. وقوانينه العادلة وكتابه الحق .. ورسوله البشير النذير الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور فهدى الناس من الضلالة ووحدهم من فرقة وخلصهم من أثقال وإغلال وهداهم إلى صراط مستقيم .

التحذير من الفرقة :

ولقد دعم الإسلام أواصر الوحدة وذكر الناس بفضل الله عليهم بكل ذلك وحذر المؤمنين أن يطيعوا دعاة الفرقة والاختلاف ، وذكرهم بما كان عليه الأوس والخزرج قديما حين دبت العداوة فى صفوفهم ونشبت بينهم الحروب المتطاولة حتى جاء الإسلام فأطفأ نار الفتنة وأخمد شرها وجمعهم على كلمة الحق وألف بينهم برسول الله ﷺ .

* وتدعيما لأصول تلك الوحدة وترسيخا لبنائها كلف الله تعالى هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر انتصارا للدين ودفعا لآفات الشر والفساد التى قد تثار حول حماه أو ترتكب فى الوطن الإسلامى .

* وقد وجه الرسول ﴿ ﷺ ﴾ أمته إلى أساس الوحدة وهو الاعتصام بحبل الله .. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» (١)

---

(١) رواه مسلم ومالك

* وهكذا وجّه الحديث التحذير من الفُرقة والاختلاف « ولاتفرّقوا » وجاء هذا النهى بعد الأمر بالاعتصام بحبل الله لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع بعيد عن التفرقة ، أما الإعراض عنه والتماس الاعتصام بغيره ففيه الضلال « من التمس الهدى فى غيره أضله الله » (١) .

* والناظر إلى التشريع الإسلامى يجده قد دعا المسلمين إلى الوحدة عن طريق عملى وتطبيقى كما دعا إليها فى سائر نداءاته ووصاياه من خلال الهدى القرآنى والسنة المشرفة .. لقد طبق الرسول « ﷺ » معالم الوحدة والتضامن ووحد بين المسلمين فى أول أساس من أسس المجتمع الإسلامى فى المدينة حيث آخى بين المهاجرين والأنصار وأبرم وثيقة هذا التضامن فى صورة من الوحدة والأخوة والتعاون بشكل لاتعرف الدنيا له مثيلا .

* وتمضى تشريعات الإسلام فى غرس أصول الوحدة وتقوية روح التضامن بين المسلمين فى الصلاة وفى الصوم وفى الزكاة وفى الحج .. فصلاة الجماعة لها من المثوبة مايزيد على صلاة الفرد .. وفى صلاة الجمعة اجتماع اجتماع أسبوعى كبير وفى صلاة العيدين اجتماع أكبر فى كل عام ثم فى فريضة الحج اجتماع أكبر وأعظم .

* ويؤكد الرسول « ﷺ » جوهر الوحدة فى قوله : « يأيها الناس إن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » (٢)

❁❁❁

(١) رواه الترمذى والدارمى (٢) رواه أحمد

كما تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم ، تكفل سبحانه وتعالى بجمعه وقرآنه ، وتوضيحه وبيانه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (١)

ولذا قيض الله تعالى لسنة نبيه ﷺ فى كل عصر ومصر ، من ينافحون عنها ، ومن يدونونها ، ومن يشرحونها ، ومن يحفظونها فى قلوبهم الأمينة وصدورهم الواعية .

وماكانت التحديات التى واجهتها السنة النبوية قديماً ، وتواجهها حديثاً ، تمثل خطورة على دين تكفل رب العزة بحفظ دستوره ، وحفظ بيانه ، وإنما كانت تمثل خطورة على بعض أتباع الإسلام ، ممن يقعون فريسة لتلك الدعوات الضالة ، والكتابات الباطلة ، بيْد أن هذه التحديات كانت تحفز همم علماء الحديث ، فى كل جيل من الأجيال أن يهبُّوا عن بكرة أبيهم ، وأن يجندوا كل طاقتهم ، لينفوا عن الحديث النبوى ، تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

ومما منَّ الله به علىَّ ، ووفقنى إليه أن جعلنى واحدا من علماء الحديث ، أُشْرُف بتدريسه فى أعرق الجامعات الإسلامية (جامعة الأزهر الشريف) وأقوم بالذود عنه ، وردّ شبهات المستشرقين ، وبعض الكُتّاب الذين طفوا على سطح الحياة الثقافية حديثاً ، وحاولوا – بغياً منهم وعدوانا – أن ينسجوا على منوال سابقيهم من أعداء الحديث النبوى الذين حاولوا إثارة الشبهات حول الحديث النبوى .

ومن فضل الله تعالى علىّ أن قدّمت للمكتبة الإسلامية ، طائفة من المؤلفات التى تخدم الحديث النبوى ، وبعضها فى منهج الدفاع عنه .

---

(١) سورة القيامة الآيات (١٧ – ١٩)

وهأنذا أتناول الردّ على بعض تلك الشبهات التى يحاول بعض التابعين لأبواق الاستشراق أن يلقوا بها فى محيط الحياة الثقافية .

شبهة ادعاء الاكتفاء بالقرآن الكريم :

وهذه الشبهة دعت بها طائفة فى القديم ، وطائفة حديثا ، تدعو إلى الاكتفاء بالقرآن عن الحديث ، وهؤلاء الذين تبنوا هذه الدعوى ، يستهدفون ضياع الدين ، وذلك لأن الناس إذا تركوا الحديث وأهملوه ، فلن يستطيع أحد - كائنا من كان فى ثقافته ، وفى ذكائه ، وفى ورعه - أن يفهم كلام الله تعالى ، ولا الوقوف على المراد منه .

فالقرآن الكريم جاء بالقواعد العامة والكليات ، والحديث النبوى فصّل هذا وشرحه وبينه ، فقد جاءت الأوامر القرآنية والتوجيهات بالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد والبيع والشراء والزواج وغير ذلك من الأمور ، ولكنها تحتاج إلى تفصيل وبيان ، إذ ليس فى القرآن تفصيل تلك الأحكام ولا عدد الركعات ولاكيفية أدائها ومايتعلق بغيرها من العبادات والمعاملات من أحكام تفصيلية ، وإنما كانت السنة النبوية هى المفصّلة والشارحة لهذا كله، وجاء الأمر الإلهى بأخذ ما جاءت به والانتهاء عما نهت عنه ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (١)

ولذا وجّه الرسول ﷺ المسلمين أن يحافظوا عليها ، ففيما رواه العرباض بن سارية مرفوعاً ، يقول الرسول ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ »(٢) .

وهكذا كان الأمر النبوى بالحفاظ على سنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع فقال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أمركم فاحذروا . إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب

---

(١) سورة الحشر آية (٧)

(٢) رواه أبو داود والترمذى

الله وسنة نبيه »[1] . هذا إلى جانب مابينه الله تعالى فى القرآن الكريم من وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وأنه الذى يبين للناس مانزل إليهم قال الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[2]

فأهمية ماجاءت به السنة أمر لايمكن الاستغناء عنه ، وإلا فإن القرآن لايُفهم ، وإن الأحكام وتفصيلاتها لاتُعلم . عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : «إنك امرؤ أحمق أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لايجهر فيها بالقرآن ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال : أتجد ذلك فى كتاب الله مفسّرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسر ذلك »[3] وبهذا تتأكد حجية السنة النبوية والحاجة الماسّة إليها .

وقد ذهب بعض أصحاب الآراء الجامحة ، من الفرق والطوائف الضالة ، إلى إنكار حجية السنة جملةً – متواترة كانت أو آحاداً – مستندين فى ذلك إلى فهمهم السقيم ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[5]

وأصل هذا الرأى الفاسد – وهو رد السنة والاقتصار على القرآن – أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ، وتبعهم فى عصرنا هذا بعض الكُتّاب المعاصرين ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة ، والاقتصار على القرآن ، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ أنه قال : « ماجاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته وماخالفه فلم أقله »[6] وأمره بمحو ماكتب منها.

الإجابة على هذه الشبه :

أما قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

---

(١) رواه الحاكم . (٢) سورة النحل آية (٤٤)

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٤٩٦

(٤) سورة النحل آية (٨٩) (٥) سورة الأنعام آية (٣٨)

(٦) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢ / ١٩٠ ، إرشاد الفحول ص ٣٣ ، الحديث والمحدثون ص ٢٣

فالمراد – والله أعلم – أن الكتاب يبين أمور الدين بالنص الذى ورد فيه أو بالإحالة على السنة التى تولت بيانه ، وإلا فلو لم يكن الأمر كذلك ، لتناقضت هذه الآية مع قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ والتناقض مستحيل فى كتاب الله تعالى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]

فوجب معرفة أن القرآن تبيان لكل شئ بما ورد فيه صراحة بالنص أو بالإحالة على السنة النبوية المفصِّلة والشارحة والمبيِّنة.

وأما قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾

فالكتاب هو اللوح المحفوظ ، بدليل السياق : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[2]

وعلى تقدير أنه القرآن فالمعنى أنه يحتوى على أمور الدين إما بالنص الصريح وإما ببيان السنة له .

وأما الحديث الذى نسبوه إلى النبى ﷺ والذى زعموا – حسب ادعائهم أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب ، فقد قال فيه الإمام الشافعى رحمه الله تعالى . ماروى هذا الحديث أحد يثبت حديثه فى شئ صغر ولاكبر[3] . وذكر أئمة الحديث أنه موضوع ، وضعته الزنادقة ، قال عبد الرحمن بن مهدى : (الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث وهذه الألفاظ لاتصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه . وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم ، وقالوا : نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شئ ، ونعتمد على ذلك ، قالوا : فلما عرضناه على كتاب الله ، وجدناه مخالفا لكتاب الله . لأنا لم نجد فى كتاب الله أنه لايقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ماوافق كتاب الله ، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسى به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملةً على كل حال)[4]

---

(١) سورة فصلت آية (٤٢)

(٢) سورة الأنعام آية (٣٨)

(٣) الرسالة للإمام الشافعى ص ٢٢٥

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢ / ١٩٠

وأما نهى الرسول ﷺ عن تدوين السنة فلا يدل على عدم حجتها ، لأن المصلحة يومئذ كانت تقتضى تضافر كتاب الصحابة - وهم قلة - على جمع القرآن الكريم وتدوينه وحفظه أولاً ؛ خشية الضياع أن يلتبس بغيره على البعض فنهاهم عن تدوين السنة ، حتى لايكون تدوينها شاغلاً لهم عن القرآن ، أو أن النهى كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه .

ثم كيف يترك الاحتجاج بالسنة اقتصارا على القرآن ؟ ولاسبيل إلى فهم القرآن إلا عن طريق السنة الصحيحة ، التى بها يعلم المفسر أسباب النزول والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التى نزلت فيها آيات القرآن الكريم ، ولاسبيل إلى معرفة كل ذلك إلا عن طريق السنة النبوية الصحيحة .

وأما إنكارهم الاحتجاج بخبر الواحد ، فإنه لاأساس له من الصحة وحسبنا فى الرّد على ذلك أن أسوق هذه الأدلة الصريحة من كتاب الله تعالى ومن الحديث الصحيح تثبت وجوب العمل بخبر الواحد :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(١)

والنبأ : هو الخبر ، وهو نكرة فى سياق الشرط فيعم كل خبر ، ويدخل فيه الخبر الذى يتعلق بالرسول ﷺ قبل غيره لأهميته ، وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق فى المخبر ، فإذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلا ضابطا قبل خبره .

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على وجوب العمل بخبر الواحد : قوله ﷺ : « نضَّر الله عبداً سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها ، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله والنصيحة ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »(٢) وهناك رواية للحديث بلفظ « نصر الله امرءا» والكلمتان بمعنى : (الواحد) . ورسول الله ﷺ لايأمر أن يؤدى عنه إلا الذى تقوم به الحجة ، فدل ذلك على وجوب العمل بخبر الواحد وقد تواتر عن الرسول ﷺ أنه كان يبعث بكتبه ويلزم المسلمين العمل بالآحاد منها .

(١) سورة الحجرات آية (٦)

(٢) رواه أحمد الترمذى والدارمى

وإجماع الصحابة المستفاد من الوقائع الكثيرة التى كانت تحدث ، وتتواتر عنهم فى العمل بخبر الواحد ، وكثيراً مايكون لهم رأى فى أمر من الأمور ، فإذا جاءهم خبر عن رسول الله ﷺ أخذوا به وتركوا آراءهم ، كما كانوا يرجعون إلى بيت النبوة فى بعض مايحتاجون إليه .

ومما يشهد للعمل بخبر الواحد أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكتفون به فيما ينزل من أحكام الدين ، ولايطلبون خبرا آخر ، من ذلك ماروى عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : « بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ ، فقال : إن النبى قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها ، فكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة »(١) فقد أخبرهم بتحويل القبلة واحد صادق ، فلو لم يكن خبر الواحد جائزاً ، لما تحولوا إلى الكعبة بخبره .

إننا ننادى الذين يدعون إلى الاكتفاء بالقرآن وترك السنة أن يستجيبوا لدعوة القرآن وهو يقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٢)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٣)

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾(٤)

قال ميمون بن مهران : الردّ إلى الله هو الرجوع إلى كتابه ، والردّ إلى الرسول هو الرجوع إليه فى حياته ، وإلى سنته بعد وفاته .

وعن المقداد بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إننى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لايحل لكم الحمار الأهلى ولا كل

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد ومالك
(٢) سورة الحشر آية (٧)
(٣) سورة آل عمران آية (٣١)
(٤) سورة النساء آية (٥٩)

ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه »[1] .

ومعنى قوله : « متكئ على أريكته » أى أن هذا القائل من أهل الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ، ولم يطلبوا العلم من مظانه . وهذه معجزة من معجزات النبى ﷺ ونبوءة صدقتها الأيام بظهور أصحاب الآراء التى طفت على سطح الحياة وقالوا مثل هذا القول ، وتهجموا على سنة رسول الله ﷺ .

ولايكمل بل ولايتحقق الإيمان لدى هؤلاء القائلين بهذا القول وغيرهم إلا باستجابتهم للحديث وأخذهم به وتحكيمه فى حياتهم وألا يجدوا غضاضة فى ذلك ، وأن يسلموا بما جاء به رسول الله ﷺ ، مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2]

❁❁❁

(١) رواه أبو داود ومعنى يعقبهم : يأخذ من أموالهم بقدر قراه.

(٢) سورة النساء آية (٦٥)

هداية المسلمين ليوم الجمعة

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا ، والنصارى بعد غد »(١)

الجمعة بضم الميم وقد تسكن ، اسم لليوم الكريم المبارك الذي هدى الله المسلمين إليه . ، وكان هذا اليوم يسمى فى الجاهلية (العروبة) بفتح العين وإنما سمى بالجمعة لأن خلق آدم عليه السلام جمع فى هذا اليوم ، وهذا أصح الأقوال ، وقيل ؛ سمى بذلك لاجتماع الأنصار مع أسعد بن زرارة فصلي بهم وذكرهم فسموه الجمعة لاجتماعهم به وقيل : لأن كمال الخلائق جمع فيه .

وقيل : لأن كعب بن لؤي كان يجمع قومه فيذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث منه نبى . وقيل : لأن قصيًا هو الذى كان يجمعهم . وجزم ابن حزم بأنه سمى بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه ، وقال : إنه اسم إسلامى لم يكن فى الجاهلية وإنما كان يسمى العروبة .

وليوم الجمعة خصوصيات كثيرة منها : مافيه من ساعة إجابة ، وتكفير الذنوب وأنه خير أيام الأسبوع ، وأنه يوم عيد ولايصام منفردا ، وقراءة «آلم تنزيل» و «هل أتى» فى صبيحتها و «الجمعة» والمنافقين فيها ، والغسل لها ، والطيب والسواك ولبس أحسن الثياب، والخطبة إلى غير ذلك من الخصوصيات والفضائل التى تميز بها هذا اليوم العظيم .

ومن الخصوصيات الدالة على فضل هذا اليوم ومكانته ماأخرجه الإمام مسلم

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى

– بسنده – عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» وقولهﷺ –فى شأن ساعة الإجابة يوم الجمعة إن فى الجمعة لساعة لايوافقها مسلم يسأل فيها خيرا إلا أعطاه إياه قال(١) : وهى ساعة خفيفة ، ودليل فرضية الجمعة قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

وهى فرض عين مستقل ، وليست بدلا عن الظهر ، ولكن لو فاتت الجمعة فعلى الإنسان أن يصلى الظهر أربعا ، فهى ليست ظهرا مقصورا وإن كان وقتها هو وقت الظهر بل هى صلاة مستقلة ، لما روى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : « صلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ » (٣)

واتفقت الأمة على فرضيتها ، فهى ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع وهذا الحديث الذى معنا يوضح مكانة الأمة الإسلامية ، وأنها سابقة للأمم فى الآخرة ، وإن كان وجودها فى الزمان آخر الأمم ، فهم الأولون منزلة وكرامة عند الله سبحانه وتعالى ، وهم أول من يحشر وأول من يحاسب وأول من يقضى بينهم وأول من يدخل الجنة ، وقيل أن المراد بالسبق فى قوله ﷺ «نحن الآخرون السابقون» هو إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل وهو يوم الجمعة .

وقيل : المراد بالسبق سبق الأمة الإسلامية إلى القبول والطاعة حيث سمعوا وأطاعوا على عكس أهل الكتاب الذين قالوا : سمعنا وعصينا . ونرجح الرأى الأول الذى يقول بالسبق فى المنزلة والقضاء بينهم يوم القيامة ، لحديث حذيفة – الذى رواه الإمام مسلم – ونحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق .

وتكون هذه الأمة يوم القيامة هى السابقة ، غير أن أهل الكتاب أوتوا التوراة والإنجيل

(١) رواه مسلم (٢) سورة الجمعة آية (٩)
(٣) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه بإسناد حسن

من قبل ، وأوتيت الأمة الإسلامية القرآن من بعدهم ، وأشار الحديث إلى يوم الجمعة ، وأن الله فرض على أهل الكتاب تعظيمه ، ولكنهم لم يهتدوا إليه ، قال ابن بطال : ليس المراد أن يوم الجمعة فرض عليهم بعينه فتركوه لأنه لايجوز لأحد أن يترك مافرض الله عليه وهو مؤمن ، وإنما يدل – والله أعلم – أنه فرض عليهم يوم من الجمعة ، وكل إلى اختيارهم ليقيموا فيه شريعتهم فاختلفوا فى أى أيام هو ولم يهتدوا ليوم الجمعة أ . هـ . ولو فرض عليهم هذا اليوم بعينه لقيل : فخالفوا بدل اختلفوا .

وقد تفضل الله تعالى على هذه الأمة بهدايتها ليوم الجمعة . ولكن كيف كانت هذه الهداية ؟ هل نص لهم على يوم الجمعة؟ أم هداهم إليه بالاجتهاد ؟ إن مما يشهد للقول بهدايتهم بالاجتهاد فيه ما رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح ، عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ ، وقبل أن تنزل الجمعة ، فقالت الأنصار: إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى كذلك ، فهلم فلنجعل يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلى ونشكره فجعلوه يوم العروبة واجتمعوا الى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ وأنزل الله تعالى بعد ذلك.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١)

وهذا وإن كان مرسلا فله شاهد بإسناد حسن أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وغيره . ويمكن الجمع بين الرأيين بأنه لا مانع أن تكون الهداية ليوم الجمعة قد حصلت بالطريقين بطريق البيان وبالتوفيق فى الاجتهاد ويكون الرسول ﷺ قد علم يوم الجمعة عن طريق الوحى وهو بمكة . ولذا فقد جمع بهم أول ماقدم المدينة ولم يتمكن من إقامتها وهو بمكة لأنه لم يكمل عددها وإما لأن من شعارها الإظهار وكان الرسول ﷺ بمكة يصلى مستخفيا فى بادىء أمر الدعوة .

والمراد بالغد فى قوله . «اليهود غدا» «هويوم السبت وبعد غد هو يوم الأحد» وإنما اختار اليهود يوم السبت ، لزعمهم أنه يوم فرغ الله تعالى فيه من خلق الخلق، قالوا فنحن

(١) سورة الجمعة آية (٩)

نستريح فيه عن العمل ونشتغل بالعبادة والشكر . والنصارى الأحد ، لأنه يوم بدأ الله فيه يخلق الخلق فاستحق التعظيم .

أما الأمة الإسلامية فقد هداها الله تعالى ليوم الجمعة : لأنه خلق فيه آدم عليه السلام . والإنسان إنما خلق للعبادة ، وهو اليوم الذى فرضه الله تعالى فلم يهدهم إليه وادخره لنا إلى غير ذلك من الخصائص التى تميز هذا اليوم والتى وردت بها الأحاديث الصحيحة...

❁❁❁

أولى الحقوق فى العلاقات الأسرية والإنسانية

الأسرة هى مدرسة الحياة الأولى التى فيها يتلقى الأبناء العادات والتقاليد .وفى ظلها تترعرع أخلاقهم ، وفى أحضانها تنمو عواطفهم لذا أحاطها الإسلام بعناية فائقة ، وأرسى الإسلام للأسرة أسس الحق والخير ووضح لها معالم الطريق وبين الحقوق والواجبات .

كما عنى الإسلام بالأبناء منذ طفولتهم إلى شبابهم حتى نهاية مرحلة الحياة ، ووجه الأبناء إلى رعايتهم وحسن معاملتهم وتنشئتهم ، فإنه عنى بالوصية بالآباء وأداء ما يجب نحوهم من عناية ردا لبعض الفضل الذى لهم على أبنائهم وعرفانا لهم بالجميل .

وتلك الحقوق والواجبات . تدور فى حلقة متصلة من سلسلة الحياة ، فأبناء اليوم هم آباء الغد . وآباء اليوم كانوا أبناء الأمس .. أما بالنسبة لحقوق الأبناء .. فإنها تأخذ مسارين.

الأول : جانب العطف والرحمة ، وللعطف على الأبناء أثر بالغ فى تنشئتهم وتفتح مداركهم شريطة ألا يفضى ذلك إلى التدليل المفرط الذى يؤثر على سلوكهم الجاد فى الحياة .

وعدم الرحمة والعطف على الأبناء ، ومعاملتهم بالقسوة والغلظة ، أو تعرضهم للجفوة من الآباء يعرضهم إلى إظلام نفوسهم وإطفاء شعلة الذكاء فى عقولهم ، ويغريهم بالعقوق والتمرد وربما بالغواية والفساد .

ومن أجل ذلك يؤكد الرسول ﷺ الوصية بالأبناء والعطف معهم والرحمة بهم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رأى الأقرع بن حابس النبى ﷺ يقبل ولده الحسن فقال : إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم . فقال عليه الصلاة والسلام : «من لا يرحم لايرحم» (١).

---

(١) رواه البخارى ومسلم

أما الجانب الثانى : فهو إحسان أدبهم وتنشئتهم النشأة الصالحة التى تقوم على أسس الدين الصحيحة ، بعيدا عن الترهات والأباطيل . بعيدا عن الخرافات والأساطير . فلا يملأ الآباء رءوس أبنائهم بالخرافات بغية تسليتهم أو تهدئتهم فى بعض الأحيان ، كما ينبغى فى جانب التربية ملاحظة التسوية بين الأبناء ذكورا وإناثا فلا يفضل الذكر على الأنثى . ولا يفضل بعض الذكور على بعض أو بعض الإناث على بعض .

فإن فى مثل هذه الحالات رد فعل سيىء يؤثر فى علاقات الأبناء بعد ذلك بعضهم مع بعض ، ويمزق وشائج الرحم والرحمة ، ويزرع فى نفوسهم الحقد والضغينة . ومن أهم ما يجب على الآباء أن يحرصوا عليه هو أن يسود جو الهدوء والسكينة والمودة فى الأسرة بحيث لا يتطاير شجار بين الأبوين أو الإخوة الكبار فيؤثر ذلك على سلوك الصغار ويجعلهم فى جو غائم متوتر .

وألايختلط الأبناء بذوى السلوك السيىء أو العادات المرذولة من أقرانهم لأن ذلك يؤثر على سلوكهم ، وتنتقل عدوى الخلق السيىء من الآخرين إليهم ، فكما جاء فى الحديث«مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير» (١) .

ومن أهم ماينبغى ملاحظته هو لزوم الآباء لأبنائهم ومراقبتهم لسلوكهم وتصرفاتهم ليوجهوهم أولا بأول .. وألا يترك الآباء أبناءهم تمتصهم تقاليد سيئة أو عادات قبيحة أو تيارات وافدة .، يكون مآلهم معها إلى الضياع .

وألا يعتمدوا على المدرسة وحدها فى توجيههم ، وألا يتركوهم إلى الخدم ويهملوا شئونهم ، فلقد جاء فى الحديث الأمر بلزوم الأبناء وحسن أدبهم . عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أكرمواأولادكم وأحسنوا أدبهم» (٢) .

تلك هى مسئولية الآباء وواجباتهم تجاه الأبناء ، وتلك هى حقوق الأبناء على آبائهم وهى تأتى فى مقدمة الحقوق الأخرى الحسية والمادية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه ابن ماجه

وخلافه ، بل إنها ألزم وآكد منها ، لأن بتلك الآداب والتربية تقوم النفس وتصلح الروح، والإنسان بنفسه قبل جسمه إنسان .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وتربية الأبناء وتنشئتهم على الحق والهدى أثمن وأغلى مايورثه لهم آباؤهم بل إن ذلك أبقى وأنفع لهم من المال الزائل الذى قد يكون سببا من أسباب الفساد ، يقول الإمام على رضى الله عنه : «ثلاثة هى أفضل مايورثه الأباء الأبناء : الثناء الحسن والأدب الصالح، والإخوان الثقات» هذا فيما يتعلق بحقوق الأبناء على آبائهم .

أما حقوق الآباء على أبنائهم فإن الناس لا يحتاجون إلى من يعرفهم بمكانة الوالدين وبما يجب نحوهما من البر ، فحسبهم أن يلتفتوا إلى ماضى نشأتهم وما مروا به من أطوار متعددة ليتذكروا لأمهاتهم حملهن لهم وهنا على وهن ، وما قاسين فى سبيلهم من حملهن كرها ، والوضع كرها ، والسهر على مصالحهم ، وبذل الراحة والسعاددة فى سبيل راحة الأبناء وسعادتهم .

إنها التضحية الصامتة والبذل الذى لا نظير له فى دنيا الناس . لذا كان تأكيد الإسلام فى الوصية بالوالدين لا يحتاج بعد الى بيان . حيث دعا إلى الإحسان بالوالدين بعد الأمر بعبادته مباشرة : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (١) وقرن الله تعالى طلب الشكر له بالشكر للوالدين : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢)

وذكر القرآن الكريم الأبناء بمرحلة هامة تعتبر فرصة لرد بعض الجميل ، وتلك الفرصة إن أفلتت أفلت الخير كله . وهى عندما يبلغ الآباء الكبر . وتأتى وصايا القرآن فى هذا الصدد موضحة ومؤكدة ما يجب للآباء من البر بجميع صنوفه من القول الكريم . والفعل العظيم . والتواضع الجم . والرحمة الوافرة . ثم بعد بذل كل مايمكن بذله يقرر القرآن حقيقة واقعة لا مجال لجحودها وإنكارها ، وهى أن الإنسان مهما بذل وضحى لا

---

(١) سورة النساء آية (٣٦) (٢) سورة لقمان آية (١٤)

يوفهما حقهما ، وعندئذ يكل ذلك إلى الله داعيا إياه مرددا ملء قلبه فيه ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [1]

إن برهما أعظم جهاد فى الوجود ، لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه فى الجهاد . فقال له الرسول ﷺ : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد [2] .

وجاءه رجل فسأله هل بقي من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما [3] - ومعنى الصلاة عليهما أى الدعاء لهما -

إن تنكر الأبناء لفضل آبائهم عقوق من أكبر الكبائر ، وجريمة من أشد الجرائم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل الى النبى ﷺ فقال: يارسول الله إن أبى أخذ مالى : فقال النبى ﷺ للرجل : فأتنى بأبيك ، فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله فى نفسه ماسمعته أذناه ، فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ : مابال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله فقال له: يارسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى؟ فقال له رسول الله ﷺ إيه دعنا من هذا . أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ماسمعته إذناك فقال الشيخ : والله يارسول الله مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت فى نفسى شيئا ماسمعته أذناى . قال : «قل وأنا أسمع» قال:

غـذوتك مولـودا وعلتـك يـافعـا ... تعل بمـا أجنـى عليـك وتنهـل
إذا ليلـة ضاقتـك بالسـقم لم أبت ... لسـقمك إلا سـاهـرا أتملمـل
كـأنى أنا المطـروق دونـك بالـذى ... طـرقـت بـه دونـى فعينـى تهمـل
تخـاف الـردى نفسـى عليـك وإنها ... لتعلـم أن المـوت وقـت مؤجـل
فلما بلغـت السـن والغايـة التـى ... إليهـا مـدى ماكـنت فيـك أؤمـل

(١) سورة الإسراء آية (٢٤)
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه

جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المعاقب يفعل
فأوليتنى حق الجوار ولم تكن علىَّ بمال دون مالك تبخل

فقال الرسول ﷺ للولد : أنت ومالك لأبيك [1] .

إن حقوق الآباء فى أعناق أبنائهم واجبة الأداء ولا يمكن للأبناء أن يفوا آباءهم حقهم مهما فعلوا أو بذلوا . ومهما ضحوا وقدموا . فكيف بأولئك العاقين الشاردين عن طريق الحق ، البعيدين عن الجادة ، العاقين لآبائهم لقد ضلوا ضلالا مبينا . وخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

فما أحوج المجتمعات البشرية إلى الوقوف على مبادىء الإسلام القوية التى تشد من عزم الأسرة المسلمة أفرادا وجماعات ، أبناء وآباء ، إنها عندما تتمسك بتلك المبادىء مستجيبة لمناشدة الإسلام لها ستفوز برضوان من الله أكبر . وذلك هو الفوز العظيم .

❁❁❁

(١) رواه البيهقى والطبرانى

التهجد

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتجهد قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا أنت ، أو لا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» (١)

فى هذا الحديث الشريف توضيح لما كان عليه رسول الله ﷺعندما يقوم فى الليل ليتهجد ، وما كان يقوله، ويدعو به ربه سبحانه وتعالى وعن التهجد تحدث القرآن الكريم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (٢)

ومعنى نافلة قيل : إنه نسخ عند التهجد المفروضة خصصت بها من بين أمتك . وصحح النووى : أنه نسخ عنه التهجد، كما نسخ عن أمته ، أو المعنى فضيلة فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن العلماء من قال : بأن صلاة الليل كانت فريضة على الرسول ﷺ وكانت تطوعا لغيره ، ومن العلماء من قال بأن صلاة الليل واجبة ثم نسخت فصارت تطوعا .

وقيام الليل مندوب وسنة مؤكدة ، ويكره قيام الليل كله لقول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : «بلغنى أنك تقوم الليل ؟ قلت : نعم . قال : لكنى أصلى وأنام من رغب عن سنتى فليس منى » (٣) .

(١) رواه البخارى (٢) سورة الإسراء آية (٧٩)

(٣) رواه البخارى ومسلم

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء أول مايقوم إلى الصلاة ويخلص الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ويقر بوعده ووعيده .

وقد كرر صلوات الله وسلامه عليه الحمد لله تعالى ، ليناط به كل مرة معنى آخر فآلاء الله ونعمه وتوفيقه لايحصى ، وليكون فى هذا تعليم لأمته أن يحمدوا ربهم وأن يشكروه كثيرا ، لأن الشكر عبادة ولأنه طريق لزيادة النعمة . قال سبحانه ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(١)

وقال جل شأنه ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(٢)

وخص نفسه بعد النبيين بالذكر ، لأنه نظر إلى ما اختصه الله به من بين النبيين بمزايا عظيمة فعطف نفسه عليهم إيذانا بالتقارير ، وأنه فائق عليهم بأوصاف مختصة به.

وطلب المغفرة لما قدم وما أخر وماأسر وما أعلن ، إنما قاله تواضعا وإجلالا لله سبحانه وتعالى وتعليما لأمته .

ومما يؤخذ من الحديث :

فضيلة قيام الليل ، واستجابة الدعاء عند التهجد بدعاء رسول الله - ﷺ - هذا .

وقال الكرمانى : هذا الحديث من جوامع الكلم إذ لفظ القيم إشارة إلى أن وجود الجوهر وقوامه منه ، والنور إلى أن الأعراض منه ، والملك لما أنه حاكم فيها إيجادا وإعداما يفعل مايشاء ، وكل هذه القيم نعم من الله تعالى على عباده فلهذا قرن كلا منها بالحمد وخص الحمد به ثم قوله «أنت الحق» إشارة إلى المبدأ والإيمان بالله والتوكل عليه والإنابة إليه ، والتضرع له فى كل حين وخاصة فى وقت الليل وعند التهجد واستغفار الله سبحانه.

ومعرفة الرسول ﷺ بعظمة ربه ومدوامته على الذكر والدعاء والثناء على الله تعالى بما هو أهله ، والاعتراف بحق الله والإقرار بصدق وعده ووعيده . واستحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل دعاء وطلب الاقتداء به ﷺ .

(١) سورة إبراهيم آية (٣٤)   (٢) سورة إبراهيم آية (٧)

الاستخارة

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وآجله فاقدره ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به ، قال : ويسمى حاجته »(1) .

للهدى النبوي الكريم أبعاده الواسعة ، وظلاله الوارفة ، التى تشتمل على رأفة الرسول ﷺ ورحمته وحبه لأمته ، حيث يوجهها إلى ماينفعها وما يكون فيه الخير لها فى الدنيا وفى الآخرة . وهناك أمور كثيرة لا يستطيع الإنسان أن يجزم فيها بمعرفة وجه الصواب . ومن هنا شرعت صلاة الاستخارة وشرع دعاؤها ، أما ما كان معروفا بأنه خير كالعبادات مثلا وصنائع الخير والمعروف فلا تحتاج إلى الاستخارة ، إلا إذا كانت العبادة كالحج فتكون الاستخارة بالنسبة لوقتها المخصوص ، أيكون فى هذا العام ، لاحتمال عدو أو فتنة أو نحو ذلك .

واهتماما بشأن صلاة الاستخارة ودعائها ، فقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه إياها كما يعلمهم السورة من القرآن ، وقد وضح لهم أنه إذا قصد أحدهم أمرا من الأمور أن يصلى ركعتين من غير الفريضة فلا تحصل الاستخارة بوقوع الدعاء بعد صلاة الفريضة .

---

(1) رواه البخارى

ثم بعد الصلاة يدعو بالدعاء الوارد فى الحديث .

وفى الدعاء طلب من الله تعالى بأن يبين للعبد ما هو خيرا له ، وطلب بأن يجعل للعبد قدرة على الأمر الذى يقدم عليه فإن الله تعالى : هو العالم بما فيه الخير القادر على كل شىء ، وأن العبد يسأل ربه الخالق الرزاق القادر المقتدر من فضله العظيم ، وكل عطاء الله سبحانه وتعالى وهو وحده القادر وهو وحده علام الغيوب .

واشتمل دعاء الاستخارة على أربعة أمور يكون الخير فيها ، ويطلب العبد الخير فيها وهى : « الخير فى الدين ، وهذا يكون بتوفيق الله له وتيسيره للعمل الصالح ، وألا يكون الأمر الذى يقدم عليه ضارا بدينه .

ثم الخير فى الدنيا ، ثم الخير فى عاجل الأمر ، ثم «آجلــــه » . ومن دعاء النبى ﷺ « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير والموت راحة لى من كل شر إنك على كل شىء قدير » (١)

ثم يطلب العبد فى الدعاء أن يبارك الله له ، وذلك بدوام الخير ومضاعفته ، وأما إذا كان فيه الشر :« فاصرفه عنى واصرفنى عنه » ولم يكتف بصرفه عنه وانما يطلب أن يصرف الإنسان عنه ، فلم يكتف بصرف أحد الأمرين لأنه قد يصرف الله عن المستخير ذلك الأمر ولا يصرف قلب العبد عنه بل يبقى متطلعا متشوقا إلى حصوله فلا يطيب له خاطر ، فإذا صرف كل منهما عن الآخر كان ذلك أكمل ، ولذلك قاله فى آخر الدعاء .

ومما يؤخذ من الحديث :

شفقة الرسول ﷺ وحبه لأمته وتعليمه لها ، واستحباب صلاة الاستخارة والدعاء المأثور بعدها عند الإقدام على فعل شىء .

وأن السنة فى الاستخارة أن تكون ركعتين فلا تجزىء ركعة واحدة ، وإذا زاد وصلى أربع ركعات فلا تضر الزيادة لقوله فى حديث أبى أيوب : « ثم صل ما كتب الله لك »

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى

ويجب على المؤمن رد الأمور كلها لله وحده ، فهو الذى بيده ملكوت السموات والأرض وهو على كل شيء قدير .

وقد يستدل لتكرار الاستخارة بأن النبى ﷺ كان إذا دعا ، دعا ثلاثا . وقال النووى : « أنه يستحب أن يقرأ فى ركعتى الاستخارة فى الأولى بعد الفاتحة **«ياأيها الكافرون»** وفى الثانية **«قل هو الله أحد»** .

لكن قال الشيخ زين الدين – رحمه الله – « لم أجد فى شيء من طرق أحاديث الاستخارة تعيين ما يقرأ فيها ... »

❀❀❀

أهمية القدوة فى بناء الفرد والمجتمع

إن المسلم فى بناء شخصيته لا يبدؤها من فراغ ، كما أنه لم يقم أساسها الأول على فراغ ، وإنما يقيمه على العقيدة الصحيحة المتمثلة فى الإيمان بالله ، فكذلك فى تكوين شخصيته الإسلامية . إنما يبدؤها سلوكا وتطبيقا من الكتاب والسنة متخذا أسوته الحسنة من الرسول ﷺ .. المبلغ عن ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١) الواجب على المسلم أن يتبع رسوله ﷺ اقتداء واهتداء قال الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢)

ولقد ذكر القرآن الكريم الصفات الأساسية التى تكون صورة واضحة الملامح لشخصية المؤمن كما أرادها الله سبحانه وتعالى ، وهى الصورة التى تمثلها رسول الله ﷺ ، لأن خلقه القرآن ولأن الله تعالى قد أدبه فأحسن تأديبه .

أخرج النسائى أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرأن ثم قرأت :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة النجم آية (٣ ، ٤) (٢) سورة الأحزاب آية (٢١)

(٣) سورة المؤمنون الآيات (١ – ٩)

وقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ[1]. تلك هى سمات الشخصية الإسلامية تأتى على نمتها صفة الخشوع فى الصلاة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ فالخاشع فى صلاته يكون ساكن الجوارح لايتحرك ولايلتفت ، ناظرا إلى موضع سجوده متصل القلب بالله ، وقد روى أن الرسول ﷺ رأى رجلا يعبث بلحيته فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . وهذه الصفة تفيد حسن العلاقة مع الله تعالى بالخشوع فى الصلاة ، والصفة الثانية : هى الإعراض عن اللغو قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وذلك لأنهم مشتغلون بالجد والاجتهاد ومنصرفون للعمل والعبادة، وبهاتين الصفتين يكون قد جمع القرآن من تلك الصفات بين العمل والترك ، وهما قاعدتا بناء التكليف ، ثم يجمع القرآن بين العبادة البدنية التى تمثلت فى الصلاة وبين العبادة المالية بأداء الزكاة التى تعنى التكافل الاجتماعى وسد حاجة المحتاجين والعاجزين ، وبهذا تكون تلك الصفات قد وثقت ثقة المسلم بربه وصلته بمجتمعه ، وجمعت بين العبادة البدنية والعبادة المالية .

ثم تأتى صفة العفة والطهارة ووقاية البيت الزوجى وحفظ الأسرة والمجتمع من التواحل فى الفاحشة ، لأن صيانة العرض والتجمل بالعفاف سمة المؤمنين المفلحين ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أما ماتستقيم به حياة المجتمع الإنسانى فذلك بإرساء أسس الأمن والطمأنينة والثقة والاستقرار : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ كما بدأت سمات الشخصية الإسلامية بالصلاة فقد ختمت بها ؛ لبيان أهمية هذه الفريضة ومكانتها العظيمة فى الإسلام ، وليظل المسلم بخشوعه فيها ومحافظته عليها موصولا بربه، وتجلى آيات القرآن الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ ملوحة إلى نماذج من الذين معه مركزة على أهم سماتهم التى تشرق بها وجوههم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[2]

---

(١) رواه النسائى

(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

ومن تتبع الأسوة الحسنة من شخصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه * يطالعنا القرآن الكريم برأفة رسول الله ﷺ ورحمته قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2] . إن عظمته تشرق في كل جوانب الحياة في جوده وفي سعة صدره وفي صدقه وأمانته وتبليغه وفطانته وفي لينه ووفائه وفي مهابته وحسن معاشرته . يقول الإمام على كرم الله وجهه « كان رسول الله ﷺ أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه مرة أحبه ، يقول ناعته : « لم أر قبله ولابعده مثله » « وماسئل عن شيء قط إلا أعطاه »[3] .

ويروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أحسن الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس »[4] . ويجمل القرآن عظمة خلقه في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[5] فإذا تتبعنا أنماط الأسوة الحسنة لنتخذ منها منهجاً ونبراساً في بناء الشخصية فإننا سنقف أمام عظمة هائلة ومثاليات فذة من حياة رسولنا عليه الصلاة والسلام وكلها تتسم بالحق والخير ، والسمو والاعتدال ، ففي جانب السرور أو الحزن وفي المشاعر الظاهرة أو الوجدانية كان صلوات الله وسلامه عليه يتسم بضبط النفس ، فيما يسر أو يحزن فإذا فرح بما يسر ابتسم وإذا ضحك لم يقهقه . عن جابر بن سمرة « وكان لايضحك إلا تبسما »[6] وإذا تعرض لما يحزنه طوى الحزن في داخله ، وكظم الغيظ ، وإذا زاد حزنه لايخرجه عن طبيعته ، الطيبة الكريمة ، عن أنس رضى الله عنه قال : « دخلنا مع النبي ﷺ على ولده إبراهيم عليه السلام وهو يجود بنفسه أي يحتضر ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال عبد الرحمن بن عوف : وأنت يارسول الله ، فقال : ياابن عوف إنها رحمة . ثم أتبعها بأخرى فقال : إن العين تدمع والقلب يحزن ولانقول إلا مايرضى ربنا وإنك لفراقك ياإبراهيم لمحزونون[7] .

(١) سورة التوبة آية (١٢٨)
(٢) سورة الأنبياء آية (١٠٧)
(٣) رواه الترمذى
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) سورة القلم آية (٤)
(٦) رواه الترمذى
(٧) رواه البخارى

وفى جانب حياته المنزلية وشئون المعيشة مع الأهل كان المتعاون البار بحيث لاتشغله عن عبادة ربه ، سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، ماكان النبى ﷺ يصنع فى البيت قالت : كان فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة [1] . وبهذا نرى أن أثر الأسوة فى بناء الشخصية يمد الحياة بضوء كاشف لتمضى على رشد وهدى ، فلا تحيد يمينه أو يساره ولاتتعثر خطاها فى الدروب المعتمة ، وإنما تتجمع خطوطها العريضة من جميع زوايا الحياة عبادة وعملا لتلتقى عن هدف واحد وملتقى ثابت حيث تتمحض الأعمال كلها وتخلص فى اتجاهها لله رب العالمين .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [2]

***

(١) رواه أحمد والبخارى والترمذى

(٢) سورة الأنعام آية (١٦٢ ، ١٦٣)

منزلة السنة النبوية فى الإسلام

السنة هى الأصل الثانى من أصول الإسلام ، أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى يومنا هذا إلا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم ، فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها ، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[1] كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ماأنزل إليه قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[2]

فهو إذاً قد مهد لرسوله طريق الدعوة ، وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس مايأتى :

أولا : وجوب طاعة الرسول ﷺ .

ثانيا : أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى .

وهذان الأمران متلازمان فى إثبات حجة السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله ﷺ لأنه بين للناس ما أنزل إليهم . قال الشاطبى : «فإذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما أراد بكلامه وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه ، ولو عمل على مخالفة البيان صار عمله على خلاف ماأراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه .

---

(١) سورة النجم (٣ - ٥)   (٢) سورة المائدة آية (٦٧)

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين ، وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين للناس مانزل إليهم :

أولا – وجوب طاعة الرسول ﷺ :

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على وجوه تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم ، فمنهم اليهودى الذى يحتاج إلى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج إلى أسلوب التهديد والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق ، وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما :

١ – فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول بالأمر والإيمان وبالرسل » وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ (٢)

فالأمر بالإيمان بالرسل مع الإيمان بالله لايكون إلا إذا كان مع الإيمان تصديق لما يبلغه الرسول عن الله وإذعان وطاعة لهديهم ، وعلى هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يوجب الإيمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالإيمان بهم .

٢ – ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالإيمان به مع الأمر بالإيمان بالله سبحانه قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ (٣)

وقال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء آية (١٧١)
(٢) سورة آل عمران آية (١٧٩)
(٣) سورة النساء اية (١٣٦)
(٤) سورة التغابن آية (٨)

وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه ﷺ فنص على الإيمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عناية ، ويفهم من ذلك الأمر بطاعته ، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : «وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك وتعالى :

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ (١)

وقال ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ (٢)

فجعل كمال ابتداء الإيمان الذى ماسواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله » أ . هـ .

٣ – كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بإيجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

فطاعة الرسل إذاً هى الهدف من إرسالهم ، ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام ، فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة ، لذا كانت طاعته آكد وألزم .

٤ – إقران الأمر بطاعة الرسول بطاعة الله قال تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (٥)

---

(١) سورة النساء آية (١٧١)
(٢) سورة النور آية (٦٢)
(٣) سورة النساء آية (٦٤)
(٤) سورة آل عمران آية (٣٢)
(٥) سورة النساء آية (٥٩)

والناظر إلى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء فيه الأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما ، أو بطريق العطف بها مع إعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل مايصدر عن الرسول ﷺ ، ومنها ماجاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل الأول كقوله تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١)

بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر .

وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه قرآنا كان أوسنة فطاعة الرسول إذا واجبة فى كل مايأتى سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه .

٥ - أمر الله بطاعة الرسول على الإنفراد قال الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٤)

ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه ، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ماأنزل إليهم ، وحيث كان كذلك يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع بهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن

---

(١) سورة النساء آية (٥٩)
(٢) سورة النساء آية (٦٥)
(٣) سورة النور آية (٥٦)
(٤) سورة الحشر آية (٧)

فهو إذاً كان يطبق لهم الأحكام من حلال وحرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله إليه

﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(١)

ولقد حث الله على الاستجابة لما يدعو إليه الرسول ﷺ فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾(٢)

ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أوأمره تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(٣)

وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون مايفعل ويتركون مايترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول إلا إذا كان هناك أمرا غريبا عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول ومثل هذا إنما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الإسلام .

وإذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ فإنه أيضا يجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي »(٤)

---

(١) سورة الأعراف آية (١٥٧)

(٢) سورة الأنفال آية (٢٤)

(٣) سورة الأحزاب آية (٣٦)

(٤) رواه مسلم

وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولابصحابته دون غيرهم ، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهى اتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته ، لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم .

ثانيا – منزلة السنة من القرآن وبيانها له :

تبين من البحث أن طاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذى أمرهم باتباع النبى وطاعته وذلك لأن للرسول ﷺ مهمة هى التبليغ وبيان مافى القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك ، فرسالته ليست قاصرة على التبليغ وإنما لابد مع التبليغ من البيان وهو الأمر الثانى فى إثبات حجية السنة .

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ولم يفرع عليها إلا بالقدر الذى يتفق مع تلك الأصول ، ويكون ثابتا بثبوتها لايعتريه تغير أو تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الزمن ، لأنه الكتاب الخالد الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والأخلاق ، فكان تبيانا لكل شئ ، وجاءت السنة الشريفة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات ففسرت مبهمه وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه ، كما أتت السنة كذلك بأحكام لم ترد فى القرآن نص عليها وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما فى القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن الكريم « وأيضا فإن السنة إما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه فإن كانت بيانا فهى فى الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين فإن النص الأصلى أساس ، والتفسير بناء عليه ، وإن كانت زيادة فهى غير معتبرة إلا بعد أن توجد فى الكتاب ، وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب » وكل ماجاء فى السنة النبوية على لسان الرسول ﷺ إنما يتبع مايوحى إليه لقوله تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (١)

(١) سورة الأنعام آية (٥٠)

ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له ، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى :﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(١)

وقال ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٢)

إذاً فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس مانزل إليهم لايصدر في بيانه من تلقاء نفسه وإنما يتبع مايوحى إليه ، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب ليشرح ماجاء فيه ، ويظهر المراد منه فقال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(٣)

❁❁❁

---

(١) سورة النساء آية (٨٠)

(٢) سورة الحشر آية (٧)

(٣) سورة النحل آية (٤٤)

دعوة الإسلام إلى حقوق الإنسان

اشتملت الشريعة الإسلامية على كل مافيه سعادة البشرية فى الدنيا والآخرة ، واستوفت بتعاليمها السمحة ، وقوانينها الثابتة المحكمة ، كل مايكفل للفرد والجماعة حياة طيبة فى الدنيا ، ومثوبة عظيمة فى الآخرة ، قال الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)

وكان للشريعة الإسلامية فضلها الذى لاينكر حتى من أعداء الإسلام فى ترسيخ دعائم الحق ونشر قوانين العدالة التى أنقذت الإنسانية المعذبة من مخالب الجهالة والضلالة ، وأخذت بيد الضعيف ورفعت من قيمة البسطاء العاديين والفقراء والكادحين وكل فئات النوع الإنسانى التى كادت تجرفها تيارات الضياع والهلاك وهى معزولة وضعيفة لاتملك من أمرها شيئاً ، وكان للشريعة فضلها الذى لاينكر فى نظرتها الحانية إلى الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى والأرقاء والخدم وأصحاب المهن البسيطة والحرف العادية ، فجعلت الشريعة لهم فى صفوف الحياة الكريمة مكاناً واضحاً ووضعاً لايغبنون فيه .. كل ذلك قبل أن تَعْرفَ المواثيقُ الدولية حقوقَ الإنسان بأربعة عشر قرناً . وكان للشريعة فضلُها فى إعطاء المرأة حقها بعد أن كانت لاحق لها ، بل كانت محرومةً من كل الحقوق حتى من حق الحياة نفسها إذ كانت توأدُ وهى طفلة صغيرة .. إلى غير ذلك من الحقوق التى لاتُحصى ، فى شتى المجالات ، ولسائر فئات الناس من رجل أو امرأة ومن حرٍّ أو عبد ومن غنى أو فقير ومن أفراد أو جماعات ومن أمم أو شعوب . لقد كفلت الشريعة الإسلامية لبنى الإنسان الكرامة والعزة يتمتع بها المؤمنون السائرون على هديها قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

(١) سورة النحل آية (٩٧)

(٢) المنافقون آية (٨)

وأقامت شريعة الحق بناء دعوتها ، وجميع ماطبعها من حقوق للإنسان على أساس الإيمان بالله تعالى وحده لاشريك له ، وهنا نقف على عظمة الشريعة الإسلامية وحكمتها وعلى قوة تنفيذ هذه الحقوق من الحاكم ومن المحكوم ، ومن الرئيس والمرؤوس ومن الغنى والفقير وهكذا .. فإذا كان الإيمان هو القاعدة التى تنطلق منها دعوات المصلحين والنداء بحقوق الإنسان تشريعاً وتطبيقاً فإن للإيمان أثره فى الالتزام بتحقيق العدل والخير ، وبسرعة الطاعة فى كل أمر وتنفيذ كل حق من الحقوق ، ويظهر جانب الالتزام بتنفيذ كل الحقوق على هدى من الكتاب والسنة وطاعة لله ولرسوله ..

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾(١)

وبين الله تعالى أن فى تنفيذ ماأمر به وفى طاعة رسوله ﷺ الرحمة للإنسان قال سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾(٣)

وهنا نرى الفارق الكبير بين دعوة الشريعة إلى حقوق الإنسان ، وبين الدعوات الأخرى التى تنادى بها المواثيق الدولية ، فإن الدعوة إلى حقوق الإنسان فى رحاب الشريعة نابعة من الإيمان ، صادرة عن العقيدة الإسلامية التى يلتزم أمامها الإنسان المسلم ، ويرى ضرورة العمل والتطبيق وتنفيذ الحقوق بأسرع مايكون ، ففى تنفيذها الأمن وفى تطبيقها الرحمة .. وفى البعد عنها والنكوص عما تنادى به بعد عن حقيقة الإيمان ووقوع فى الخسران ، فثمرة حقوق الإنسان ، فى رحاب الإيمان ، أنها مأمونة الجوانب لاخوف عليها من أحد ، لأن المسلمين يصدرون عن عقيدة وراءها حساب – ثواب أو عقاب – بخلاف غيرهم ، وأما الجانب الثانى : الذى يلتزم فيه بتطبيق وتحقيق حقوق الإنسان ، انطلاقاً من

(١) سورة النساء آية (٥٩) (٢) سورة النور آية (٥٦)
(٣) سورة الحشر آية (٧)

الإيمان فهو جانب المراقبة ، وهذا ليس موجوداً إلا فى الإسلام ، ويظهر أثر ذلك فى سرعة إعطاء كل ذى حق حقه ، وعدم الجور على حقوق الآخرين ، فالإنسان إذا حدثته نفسه أن يسطو على مال الغير أو حياته أو عرضه أو حريته أو أن يسلبه حقاً ما من الحقوق فإن عنصر المراقبة يوقظ فى أعماقه الضمير الدينى ، الذى يجعله يدرك خطورة مايقع فيه ومدى عاقبة الجرم الذى يرتكبه فإنه يؤمن بأن الله مطلع يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ويعلم ماتبدون وماتكتمون ..

وكما رأينا بأن الإيمان هو الأساس الأصيل ومنه يكون الالتزام بأداء الحقوق ومراقبة الله السميع البصير فيها ، فإن فى الشريعة الإسلامية تطبيقات لحقوق الإنسان واجبة الأداء كالزكاة وصلة الرحم وإكرام الجار وحسن معاملته وإعطاء كل ذى حق حقه . فى البيع والشراء ، وفى العمل وفى الشركة وفى الإجارة ، وغير ذلك من المعاملات التى استوفاها الفقه الإسلامى بأبوابه وفصوله .

ثم كان فى الجانب الأخلاقى استثمار لهذه الحقوق وسمو بها إلى المثالية العالية حيث لايكتفى الإنسان بالقيام بالواجب فحسب بل إن هناك جوانب نادى بها الإسلام ارتفاعاً بحقوق الإنسان وشمولاً لكل مناحى الحياة وجوانبها المختلفة وعلاقاتها المتعددة .

وتحقيقاً للأمان لهذه الحقوق نجد فى الحدود الإسلامية مايحفظ للإنسان حقه فى الحياة وفى المال وفى العرض وفى الحرية والمساواة والعمل والشورى والكرامة وماإلى ذلك من الحقوق التى كفلها الإسلام وحافظ عليها ودعا لها .

ففى الاعتداء على حق « الحياة » تكون العقوبة من جنس الجريمة قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٨ ، ١٧٩)

وبالنسبة لحق الإنسان فى الأمن نجد الشريعة قد جعلت للاعتداء على هذا الحق حداً هو حد الحرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡىٞ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١)

وبالنسبة لحق المال نجد الشريعة قد جعلت عقوبة الاعتداء على هذا الحق ماوضحه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾(٢)

وعن حق النسل أو العرض ، نرى عقوبة ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾(٣)

وبالنسبة للمحصن الرجم وهكذا .. إلى آخر الحدود والعقوبات التى جاءت فى الشريعة الإسلامية ولانجد لها مثيلا فى أى قانون من القوانين الوضعية .

إنها حدود وعقوبات عادلة تقوم بحفظ حقوق الإنسان ورعايتها وصيانتها من التعرض لها . إنها تصون حقوق الإنسان فى حياته ونفسه وفى ماله ونسبه وعرضه ، وهكذا نرى فى شريعة الله المحافظة على حقوق الإنسان واستتباب الأمن والطمأنينة فى الحياة على شتى مجالاتها ، ومما سبق يتضح أن الشريعة الإسلامية ، قد استوفت كل الحقوق بعقيدتها الصحيحة التى هى أساس العبادة والعمل والأحكام والأخلاق ، وبتشريعاتها ومبادئها المستقيمة ، التى تصون حقوق الإنسان وتحافظ عليها وتدعو لها على هدى وبصيرة . إنها الشريعة التامة الكاملة التى أكملها الله وأتم بها النعمة قال سبحانه :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾(٤)

---

(١) سورة المائدة آية (٣٣ ، ٣٤)
(٢) سورة المائدة آية (٣٨)
سورة النور آية (٢)
(٤) سورة المائدة آية (٣)

وقال رسول الله ﷺ : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى »[1]

وبهذا التشريع الربانى المحكم ، والوحى الإلهى صان الإسلام حقوق الإنسان ، ونادى بتطبيقها وشرع الحدود عقوبة للمعتدين عليها والمقتحمين حماها بغير حق ، وبهذا أعطى الإنسان حقه فى الحياة الكريمة بعد حقبة من الزمن عاشها الإنسان يرسف فى أغلال الظلم والاستعباد حتى جاء الإسلام ففك هذه الأغلال وحرره وكرمه وجعل حياة المجتمع الإسلامى تشرق بالتوحيد الخالص الذى لاشرك فيه وبالعدالة الكاملة التى لاظلم معها ، وأحلّ الإسلام الكرامة محل الاستذلال والمساواة محل التفرقة والعلم محل الجهل والحرية بدل الاستعباد والتعارف والتآلف بدل التناكر والاختلاف والعمل بدل البطالة والشورى بدل الاستبداد بالرأى والإيثار بدل الأنانية والحق بدل الباطل ، وأكدّ الإسلام على حرمات المسلمين .

فلقد جاء فى خطبة رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، قوله : « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[2] . ويدعم القرآن أصول الحق وركائز الإيمان ، منادياً بالأصول الأساسية لحقوق الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3]

وإن حماية الإسلام لحقوق الإنسان تستوجب على المسلمين فى كل الأرض أن يصونوا هذه الحقوق ، ففى صيانة المسلم لحق غيره صيانة لحقه ، وفى إهماله لحق غيره إهمال لحقه .. وإنها لتستوجب على كل مَن ولى أمراً أن يرفق بعباد الله دون تضييع للحق ودون إهمال ، وألا يشق على أحد ، فقد قال ﷺ : « اللهم مَن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه »[4] .

وهو بهذا يقضى على كل أمراض التعتيم الروتينى ، والتعقيد الوظيفى ، أو مايسمى بالبيروقراطية ..

وفق الله المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية إلى مافيه الخير والرشد والصلاح ،،،

---

(١) رواه الحاكم
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) سورة النساء آية (٥٨)
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد

تحريم أكل أموال الناس بالباطل

لقد حرّم الإسلام كل نوع من المعاملات فيه أكل لأموال الناس بالباطل ، أو هضم لحقوقهم ، حفاظاً على حقوق الناس ، وصيانة للمعاملات من أن تتسرب إليها دواعى الظلم والقسوة ، التى تتنافى مع روح الرحمة والتعاون ، التى جاء بها الإسلام وحثّ أتباعه عليها فى العديد من المواقف والتعاليم ، وإن أنواع الظلم والاعتداء على أموال الناس وحقوقهم لتأخذ صوراً كثيرة ، وأشكالاً مختلفة ، فمنها السرقة والغش وتطفيف الكيل والميزان ، ومنها مايأخذ صورة استغلال حاجة الإنسان كالربا أو صورة استغلال النفوذ كالرشوة ، ومنها غير ذلك من المعاملات التى تتسم بالباطل ، والاعتداء على حقوق الناس ، وظلمهم ، وقد جاء النهى عاماً لكل مافيه أكل لأموال الناس بالباطل ، فقال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1]

أما (الربا) فهو تعامل بعيد عن روح الإسلام ؛ بعيد عن كل مبدأ إنسانى ، بعيد عن العدل والأمانة والتعاون والتكافل ، إنه صورة من العدوان على حقوق الناس واستغلال حاجتهم لأكل أموالهم بغير حق . فمن احتاج إلى قرض من أخيه فاستغل حاجته وزاد عليه فهو ربا ، والقاعدة فى ذلك : أن كل قرض جرّ نفعاً فهو رباً .. وكان السلف رضوان الله عليهم يدركون خطر الربا وشدة تحريمه ، لدرجة أن الواحد منهم ، كان يتحرج من أن يستظل بظل شجرة المقترض أو حائطه .

---

(١) سورة النساء آية (٢٩ ، ٣٠)

وقد حارب الإسلام الربا وتوعد بالحرب آكليه ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١)

والذين يأكلون الربا ، ويمارون فيه ، رغبة فى تحليل ماحرم الله ، فحالتهم كحالة المجنون الذى يتخبطه الشيطان من المس فهو يتخبطه بجسمه ، غير مستقر ولا ثابت ، وهكذا حال من يتخبط فى تفكيره محاولاً تحليل ماحرمه الله ، ويحاول تحليل الربا ، لأن البيع حلال ، فقال : إن البيع مثل الربا . فأنكر الله تعالى هذا التخبط والاعتداء على حرمات الله، وبين سبحانه أن المرابى إن لم ينته عن الربا ويكتفى برأس ماله فهو من أصحاب النار . هذا مع مايحول الله به بينه وبين مايطمع من الربا حيث يمحقه الله ويذهبه ، على عكس مايكون فى المال الذى يخرج المسلم منه الزكاة والصدقة حيث يبارك الله فيه بالزيادة والنماء والخير ، عن هذا كله يحدثنا القرآن الكريم ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢)

ومن أنواع أكل الأموال بالباطل (الرشوة) وهى مايدفع لصاحب جاه أو منصب أو قاضٍ أو عامل من أجل الحكم له أو لإنجاز عمله أو تأخير غيره . وهكذا ، فقد حرم الإسلام مصانعة الناس واشتراء ذممهم :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

وفى الحديث « لعن الله الراشى والمرتشى فى الحكم » (٤)

---

(١) سورة البقرة آية (٢٧٨ ، ٢٧٩)
(٢) سورة البقرة آية (٢٧٥ ، ٢٧٦)
(٣) سورة البقرة آية (١٨٨)
(٤) رواه أحمد والترمذى

وحرمها الإسلام بالنسبة للعمال ، ومايدفع إليهم في صورة هدية ، وهي في الحقيقة رشوة مقنّعة ، عن أبي حميد الساعدي أنه قال : استعمل ﷺ رجلاً من الأزد يقال له : ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قَدِمَ قال : هذا لكم وهذا أهدى إليَّ ، قال : فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله ، فيأتي فيقول : هذا لكم وهذا هدية أهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى يأتيه هديته إن كان صادقاً ؟ والله لايأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفَنَّ أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رُئى بياض إبطيه يقول « اللهم قد بلغت » [1]

وحرم الإسلام الرشوة في أي شكل كانت وبأي صورة من الصور المقنعة ، ويرسى الإسلام قاعدة لمن استُعمل على أي عمل من الأعمال وأُعطى راتباً على مايقوم به ، فما أخذه بعد ذلك فهو خيانة وضربٌ من الرشوة قال ﷺ : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذه بعد ذلك فهو غلول » [2] و (لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش) [3]

ولقد وعى السلف خطورة الرشوة ، في كل أشكالها وصورها ، فامتنعوا عن كل مافيه شبهة ، فعندما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليقدّر ماعليهم من الخراج فعرضوا عليه بعض المال فقال لهم : (فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت ، وإنا لانأكلها) [4]

وهكذا نرى أن الإسلام قد صان حقوق الناس وحافظ على أموالهم ، وحرم كل مافيه أكل لأموال الناس بالباطل ، فحرم الربا وحرم الرشوة ، كما حرم الغش وتطفيف الكيل والميزان ، والسرقة والغصب ، والاحتكار والتلاعب بالأسعار والاستغلال وغير ذلك مما هو حرام أو فيه شبهة ، حتى تستقر المعاملات وتنتظم ، ويحيا الناس آمنين على أموالهم وحقوقهم .

❁❁❁

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه أبو دواو
(٣) رواه أحمد
(٤) رواه مالك

نهاية أعداء السلام وأعداء الإسلام

صوّر القرآن الكريم نهاية أعداء السلام ، الذين استكبروا فى الأرض وطغوا وبغوا ، ونشروا فيها النزاع والخصام ، وهى أنهم فى ساعة الاحتضار ، وعند نهايتهم فى الدنيا حيث تتوفاهم الملائكة ظالمين لأنفسهم ، لأنهم حرموا أنفسهم من الإيمان والأمان ، وأوردوها موارد الخصومة والحرب والكرب والهلاك ، فكانت نهايتهم أليمة ، وعاقبتهم وخيمة .. هاهم في لحظاتهم الأخيرة يستسلمون ويلقون السلم كاذبين وقائلين :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾ ولكن يأتيهم الجواب من قبل الحق ، وهو علام الغيوب — سبحانه وتعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ويكون جزاؤهم جهنم ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢)

ويحذر الرسول ﷺ من هواة السلاح والضرب فى غير حق ، وأن عاقبتهم أنهم ليسوا على طريقة الرسول ﷺ . وأنهم خارجون عن هديه حيث يقول : « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » (٣) .

وحرصاً من الإسلام على السلام ، حتى لايتلاعب الشيطان بيد أحد من الناس نهى الرسول ﷺ . أن يعطى أحد السيف مسلولاً ، عن جابر — رضى الله عنه — قال : « نهى النبى ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً »(٤) .. بل إن مجرد الخوف بدون حرب نهى عنه الإسلام وجعل نهاية من يخيف إنساناً مؤمناً أنه لايكون آمناً من أهوال يوم القيامة . عن

---

(١) سورة النحل آية (٢٨)
(٢) سورة النحل اية (٢٨ ، ٢٩)
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى

ابن عمر – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة »[1] .

كما وضع الله تعالى أن السلام والأمان من أعظم النعم الإلهية يهبهما الله تعالى – لمن كان صادقاً عاملاً مؤمناً مخلصاً عابداً ربه موثقاً علاقته بخالقه وعلاقته بالناس على أساس الإسلام ودعوته ، وعليه أن يعبد ربه ويشكره على نعمة الإسلام والأمان

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[2]

وأما حين يكفر الناس بنعمة الله تعالى – ويجحدونه فإنه يحرمهم من نعمة الرخاء والأمان

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[3]

والسلام هو الطريق الذى رسمه الله تعالى للمؤمنين ، وهداهم إليه ووضحه لهم وهو طريق الحق والهدى والرشاد

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]

والسلام الذى ينشده الإسلام من أتباعه إنما هو السلام القائم على الحق والعدل ، إنه سلام المؤمنين الذى تحميه قوة تدافع عنه وتسنده وليس سلام الضعفاء ولاسلام المستسلمين .

ومعنى كون السلام قائماً على الحق والعدل ألا ينادى بالسلام قوم اغتصبت حقوقهم أو أرضهم أو سلبت أموالهم فيسكتون على الظلم ويرضون بالهوان والذلة ، وينادون بالسلام ويستسلمون للأعداء ، إن هذا ليس سلاماً بل هو استسلام واستخزاء .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط
(٢) سورة قريش آية (٣ ، ٤)
(٣) سورة النحل آية (١١٢)
(٤) سورة المائدة آية (١٦)

السلام الحقيقى فى الإسلام هو القائم على الحق والعدل كما سبق ، وهو فيما يتعلق بالأفراد بعضهم مع بعض ، وفى العلاقات الإنسانية نرى أن السلام يحتوى على العفو والتسامح حيث لاتضيع الحقوق وبشرط ألا يظلم المسالم كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١)

ومن أخلاقيات السلام التى تؤدى إلى تثبيت المعاملة الحسنة والعلاقة الطيبة والصفح والتسامح كما قال تعالى : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ (٢)

وبهذه الأخلاقيات يصان السلام من التعرض للمهاترات وبعض التصرفات التى قد تؤدى إلى ضياعه أو تصدع أركانه ، أو إحداث شرخ فى علاقة السلام أو بعض بنوده مما يضطر إلى الرجوع عنه .

إذاً للسلام شروطه وأخلاقياته التى يجب توافرها حتى يتحقق ويستمر ، فإذا توافرت شروط السلام أمكن تحقيقه ، وإذا تحقق وجب على جميع الأطراف أن يلتزموا بأخلاقياته حتى يستمر ولايتعرض للجحود أو التصدع وعدم الاستمرار .

ومن شروط السلام : (الحق) فلابد لإقرار السلام بين الأفراد والجماعات وبين الدول بعضها مع بعض أن يكون مستنداً إلى الحق ، وأن يكون بعيداً عن الباطل ، وواضح أن الإسلام هو دين الحق جاء به الرسول ﷺ وأرسله ربه – سبحانه وتعالى – به حيث قال جل شأنه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٣)

ولايصح أن يستقر سلام فى وجود باطل يشن غارته على الناس أو يحاول طمس معالم الحق ويسكت الناس عن الباطل مدعين أو زاعمين أنهم مسالمون وأهل سلام ، بل لابد من أجل أن يستقر السلام أن يأخذ الحق مجراه فى الحياة ويحصل على كل حقه ، ولايكون للباطل صولة ولا دولة ، حينئذ يكون السلام حقيقياً ، ويمكن أن يستمر وأن يستقر وأن يحيا الناس فى ظله آمنين .

(١) سورة الفرقان آية (٦٣)

(٢) سورة الزخرف (٨٩)

(٣) سورة التوبة آية (٣٣)

ومن شروط السلام : (العدل) لأن السلام القائم على العدل هو السلام الحقيقى الذى يمكن أن يستمر حيث لايوجد طرف من الأطراف يعانى من ظلم الآخر ، وحيث لاتكون أرض مسلوبة ولاحقوق مغتصبة ، بل يسترد كل فريق حقه ، وترجع الحقوق لأصحابها ، ويقوم السلام حينئذ فيكون جديراً بالاستمرار ، ويأمن الناس فى ظله ، ويستشعرون الراحة النفسية ، فلا تحدثهم . أنفسهم بظلم ولاباسترداد شئ سلب منهم ، أما السلام القائم على الظلم أو ضياع حق أو أرض أو نحو ذلك فهو سلام غير حقيقى لايلبث أن يتنافر أهله ، وأن يطالب أحدهم بحقه وتصبح الحروب وشيكة الحدوث ، من أجل هذا كان العدل من أهم شروط السلام .

ومن شروط السلام كذلك : أن يكون هناك عهد وميثاق بين الطرفين يلتزم كل فريق بوقف القتال وإحلال السلام وعدم اعتداء أحد من الطرفين على الآخر .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (١)

ومن شروط السلام : القوة وعدم الضعف والخنوع والاستسلام ، حتى لايلحق المسلمين ذلّة ولا هوان بسبب الدعوة إلى السلام ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (٢)

ومن أخلاقيات السلام : احترام العهود والمواثيق والالتزام بها ، وعدم تحرش أحد الفريقين بالآخر .

ومن أخلاقيات السلام فى الإسلام : التسامح والصفح ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ (٣)

ومن أخلاقياته التعاون :﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء آية (٩٠)

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم آية (٣٥)

(٣) سورة الزخرف آية (٨٩)

(٤) سورة المائدة آية (٢)

ومن أخلاقياته : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة شعائر الإسلام :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١)

ومن أخلاقيات السلام : أن تستظل الأمة بظلال الأمن الوارفة فيحيا الجميع بنعمة الأمن إخواناً متحابين ، يتركون التقاطع والتدابر والتباغض ، وينطلقون للبناء والتعمير ، وللإصلاح والتعاون ، والسعي إلى مافيه خير العباد والبلاد .

❀❀❀

(١) سورة الحج آية (٤١)

مأساة الغزو العراقى وواجب العرب والمسلمين

فى هذا البحث ، بيان للحكم الشرعى فى الغزو العراقى لدولة الكويت ، وواجب المسلمين حياله ، وماتستوجبه عقيدة الإسلام ، وأخوة الإسلام تجاه كل من الظالم والمظلوم .. وتوضيح تحريم الخروج على الجماعة ، وبيان الحكم الشرعى فى الاستعانة بقوات دولية ، وأدعو الله تعالى أن يجمع كلمة العرب والمسلمين ، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وأن ينصروا المظلوم برد الظلم عنه ، وإعادة الحق إليه ، وأن ينصروا الظالم بالأخذ على يديه ، وكفه عن ظلمه . وبالله التوفيق ..

المأساة الدامية وواجب العرب والمسلمين

إنها لمأساة دامية ، فجرها النظام العراقى ، قبل أن تجف دماء المأساة السابقة بينه وبين إيران ! !

فكم من أرواح أزهقت ، وكم من دماء بريئة أريقت ، وكم من أموال عربية استنزفت عبر ثمانى سنوات قضت على الحرث والنسل .. واليوم تتجدد المأساة حين يتعرض الكويت الشقيق إلى عدوان عراقى ظالم ، ماسمعنا بمثله من قبل .

لقد اجتاح الجيش العراقى دولة الكويت على حين غفلة ، انقض عليهم فى مضاجعهم ، فشرد شعبا ، ونهب أمواله ، وأخرجه من دياره ، وانتهك حرماته .. وهذا العدوان العراقى الغاشم يتنافى مع الإسلام ومبادئه التى تقول : **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا»**[1]

---

(١) رواه البخارى ومسلم

وأصبح العراق بهذا العدوان معتديا باغيا . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾

وهنا اقتتلت فئة وهى العراق ، بل هى التى قامت بالقتال دون الأخرى ، ومدت سائر البلاد العربية والإسلامية يد الصلح ، وابتدأت معالم هذا الصلح فى مؤتمر قمة طارئ دعا إليه السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية ، ولكن العراق لم يستجب ، وتمادى فى غيه وبغيه والآية الكريمة تقول :

﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١)

وقد بغت العراق وتمادت فى بغيها ، لدرجة أن احتلت الأرض ونهبت الأموال وانتهكت الحرمات ، ومع هذا العدوان كله فلم تقاتل البلاد العربية والإسلامية العراق رغم ظلمه وعدوانه، بل إن جميع البلاد تناشد العراق الحل السلمى ، حتى لايضرب عربى عربيا، وحتى لايقاتل مسلم مسلما ، حقنا للدماء ، ورأبا للصدع، وجمعا لكلمة العرب والمسلمين. أما كفى العراق وقادته استنزافا وضياعا ، ثمانى سنوات ؟ استنزف فيها دماء المسلمين فى حربه مع إيران ، وورط الأمة العربية بجواره ، زاعما أنه يدافع عن العرب ، ومدعيا أنه سيدافع عن أى بلد عربى ، ماباله يغتصب الكويت وهى الدولة العربية المسلمة المجاورة له ، إنه لم يرع حرمة الإسلام ، ولا حق الجوار ، ولا ما امتدت به يد الكويت إليه من معاونات سابقة ، لقد قابل صنائع المعروف من الكويت بالغدر وقابل أخوتهم بالخيانة وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ، ماسمعنا بهذا فى شريعة الغاب، ولاعند عباد الأصنام أو أعداء الإسلام !! .

لقد خدم النظام العراقى بهذه الهجمة الشرسة والتحدى السافر للضمير العالمى الإسلامى ، خدم أعداء الإسلام والعروبة .. وقامر بمصير أمة ، وغامر بالعراق فى تفجير المنطقة العربية ، وإشعال حرب لايعلم نهايتها إلا الله .

أما أحس العراق بالخطر الداهم الذى يتهدده ويتهدد مستقبله ؟

أما علم العلماء فى العراق : أن هذه الهجمة الشرسة على الكويت لايقرها الإسلام .

---

(١) سورة الحجرات آية (٩)

إننا الآن فى عالم متحضر ، وفى عصر مستنير ، تحكمه المواثيق الدولية والنظم العالمية ، والعهود التى بين الدول يجب الوفاء بها ، فليس من حق دولة أن تتسلط على الأخرى لتسقطها وتخرج أهلها من ديارهم وأموالهم بغير حق .

لقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود ، وحذر من نقضها ، وشبه الذين ينقضون العهود ، ويعصفون بالمواثيق ، شبه من كان كذلك بالمرأة الحمقاء التى كلما غزلت غزلها نقضته قطعا وأوصالا ..

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١)

وقد نقضت العراق كل العهود والمواثيق ، وأوقعت الدول العربية فى خداع ، أفلا يدرك شعب العراق خطورة هذا الموقف ؟

أليس لديهم برلمان ، أو رأى للشعب ، ليقولوا كلمة الحق لرئيس هذه الدولة ؟ فمن المستحيل أن يوافق الشعب، وعلماء العراق ، والمثقفون ، والجيش على هذه المخاطرة المهولة، التى يلقون فيها بأنفسهم فى التهلكة ؟ ويعادون فيها العالم العربى والإسلامى ، ويعزلون أنفسهم هذه العزلة التى لم تحدث من قبل .. إننا نناشد العراق حكومة وشعبا ، وعلماء ومثقفين ، والبلاد العربية والإسلامية ، أن ينصروا الكويت المظلوم بدفع الظلم عنه وأن ينصروا العراق الظالم بالأخذ على يديه ورده عن ظلمه .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا : يارسول الله هذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ فوق يديه »** (٢)

ونصرة الظالم بكفه عن الظلم ، وحجزه عنه ، والأخذ على يديه ، والتعبير فى الحديث بقوله ﷺ : (تأخذ فوق يديه) بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة ، وهذا

---

(١) سورة النحل آية (٩١ ، ٩٢)
(٢) رواه البخارى

التوجيه يحمل الأمة الإســلامية متضــامنة مغبة مايئول إليه تفريط الظالم ، وإنه يجب على الجميع أن يأخذوا على أيدى الظالمين ، وأن يقهروهم ليردوهم عن ظلمهم ، لأنهم إن لم يفعلوا استشرى شرهم ، وتفاقم خطرهم ، وعم بلاؤهم الأمة بأسرها . إن أخوة الإسلام تستوجب على كل المسلمين فى كل الأرض أن يوقفوا العدوان العراقى الغاشم عند حده ، وأن يعيدوا للمنطقة العربية أمنها واستقرارها وإن لم يفعلوا فقد باءوا بإثم عظيم .

فواجب المسلم على المسلم ألا يسلمه ولايظلمه ولايخذله ..

قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .. » (١) .

وفيما رواه مسلم بسنده : « .. المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه .. » (٢)

إن على الأمة العربية والإسلامية ، أن تتدارك الموقف قبل أن يتفجر ، وتلتهب المنطقة كلها ، إذ ليس من المعقول أن ينفرد شخص واحد فى توريط أمة بأسرها ، وإشعال حروب لايدرى مداها إلا الله ، نتيجة استبداد فرد برأيه ، ولو رجع لرأى الجماعة لما وقع فيما وقع فيه ، ولا ورط الأمة على هذا النحو المخزى المتردى .

رأى الجماعة لاتشقى البلاد به   رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

كيف يترك فرد ليتصرف بمصير أمة ؟! أين المواثيق الدولية ؟! كيف يعصف فرد بمقدرات أمة ومصائرها ؟ ويحشد جيشه على حدود الدولة الآمنة ؟ حامية الحرمين والقائمة على رعاية المقدسات وهى المملكة العربية السعودية .. إنه بهذا التحدى والتحرش يقامر بحياة شعبه وجيشه أولا ، ثم يشعل الحروب فى العالم العربى بأسره .

إن واجب العرب والمسلمين أن يوقفوا هذا العدوان الغاشم والتحدى السافر ، وأن يخرجوا هؤلاء المعتدين من الكويت الشقيق ، وأن تعود إليه شرعيته وحكومته ، وأن تنسحب الجيوش المحتشدة على الحدود بين المملكة العربية السعودية والكويت ، تلك الحشود العراقية

---

(١) رواه البخارى ومسلم   (٢) رواه مسلم

الباغية التى وجب ردها بقوة المسلمين جميعا ، وإن لم يجتمع المسلمون على قلب رجل واحد لصد هذا العدوان فهم جميعا آثمون ومشاركون فى الظلم ، وسيحاسبهم الله حسابا عسيرا ..

وقال رسول الله ﷺ : « لايقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » [1] .

لقد أصبحت وحدة العرب والمسلمين فرض عين لمواجهة هذا الطغيان الذى يحاول تطويق المنطقة ، ويتستر بالإسلام شكلا ، ليستثير عواطف الدهماء من الناس ، وحاول النظام العراقى أن يشغل الرأى العام بقضايا أخرى مبتعدا عن القضية الأساسية فى الموقف وهى احتلاله للكويت وتشريده لشعب وانتهاكه للحرمات .. واجب الأمة أن تتحد وألا تختلف ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[2] وألا يختلفوا أو يتنازعوا ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3]

لقد حكم الإسلام على الذى يعتدى على إخوانه المسلمين فردا كان أو جماعة أو دولة ، حكم عليه بالبعد عن الإسلام وطريقه الصحيح ومنهجه الذى يدعو أتباعه للأمان والسلام ، وعدم الرعب والخوف والفزع ، وتبرأ رسول الله ﷺ ممن يحمل السلاح على المسلمين ويهددهم ويروعهم كما صنع النظام العراقى بالكويت ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من حمل علينا السلاح فليس منا » [4] .

بل إن مجرد إلقاء الرعب والخوف حتى بدون حرب حرمه الإسلام وجعل عاقبة الذين يخيفون غيرهم وينشرون الرعب بينهم أن يحرموا من نعمة الأمان فقال ﷺ : «من أخاف مؤمنا كان حقا على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة» [5] .

---

(١) رواه الطبرانى

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣)

(٣) سورة الأنفال آية (٤٦)

(٤) رواه البخارى ومسلم

(٥) رواه الطبرانى

تحريم الخروج على الجماعة

إن الإسلام هو دين الوحدة والألفة ، يدعو أتباعه أن يكونوا على قلب رجل واحد ، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ويحذر الإسلام من الخروج من الطاعة ، ومفارقة الجماعة ومن الاعتداء والبغى ، ومن اعتداء فرد على فرد أو جماعة على جماعة ، أو دولة على دولة أخرى ، ومن كان كذلك ، بأن اعتدى على الغير ، وخرج على الجماعة، وضح الإسلام نهايته ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة ، فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة ، فقتل فقتلته جاهلية ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ، ولايتحاشى من مؤمنها ، ولايفى لذى عهد عهده ، فليس منى ولست منه» [1] .

إن الإسلام يدعو أن نكون أمة واحدة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [2] لقد دعاهم أن يتحدوا بدين الله تعالى وألا يتفرقوا ، فقال سبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [3] وهذا الأمر الإلهى موجه للأمة بأسرها ، حتى يكونوا كالجسد الواحد ، وكالبنيان المرصوص وحذر أشد التحذير من الفرقة والاختلاف والتصدع الذى يترتب على الخروج عن هذه الوحدة ، قال رسول الله ﷺ: « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية » [4] أى مات على صفة أهل الجاهلية من حيث هم فوضى لا إمام لهم ، ولا وحدة تجمعهم ، ولا دين يعصمهم من الفرقة والضلال والفتنة ، كما بين أن الذى يقاتل تحت راية عمية أى تحت قيادة لايتضح فيها وجه الحق والصواب فأمرها أعمى لايستبين فيه وجه الحقيقة كمن يتقاتلون لعصبة ، وشهوة نفسية تعصبا لقومهم وهواهم ، فلم يسألوا عن الحكم ، ولم يتأكدوا من شرعية هذا القتال ، بل قاتلوا تعصبا لقومهم وقيادتهم وإن كانت ظالمة وعلى الباطل .

---

(١) رواه مسلم

(٢) سورة الأنبياء آية (٩٢)

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٣)

(٤) رواه مسلم والنسائى

وخطورة مثل هذا القتال أنه يؤدى إلى هدم الحياة ، وطمس معالم الحق ، وتشريد الشعوب ، ونهب الأموال وانتهاك الحرمات باسم العصبية العمياء . ومن خرج على هذه الأمة ، يضرب برها وفاجرها ، غير مكترث بمن يقاتله ، برا كان أو فاجرا ، ولايخشى مغبة ما يئول إليه أمره .. لايتحاشى من مؤمن هذه الأمة ولايفى لصاحب العهد عهده ، مثل هذا يبرأ منه الرسول ﷺ حيث يقول : « فليس منى ولست منه » وهكذا يدعو الإسلام إلى وحدة المسلمين وتكاتفهم وتضامنهم ، ويحذر من الفرقة والاختلاف والانقسام ، والاندفاع فى العدوان ، واعتداء الناس بعضهم على بعض ، أفرادا كانوا أو جماعات ، أمما كانوا أم شعوبا .

ومن حاول تفريق الأمة الإسلامية ، أو عمل على تصدع الأمة فإن حكم الإسلام أن يضرب بالسيف حتى لايتفاقم شره ، ولايعم أذاه ، قال عليه الصلاة والسلام : « ستكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان »[1] .

وهذا الحديث يكشف عما سيحدث من فتنة ومن أمور حادثة « ستكون هنات » وهى : جمع هنة ، وتطلق على كل شئ ، والمراد بها هنا الفتن والأمور المحدثة ، وقد يتسبب عن هذه الفتن أو الأمور الحادثة أن يتعصب قوم أو جماعة أو دولة لنفسها بدافع العصبية وليس بدافع الحق ، وقد يندفع البعض لعمل فيه تفريق كلمة هذه الأمة وانقسامها وفرقتها واختلافها «فمن أراد أن يفرق أمر هـذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان» .

وفى هذا التوجيه النبوى الحكيم ، دلالة على مقاومة الخارجين الذين يريدون تفريق كلمة المسلمين ، إنهم ينهون عن ذلك أولا ، فإن لم ينتهوا ، ولم يندفع شرهم إلا بالقتل فقتلـوا ، كان القتل هدرا .. إنه الحرص الأكيد من الإسلام على وحدة الأمة ، وإن الذى يكون سببا فى تفريق كلمتها يستحق هذه العقوبة ، لأنه يترتب على تفريقها الضياع والانهيار ، فتصبح لقمة سائغة لأعدائها ، ولذا حذر القرآن الكريم من التنازع ، لأنه سبب الفشل والضياع ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[2]

(١) رواه مسلم (٢) سورة الأنفال آية (٤٦)

وحذر الرسول ﷺ من قتال المسلمين بعضهم لبعض ، فهذا القتال من صفة غير المسلمين، قال عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) .

الحكم الشرعى فى الاستعانة بغير المسلمين

منذ اجتاح الغزو العراقى ، دولة الكويت الشقيقة ، على حين غفلة ،ومنذ حشد النظام العراقى جيوشه على حدود المملكة العربية السعودية ، وتطلع إلى باقى دول الخليج ، منذ ذلك الحين ، استعانت المملكة العربية السعودية بقوات دولية من العرب وغيرهم ومن المسلمين وغيرهم . ومنذ تواجد هذه القوات ، وقد انطلقت دعاوى مغرضة حاول العراق أن يبثها بين صفوف الأمة ، زاعما أنه يريد تحرير المقدسات وتوزيع الثروات ، وتنادت خلفه بعض أصوات ضعيفة الإيمان، وانخدعوا بتلك المقولة الرخيصة التى لا يركن إليها ذو عقل ودين .

وزعموا أن الاستعانة بتلك القوات غير جائزة شرعا ، فكان لزاما أن نوضح الحكم الشرعى فى ذلك ، وبيانا لحقيقة الأمر ، فإن المملكة العربية السعودية لم تستعن بتلك القوات إلا للضرورة القصوى . حيث رأت الخطر الذى يتهددها ، محاولا استخدام أسلحة الدمار الشامل المحرمة شرعا ، والممنوعة دوليا ، وأمام هذه الضرورة تبرز القاعدة الشرعية : الضرورات تبيح المحظورات .. ثم إن هذه القوات إما مسلمة ، وإما معاهدة ، وقد جاءت لا لحرب المسلمين ، بل لرد العدوان الذى يهددهم به العراق ، والدفاع عن النفس واجب ، بكل مايستطيع الإنسان أن يدافع به ، والاستعانة بتلك القوات الدولية ، إنما هو قائم على أسس من المواثيق الدولية ، واتفاقيات ومعاهدات بين الدول بعضها مع بعض .

والإستعانة بغير المسلمين جائزة ، قال الإمام الشافعى وغيره من العلماء :

إن كان الكافر حسن الرأى فى المسلمين ، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به أ هـ (نقلا من شرح النووى على صحيح مسلم) .

كما روى عن الإمام أحمد بن حنبل ما يدل على جواز الاستعانة بالمشرك عند الحاجة .

---

(١) رواه الترمذى

وفى السيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى مشاهد صادقة ، تحمل أوضح الدلائل على جواز الاستعانة بغير المسلمين ، فإن رسول الله ﷺ بعد أن مات عمه أبو طالب ، وزوجته خديجة ، وكان عام الحزن الذى أظلمت فيه فجاج مكة من فجار الشرك والوثنية ، راح إلى الطائف يلتمس العون ، فما وجد منهم إلا الإسراف فى إيذائه ، والإمعان فى اللؤم والفجور، فغادر الطائف وهو مهموم وعند جبل صغير انقطع عن آخر كبير يسمى بقرن الثعالب ، فرفع رأسه فإذا هو بسحابة قد أظلته فنظر فإذا فيها جبريل ، قال : فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، قال : فنادانى ملك الجبال ، وسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (هما جبلا مكة : أبو قبيس ومقابله) فقال النبى ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا » [1] . وفى رواية أخرى فقال له ملك الجبال : أنت كما سماك ربك (رؤف رحيم) .

ولما عاد إلى مكة ذهب إلى حراء ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فاعتذر ، ثم بعث إلى سهيل بن عمرو ليجيره فاعتذر ، فبعث إلى المطعم بن عدى ليجيره ، فقال : نعم، وأجاب فى نخوة وشجاعة وكرم عربى أصيل ، فذهب إليه رسول الله ﷺ ، فبات عنده ليلة فلما أصبح خرج هو وبنوه – ستة أو سبعة – متقلدى السيوف جميعا فدخلوا المسجد ، وقال لرسول الله : طف ، واحتبوا بحمائل سيوفهم فى المطاف ، فأقبل أبو سفيان بن حرب إلى المطعم، أمجير أم تابع ؟ قال: بل مجير قال : إذا لا نخفر ذمتك – أى لا نغدر بعهدك– وقال : قد أجرنا من أجرت . وجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ، فلما انصرف انصرفوا معه . وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ استعان بكافر ودخل مكة فى جواره ، وثبت عنه ﷺ أنه قال فى المواسم : « من يؤينى حتى أبلغ رسالة ربى » [2] ؟

وواضح أن رسول الله ﷺ هو أعظم المتوكلين على الله وخير الذين يوقنون برعاية الله ونصره ، ولكنه مع هذا استعان بغير المسلمين حين احتاج الأمر إلى ذلك وهومشرع وله

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه أبو داود والترمذى

أصحاب سيتعرضون لصنوف الأذى والعذاب فلو لم يكن أسوة لهم بفعله وتصرفه ، لتعرضوا للفناء والهلاك ...

ففى هذا التصرف النبوى دلالة على الاستعانة بغير المسلمين عند الحاجة .

وفى مسيرة الهجرة النبوية المباركة استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا يسمى عبدالله بن أريقط كان ماهرا بمعرفة الطرق الخفية ، ولم يكن مسلما بل كان على دين كفار قريش ، ولكنهما أمناه .

ومما يدل على جواز الاستعانة بغير المسلمين أيضا ، ماقام به رسول الله ﷺ من معاهدة وادع فيها أهل الكتاب وعاهدهم على المناصرة ، وأصبح اليهود ملزمين بمعاونة المسلمين إذا مادهم المدينة عدو ، وبعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم ضدهم ، لولا أنهم خاسوا بعهدهم ..ففى إبرام مثل هذه المعاهدة وتلك الوثيقة معهم دلالة على جواز الاستعانة بغير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وفى غزوة حنين خرج فى جيش المسلمين ثمانون من المشركين ، منهم :صفوان ابن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وذكر لرسول الله ﷺ أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحـــا ، فلما عزم الأمر أرسل إليه ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : ياأبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا ، فقال : أغصبا يامحمد ؟ فقال : بل عارية مضمونة، فأعاره مائة درع بما يكفيها من السلاح ، وسأله رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها ففعل ، فلما تمت الموقعة جمعت دروع صفوان فوجدوا أن بعضها فقد ، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له ، فأبى ، وقال : أنا اليوم فى الإسلام أرغب .

وفى هذه الواقعة دلالة أخرى على جواز الاستعانة بغير المسلمين جنودا مع المسلمين، وبالاستعانة بأسلحتهم .

وأما ماورد من بعض الأحاديث التى تفيد خلاف ذلك كحديث الرجل الذى جاء رسول الله ﷺ يوم بدر وقال جئت لأتبعك فأصيب معك ، فقال له رسول الله ﷺ تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا ، قال فارجع فلن أستعين بمشرك .. ثم مضى ، وأعاد عليه مرة أخرى فقال له النبى ﷺ كما قال أول مرة فقال لا ، قال : فارجع فلن أستعين بمشرك،

قال : فرجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم، فقال له: (فانطلق) (١) .

وقد ذكر الشوكانى هذا الحديث الذى يفيد منع الاستعانة بالمشرك ، وذكر بعض الأحاديث الأخرى التى تفيد جواز الاستعانة بالمشركين منها ما أخرجه أبو داود بالسند المتصل عن خالد بن معدان وجبيرين نفير ، قال جبير لخالد : انطلق بنا إلي ذى مخبر– رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم – فأتيناه ،فسأله جبير عن الهدنة فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ستصالحون الروم صلحا تغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم) .(٢)

والجمع بين هذه النصوص على أن النبى ﷺ تفرس الرغبة فى الذين ردههم فردهم رجاء أن يسلموا فصدق الله ظنه ، أو أن الأمر إلى رأى الإمام ، أو أن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها . قال بعض العلماء هذا أقربها وعليه نص الشافعى .

ومما يدل على جواز الاستعانة بالمشركين أن قزمان خرج مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بنى عبد الدار حملة لواء المشركين ،حتى قال ﷺ : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٣) ، كما ثبت ذلك عند أهل السير ، وخرجت خزاعة مع النبى ﷺ على قريش عام الفتح . وذكر الإمام الشوكانى عن أبى حنيفة وأصحابه أنه يجوز الاستعانة بالكفار والفساق حيث يستقيمون على الأوامر ، واستدلوا باستعانته ﷺ بناس من اليهود .. ثم ذكر جواز الاستعانة بالفساق على الكفار إجماعا ، وعلى البغاة ، لاستعانة على رضى الله عنه بالأشعث .

هذا مع ملاحظة أن هذه القوات التى بالمملكة العربية السعودية هى قوات دولية لم تقتحم الحمى بل استدعاها أولو الأمر لدفع الخطر ، ولتتكافأ الأسلحة والقوات .

وإنها – أيضا – لم تأت لتحارب العراق . بل جاءت لتشارك مع غيرها من القوات فى رد أى عدوان وفى ردع أى هجوم على البلاد .

---

(١) رواه أحمد ومسلم
(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه
(٣) رواه أحمد والبخارى ومسلم

ولدول هذه القوات وحكوماتهم مواثيق دولية واتفاقيات وعهود على دفع الأخطار .

ومن العجب أن القوات الدولية ، وفت بمواثيقها ، والعراق خرق كل المواثيق الدولية وخالف كل العهود واتفاقيات الدفاع المشترك ، ولم يستمع لنداء العقل والإسلام والسلام ، بينما هو يتمسح بالإسلام ودعوته !

وإننا لندعو العراق رئيسا وحكومة وشعبا ، أن يستجيب لدعوة الإسلام ﴿ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾(1) ودعوة العقل والسلام ، وأن ينسحب من الكويت ، وأن تعود الشرعية إليه ، فإن أساس المشكلة هى الغزو العراقى الظالم للكويت .

كيف يتمسح بالإسلام وقد شرد دولة ، واجتاحها ؟ !

كيف يتظاهر بتوزيع الثروات وقد نهب ثروات الكويتيين وأموال جميع الأجناس العاملين فيها ؟ !

ألافليعد النظام العراقى إلى رشده وصوابه ، وليستجب لدعوة الإسلام إلى السلام ، كفى عنادا ومكابرة !!

كفى استنزافا لأموال العرب ومقامرة بمصائر الأمم والشعوب .

أدعو الله تعالى أن يهدى صداما ، وأن يعيد إليه الرشد ، وأن يجمع الله كلمة العرب والمسلمين . وبالله التوفيق .

وطن الحرمين فى رعاية الله
وواجب جميع المسلمين الحفاظ على أوطانهم

إن المملكة العربية السعودية ، هى وطن الحرمين الشريفين ، سعدت بجوار الكعبة المشرفة ، وبمثوى خاتم الأنبياء والمرسلين ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، والمملكة تقوم بخدمة الحرمين خير قيام ولا تدخر جهدا فى بذل أقصى مافى الوسع الإنسانى لخدمة الحرمين وخدمة ضيوف الرحمن ، وزوار رسول الله ﷺ وأهل المملكة يعيشون حياة طيبة

(1) سورة البقرة آية (٢٠٨)

آمنة ، طبقوا فيها شريعة السماء ، وتخلى عاهل السعودية ، عن وصفه جلالة الملك ، واستحسن أن يلقب بخادم الحرمين الشريفين ، كما أن المملكة أصبحت مضرب المثل فى الأمن والرخاء والاستقرار فكيف تسول الأطماع لزاعميها دعاوى مغرضة حولها ؟!

إن ماحدث من الغزو العراقى لدولة عربية إسلامية جارة للعراق ، صاحبة أياد بيضاء عليه ، شيء مخزٍ ومترد ، وإن مايحدث من الحشود على المملكة خادمة الحرمين وخادمة الحجيج لأمر لا يقره دين ولا عقل ....

أما كان أولى بجيش العراق أن يوجه لتحرير فلسطين ولنصرة الأقليات الإسلاميـــــة وللدفاع عن بلاد العرب المسلمين وعن المقدسات الإسلامية ؟!

إن لدينا حقيقة قرآنية كبرى ، ذكرها القرآن الكريم فى سورة (الفيل) أنبأ فيها الحق تبارك وتعالى برد جيش أبرهة على أعقابهم خاسرين وجعلهم كعصف مأكول ، حين أرادوا بيت الله بسوء ، وعندما طالب عبد المطلب أبرهة بإبله وسأله : ومجد آبائك ؟ فأجاب عبد المطلب بكلمته المشهورة الشجاعة : أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه .

فبنص القرآن الكريم سيحمى الله البيت وأهل البيت ومن يخدمه ويجاوره ، فمنذ زمن بعيد عندما خرج سيدنا إبراهيم عليه السلام وترك ولده الرضيع إسماعيل مع أمه وذهبت الأم بعد مانفد مالديها من ماء – تبحث عن الماء وقطعت سبعة أشواط ، حتى جاء الملك وبحث فى الأرض فتفجرت زمزم ، عندئذ قال جبريل لها كما جاء فى الأحاديث الصحيحة : لاتخافوا الضيعة فإن هاهنا بيتا سيبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله[1] . فهذا حديث صحيح يثبت أن الله تعالى مع أهل هذا الوطن العظيم . وإن هذه التهديدات ، وتلك التحرشات سيبوء بها أصحابها فقد قال ﷺ –فى يوم الفتح – « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة »[2] .

كما صان الله تعالى مدينة رسوله ﷺ وحفظها من كل سوء ومن كل معتد أو مغير فقال ﷺ « من أراد أهل هذه البلدة بسوء « أى المدينة » أذابه الله كما يذوب الملـــــح

(١) رواه البخارى

(٢) رواه أحمد والبخارى

فى الماء » وفى حديث سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : « ولا يريد أهل المدينة أحد بسوء إلا أذابه لله فى النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح فى الماء »[١] .

وفيما رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضى لله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لايكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء»[٢] أى ذاب . وفيما رواه النسائى من حديث السائب بن خلاد رفعه «من أخاف أهل المدينة ظالما لهم أخافه الله وكانت عليه لعنة الله »[٣]

إنها نصوص صحيحة وصريحة فى رعاية الله تعالى لوطن الحرمين الشريفين .. ولكن ليس معنى هذا أن يتكل المسلمون ، بل عليهم أن يأخذوا حذرهم ، وأن يكافح المسلمون عن أوطانهم وأن تبذل الأمة الإسلامية متضامنة أقصى ما فى الوسع الإنسانى لدرء الخطر .وأن يكونوا على أتم الاستعداد لرد البغاة الظالمين .

وقد آن الأوان ليسارع العرب والمسلمون ، وينهضوا على قلب رجل واحد ، ليتمكنوا من أداء دورهم الذى تمليه عليهم عقيدتهم ودينهم فى مواجهة هذه الأمة قبل أن يستفحل خطرها ، وقبل أن يتفاقم شرها .

لقد دعت الحاجة الملحة – الآن .. إلى التضامن الإسلامى لإيقاظ مشاعر الإخاء والتواصل فى سائر أرجاء الوطن الإسلامى ، ليهب الجميع عن بكرة أبيهم متعاطفين متساندين متعاونين على البر والتقوى. وفى التضامن الإسلامى قوة فى جميع المجالات، حتى يتحقق المجتمع المؤمن الآمن ، لأن شعار المجتمع المؤمن هو الأمان كما قال رسول لله ﷺ : « والمؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم »[٤] .

وليس العدوان من صفات المجتمع المؤمن ، وليس الغدر من صفات المجتمع المؤمن ، بل إن الخيانة والغدر والفجور فى الخصومة من سمات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»[٥]

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البخارى
(٣) رواه النسائى
(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى
(٥) رواه البخارى ومسلم

وفى بعض الأحاديث والروايات الأخرى : « وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » فالغدر بالعهود والغدر بالأمم والفجور فى الخصومة من سمات المنافقين .

ندعو الله تعالى أن يحفظ البلاد الإسلامية من شر المنافقين . ومن شر من يشايعهم ، وأن يهدى هذه الأمة سواء السبيل ، وأن يرد من أرادها بسوء خائبا مخذولا ، وأن يجمع الكويت الشقيق بوطنه ، وأن يعيد الله له شرعيته وأن يحفظ على وطن الحرمين الشريفين نعمة الأمان والرخاء والاستقرار .

❀❀❀

فى تطبيق الشريعة أمان ورخاء

إن فى تطبيق الشريعة الإسلامية رخاء وأمانا ، أما الرخاء فإن الله تعالى يجزل الرزق للمتقين ، وأما الأمان فلأنّ فى اتباع الشريعة نجاة من العذاب وأماناً من الفتن والخوف، ذلك لأن مخاوف الناس ترتكز فى جانبين .

الأول : الخوف على الحياة .

والثانى : الخوف على الرزق . وقد وعد الله تعالى – ووعده الحق – أن من اتقاه وطبق شرعه يضمن له الأمرين قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١)

فهذه الآية الكريمة مؤكدة لمراعاة حدود الله وما وعد الله على ذلك من المخرج والرزق كما أن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (٢) . تأكيداً بالوعيد بالنسبة لمن تعدى حدود الله .

روى أن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالماً، فأتى رسول الله ﷺ فقال: أسر ابنى . وشكا إليه الفاقة ، فقال ﷺ : «اتق الله وأكثر قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» (٣) ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت تلك الآية الكريمة ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

والأمان والرزق نعمتان من أجلّ النعم الإلهية على الناس . وحين أمر الله قريشاً بعبادته ممتناً عليهم ذكّرهم بهاتين النعمتين :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (٤)

(١) سورة الطلاق آية (٢ ، ٣)
(٢) سورة الطلاق آية (١)
(٣) رواه ابن أبى حاتم
(٤) سورة قريش آية (٣ ، ٤)

وإذا كانت هاتان النعمتان جزاءً وفاقاً لمن عبد الله وطبق شريعته فإنه يقابلهما نقمتان لا يسلطهما الله إلا على الجاحدين الكافرين بأنعم الله الذين لا يطبقون شريعته ، ولا يسيرون على هداها . هاتان النقمتان هما : الجوع والخوف ، قال الله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (١)

والقرآن الكريم حين يحث على مطلب من مطالب الشريعة أو يدعو إلى سنة من سنن الله كالزواج مثلاً ينبه على أهميته كطريق للحلال والعفة .

ويحذر من أن تكون قلة ذات اليد عائقاً دون تحقيقه ، فإن عنصر التقوي والصلاح هو الأجدر بالاحترام والنظر إليه ، وعندئذ يَعِدُ الله صاحبه باليسر والفضل ، قال تعالى :

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴾

وهكذا يمضى بنا المنهج القرآنى الحكيم فى ترسيخ دعائم الحق وإرساء القواعد الثابتة لتنفيذ أمر الله وتطبيق أحكام شريعته .

وليس معنى هذا أن ندع شؤون الكسب والمعاش أو وسائل التنمية الاقتصادية ، فإن الإسلام دين العمل ، ولكن علينا أن نتجه بوسائل الكسب إلى أشرفها وأنبلها . وعلى رجال الاقتصاد والاجتماع والتجارة أن يعملوا بتخطيط إسلامى مدروس ، ومنهج للكسب والتنمية يخلو تماماً من أية شائبة من شوائب الحرام والشبهات .

وفى تطبيق سائر أحكام الشريعة أمان للمجتمع الإنسانى بأسره ، وقد بيَّن الله تعالى أن فى القصاص حياة . قال سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة النحل آية (١١٢)

(٢) سورة النور آية (٣٢ ، ٣٣)

(٣) سورة البقرة آية (١٧٩)

فإن العلم بإقامة القصاص يردع القاتل عن القتل فيكون سبب حياة نفسين .. وهكذا الأمر بالنسبة إلى تطبيق الأحكام فى سائر جوانب الحياة ، وقد نادى الإسلام بإقامة الحدود . عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم» (١) .

أثر ذلك فى الفرد والمجتمع

لقد تحدث الرسول ﷺ عن أثر ذلك بالنسبة للفرد والمجتمع وضرب على ذلك مثلاً محسوساً ، وأننا إن لم نأخذ على يد الجانى يعمُّ الهلاك ، وإن أخذنا على يديه نجا الجميع .. عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَثَلُ القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا ، فإنْ تَرَكُوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإنْ أخذُوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» (٢) .

ونظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة ، تحرك وازع الدين فى نفسه وأحسَّ بفداحة جرمه فيلتمس الطهارة منه ويتقدم لأخذ جزائه عليه في الدنيا قبل الآخرة .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله طهِّرنى ، فقال ﷺ : «ويحك فاستغفر الله وتب إليه» ، قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يارسول الله طهرنى ! فقال النبى ﷺ : مثل ذلك ، حتي إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ : «مم أطهرك» ؟ فقال : من الزنا ، فسأل رسول الله ﷺ : «أبه جنون» . فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال ﷺ : «أشَرب خمراً» ، فقام رجل فاستكنهه فلم يجد منه ريح خمر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «أزنيت» ؟ فقال : نعم . فأمر به فرجم ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلم ثم جلس ، فقال : «استغفروا لماعز بن مالك» . قال :

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) رواه أحمد والبخارى والترمذى

فقال رسول الله ﷺ : «لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم»[1] . وهكذا نري كيف سمت أرواحهم وصفت قلوبهم فحافظوا على أحكام الشريعة مهما كلفهم ذلك .

ولقد وعد الله تعالى : – ووعده الحق – كل من يحقق الإيمان عقيدةً وعملاً بالاستخلاف فى الأرض وبتمكين دينه الذى ارتضاه ، وبأن يعدهم بظلال الأمن الوارفة وبحياة الاستقرار والطمأنينة فقال تعال :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[2]

إن هذا النموذج الصادق من المؤمنين الصالحين إذا مكّن الله لهم فى الأرض فلا خوف على دين الله – فى وجودهم – من الباطل ، فسوف يوثقون علاقتهم بالله وصلتهم به فيقيمون الصلاة وهى عنوان تلك الصلة ، كما يوثقون علاقتهم بالناس فى تكافل اجتماعى نقى فيؤتون الزكاة . وبصفة عامة يقيمون شريعة الله فى الأرض ويحافظون على الحدود وتطبيق أحكام الدين أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3]

وطالما ذكر القرآن الكريم أتْبَاع الحق حين نصروا دين الله فنصرهم ربهم وآواهم وأيدهم وآمنهم بعد خوف ورزقهم من الطيبات بعد الفاقة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4]

---

(١) رواه مسلم
(٢) سورة النور آية (٥٥)
(٣) سورة الحج آية (٤١)
(٤) سورة الأنفال آية (٢٦)

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الأمن والرخاء ، ذلك فى الدنيا . وأما فى الآخرة فالفلاح الدائم ، والسعادة الخالدة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهذا للذين استجابوا لله وللرسول وطبقوا تعاليم ذلك الدستور السماوى الذى ربط الخلق بالحق ، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو اليقين فلا ريب فيه ، وهو الهدى فلا تزيغ به الأهواء . فمن سار على مبادئه فهو على هدى ، ومن طبق تعاليمه فهو من المفلحين . قال الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وقد أمر الله تعالى أنّ نتّبع ما أنزل سبحانه فقال : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (٣)

وقد أكمل الله تعالى الدين وأتم النعمة على العباد ورضى لهم الإسلام ديناً ليقيموا على منهجه حياتهم ، قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٤) ومن رحمة الله تعالى وحكمته أن جعله ديناً سمحاً لا حرج فيه ، حتى لا يشق أمره على أحد ، ولا يكون على الله حجة . قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٥) فمن ابتغى غيره فلن يقبل منه . قال تعالى :

(١) سورة البقرة الآيات (١ – ٥)
(٢) سورة الأعراف آية (٣٢)
(٣) سورة النساء آية (١٠٥)
(٤) سورة المائدة آية (٣)
(٥) سورة الحج آية (٧٨)

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1]

وإلى جانب كونه كاملاً تاماً فقد جاء متوائماً مع الفطرة يصلح لكل زمان ومكان وجاء مصوناً من أى تحريف وباطل ، فكتابه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2] وقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3] إذاً فالدين محفوظ ، وكتابه مصون ليس كمثل قوانين البشر المتضاربة التى تصيب مرة وتخطىء مرات ، وتصلح اليوم ولا تصلح غداً ، ويمكن أن تسرى فى مجتمع ولاتسرى فى غيره ، وتثمر فى بيئة ولا تثمر فى أخرى ، تلك هى القوانين الوضعية التى صاغها العقل البشرى الذى يتعرض للخطأ والهوى والسهو والنسيان .. أما القوانين الإلهية فهى فى عصمة من كل ذلك لأنها من لدن حكيم خبير . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[4]

وينبغى أن نشير هنا إلى أمر هام تدعمه الشريعة الإسلامية فى طريق تطبيقها وهو أنه يترتب الجزاء على العمل بصورة قاطعة لا يفلت أحد من الجزاء الذى أعده علام الغيوب ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[5] ، فمن أفلت من العقوبة فى الدنيا فلن يفلت من عذاب الله يوم القيامة . ومن أجل هذا كان الإسلام يركّز على جانب المراقبة والخوف من الله تعالى ، وأن الناس قد يستطيعون الإفلات من قوانين الأرض وقد يستطيعون التهرب من الناس والاختفاء عن عيونهم ، ولكنهم لا يستطيعون ذلك مع الله الذى يعلم السر وأخفى .

❁❁❁

(١) سورة آل عمران آية (٨٥)

(٢) سورة فصلت آية (٤٢)

(٣) سورة الحجر آية (٩)

(٤) سورة الأنعام آية (١١٥)

(٥) سورة الزلزلة آية (٧ ، ٨)

لغة القرآن والسنة

للغة العربية منزلتها الرفيعة ومكانتها السامقة التى لا تطاولها مكانة بين لغات الدنيا، وكيف لا ، وهى اللغة التى اختارها الحق تبارك وتعالى ، لكتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، فقد جمل الله تعالى كتابه الكريم قرآنا عربيا محددا الحكمة فى ذلك وهى أن يكون واضح المعنى ، يعقله كل من يقرأ فيه ، أو يتدبر معانيه . قال سبحانه وتعالى مقسما بكتابه : —

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (١)

وكما يصل القرآن بقارئه والمتدبر فيه ، إلى التذكر والتفهم والاعتبار ، فإنه بعد يرقى بالإنسان إلى الغاية المنشودة والفضيلة الأم وهى «التقوى» كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢)

وإذا كان القرآن الكريم بلغته العربية المبينة وأسلوبه الإلهى المشرق ودعوته إلى الحق والرشد قد أخذ بيد الإنسان — أولا — إلى الفهم والتعقل والاعتبار والتذكر ، ثم أخذ بيده — ثانيا — إلى معرفة ربه وعبادته وإلي الإيمان به وتقوي الله . فإنه — ثالثا — يبشر السائرين على هديه العاملين به ، المطبقين لمبادئه ، وينذر الذين حادوا عن دعوته وندوا عن منهجه فإن آياته المفصلة الواضحة قد ميزت الحق من الباطل والخير من الشر والحلال من الحرام قال تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة الزخرف الآيات (١ — ٤)
(٢) سورة الزمر آية (٢٧ ، ٢٨)
(٣) سورة فصلت آية (٣ ، ٤)

وأن اللغة العربية كما هى لغة القرآن الكريم فهى لغة الحديث النبوى الشريف الذى يمثل المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم وما ينطق عن الهوى إن هو إلاوحى يوحى .

واللغة العربية كذلك هى لغة الأدب العربى الرفيع والحكم الفاضلة ، إنها الوعاء النقى الذى نقل إلينا أشرف وأعظم تراث عرفته البشرية منذ وجودها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن أجل هذه المكانة العالية فإن سلفنا قد أولوها كل عناية ورعاية بحثا وتأليفا وتدوينا وتعريفا بأصولها وقواعدها وما يتصل بها من دراسات دقيقة وعميقة . بيد أن هذه الدراسات يجب أن تفتح عينيها جيدا على ما يحاك للغة القرآن وما يدبر لها من أعداء الإسلام من مخططات حاقدة ماكرة .

مخططات ضد لغة القرآن :

إن تلك المخططات حاولت من قبل ، تصويب سهامها نحو القرآن نفسه – فرد الله كيد الأعداء فى نحورهم ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى تكفل بحفظ كتابه الكريم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

فلما لم يجدوا أملا فى اقتحام حمى القرآن راحوا فى محاولات يائسة وخطى لاهثة حول السنة الشريفة ليحاولوا الدس أو التحريف وتلفيق بعض الدعاوى الباطلة والشبه الواهية التى لا أساس لها .

ولكن الله الذى تكفل بحفظ كتابه لم يكن ليدع سنة رسوله ﷺ وهى المبينة للقرآن فتصدى لهؤلاء الأعداء قديما وحديثا من أئمة الحديث وحفاظه من صانوا السنة من الدخيل وحفظوها من الترهات والأباطيل .

فماذا بعد يصنعون ؟ إنهم نظروا إلى هذا التراث الإسلامى العريق وإلى هذا الدين القيم الخالد فوجدوا أنه من أقوى أسباب رفعة المسلمين وعزتهم ، فخططوا للإبعاد عنه أو تفريغ المسلمين منه ، ذلك أنهم وجدوا الوعاء الذى يحمل هذا التراث إنما يتمثل فى اللغة

(١) سورة الحجر آية (٩)

العربية فعملوا جاهدين على القضاء على تلك اللغة ومن هنا انطلقت الدعوات المغرضة المسفة تدعو إلى هجر اللغة العربية وإثارة بعض الدعاوى الباطلة التى تقول بأنها صعبة وعسيرة وأخرى تقول بأنها لا تستجيب لمتطلبات الحياة وهكذا.

وإذا استوقفنا تلك الدعوات الباطلة وقلنا : وما السبيل إذن ؟ فيكون الجواب : أن نستبدل بها اللغة العامية بلهجاتها الدارجة .

وكلها كما نرى دعوات تطفح بالحقد على الإسلام وتراثه ولغته ، ولم يعد خافيا على أحد من الناطقين بهذه اللغة ولم يعد خافيا على المسلمين تلك المحاولات والحملات فى غزوها الفكرى أو تخطيطها العدوانى .

وقد بقيت اللغة العربية بحمد الله حاملة أشرف تراث لم تنل منها ضربات أعدائها لأنها أرسخ من أن تصاب بشىء ، وأعظم أثرا وأعز جندا . إنها أغنى لغات الدنيا وأوفى بحاجات الحياة ومتطلباتها ، وهى التى حملت التراث الضخم العظيم قرونا متطاولة لم تتعثر لها خطوة ولم يخفت له بريق . إنها ثرية بألفاظها ومعانيها واشتقاقاتها تحتوى على كل ما هو حسى ومعنوى ، وهى لسان حق وصوت صدق وهى بعلوها تمثل السياج المنيع والمعقل الحصين للإسلام وتعاليمه فالذود عن حامها جهاد فى سبيل الحق وفى سبيل الكتاب والسنة .

خطر الدعوة إلى العامية :

ودعاة العامية – اليوم – إنما هم امتداد لمن سبقوهم من حملة المعاول المتسلطة الذين أرادوا أن يدكوا قلاع هذا التاريخ الشامخ ، وأن يفصلوا تلك العرى الوثقى التى حملت اللغة العربية التعبير الحقيقى لها وكانت اللسان المتجاوب فى شتى الأقطار العربية والإسلامية والمترجم لآمال وآلام الإنسانية على مر أدوار تاريخها .

وإذا كانت الدعوة إلى العامية واستبدالها بالفصحى يعنى الخطر الداهم على الدعوة الإسلامية فهذا ما يطمح له الاستعمار والصليبية وما تستهدفه الصيهونية والشيوعية ، فإن هناك خطرا آخر يترتب على ذلك أيضا وهو فصم أهم روابط التضامن الإسلامى والوحدة بين البلاد الإسلامية ذلك لأن اللغة الفصحى إذا أهملت وحل محلها اللغة العامية سيتعذر

التفاهم والتواصل وتنضب روافد العلم و الفكر والأدب بين البلاد وفى هذا تذويب الشخصية وتخريب وتغريب .

وقد لعب المستشرقون دورا خطيرا فى الدعوة إلى العامية ومحاولة تجميد الفصحى وانخدع ببريقهم الكثير ممن فتن بالمحاكاة ووقع فريسة التبعية والتقليد واتخذوا لذلك محاور مختلفة ، فمرة يتجهون للأدب الأصيل وأخرى للقصيدة العربية العريقة التي تميزت بالوزن الرصين والقافية الثابتة فنادوا بالتحرر من الوزن والقافية وطفا على سطح الأدب المعاصر ما يسمى بالشعر الحر ، وأخذ هذا اللون فى الهبوط والإسفاف لدرجة تخلى فيها تماما عن المعانى النبيلة والقيم الرفيعة ، وراح الفكر يتحلل من الأدب نفسه متمردا على اللغة وأصولها وأهدافها ، وتقنع بالألغاز والتمويه والإغراق فى الغموض إلا ما يظهره من معانى الخلاعة والمجون محاولا صياغته فى قالب براق ليستهوى الشباب ، وعشاق الكلمة النابضة الحية وهو فى داخله ينطوى على السم والضياع ، إن مخططات أعداء الإسلام إذاً تكشفت فى كل جوانبها وتصاعد منها هذا الدخان لتأخذ فى شكل ظالم متبجح لا ينبغى السكوت عليه من كل غيور على دينه وتراثه .

جهاد أهل الغيرة :

وليس معنى هذا أن أبناء الإسلام أو الناطقين بالضاد قد وقفوا مكتوفى الأيدى أمام ما يحاك لدينهم ولغتهم فإنهم لأعدائهم بالمرصاد ، ولطالما ردوا وجاهدوا فى هذا الميدان جهادا كبيرا منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وإنا على الدرب سائرون .

وإن جهادنا مستمر وكذلك ذوى الغيرة عليها ..

وفى هذا إعلان للأقلام المشرعة فى وجه الباطل أنها ثابتة على الحق قوية بالله معتزة بدينها ولغتها لا تأخذها فى الحق لومة لائم مستمرة فى مسيرة الجهاد المبرور .

وإنا لنأخذ على عاتقنا ونحن بين طلابنا أن تكون اللغة العربية هى وسيلة التخاطب والتدريس والتفاهم . ونبث روحها وتعبيرها والجهاد من أجلها فى سائر المجالات حفاظا على لغة القرآن الكريم وتعويدا للطلاب على النطق الصحيح بها والتفاهم على ضوئها .

ونحن إذ نحمل الأمانة لنؤديها خير الأداء ففى ذلك تدعيم وتقوية للنهوض بها وصد كل الحملات الطائشة الظالمة التى تبيت لها . إن هذه المهمة التى يقوم بها كل مدرس أو

أستاذ بين تلاميذه وكل داعية بين قومه إنما تمثل تجنيد الطاقات وتجميعها فى إطار واحد لمجابهة عدو لدود .

وبدون هذا التدعيم وغيره من الوسائل الأخرى لا يمكن مناهضة تلك الموجات السافرة التى تحاول اجتياح اللغة وآدابها متسربة إلى أصول تراثنا العريق . كما يجب العناية بمناهج اللغة فى كل مراحل التعليم فى سائر البلاد الإسلامية والتركيز على تربية الأجيال على أساس الكتاب والسنة وفهم أصول الإسلام وتعاليمه ، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق اللغة ورعايتها فإن اللحن فى اللغة العربية يترتب عليه ضياع المعنى وعدم فهمه ، ولقد كانت اللغة العربية إلى جانب مهمتها العالية ورسالتها الشريفة فى حمل تراث الإسلام وترابط الأمة الإسلامية على وحدة كبرى تجمع سائر الأقطار فى إطار واحد ، إلى جانب هذا كانت تمثل سلاحا قويا فى صدر الإسلام يردكيد الأعداء وينافح عن دعوة الحق بالقصيدة العربية الفصيحة والشعر العربى الأصيل ، فإذا ما حاول أعداء الإسلام النيل منه عن طريق اللسان بعد السنان كان عل المسلمين أن يجاهدوهم بمثل ما يحاربونهم به ، ولذا فإن القرآن الكريم عندما أبان شأن الغاوين والضالين ، من أعداء الإسلام ونفى عن القرآن كونه شعرا ونفى عن الرسول ﷺ كونه شاعرا ردا لما يثار حول القرآن أنه شعر وحول الرسول من أنه شاعر وأن ذلك كله لا أساس له ، فقد قال الله تعالى

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾[1]

وحين بين القرآن شأن المضلين من الشعراء الذين حاربوا الدعوة الإسلامية وجعلوا شعرهم فى النسيب والغزل وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ، استثنى الله تعالى شعراء الإسلام الذين حملوا لواء اللغة العربية وساروا بها نحو الحق ، ودافعوا عن الإسلام ورسوله وعن الدعوة والمسلمين .

وكان شعرهم آنئذ يمثل السلاح الذى لابد منه فى حينه وفى كل وقت ، قال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ

(١) سورة يس آية (٦٩)

مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1]

وهكذا استثنى الله تعالى شعراء الإسلام وأشاد بأعمالهم المجيدة فى نصرة الإسلام ودعوته ، وكانت أشعارهم فى التوحيد والحث على طاعة الله ، والانتصار ممن هجاهم من أعداء الإسلام ، وكان من شعراء الإسلام فى هذا المضمار ، حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة، وغيرهما ممن نافحوا عن الإسلام ودافعوا عنه، فرضوان الله تعالي عليهم أجمعين .

❀❀❀

(١) سورة الشعراء الآيات (٢٢٤ – ٢٢٧)

دلائل القدرة الإلهية

إن دلائل القدرة الإلهية فى السموات والأرض على خالق الكون وعلى وحدانيته وأنه المحيى والمميت دلائل تفحم كل الملحدين والوجوديين وأرباب المذاهب الهدامة قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1]

إن قدرة الله تعالى على كل شىء واضحة لدى كل مؤمن ، فإن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض ، وبيده مقاليد كل شىء ، وهو المحيى والمميت وهو على كل شىء قدير ، وهو الذى يبعثنا بعد الموت ، وأدلة البعث كثيرة وواضحة تمام الوضوح ، ولا ينكرها إلا جاحد ومعاند ، فالله سبحانه قد خلق الإنسان من العدم ، وهو الذى يحييه ويبعثه، وفى هذه الآيات الكريمة ، رد على من أنكر البعث واستدلال قوى ببدء الخلق على إعادته ، فإن الله تعالى الذى خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، ومن نطفه ضعيفة ، قادر على إعادته بعد موته .. ولقد جاء أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته، ويذروه فى الهواء ، وهو يقول : يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار [2]. ونزلت هذه الآيات من آخر سورة «يس» :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

---

(١) سورة يس الآيات (٧٧ – ٨٠)　　　(٢) رواه ابن جرير

والآية عامة فى كل من أنكر البعث ، والألف واللام فى قوله تعالى : «أولم ير الإنسان» للجنس يعم كل منكر للبعث ، ولقد مات أبى بن خلف على الكفر والضلالة كما أخبر الرسول ﷺ .

وأن الله تعالى الذى أنشأ تلك العظام البالية أول مرة ، وهو الذى يحييها ويبعثها وهو بكل خلق عليم ، يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها . أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت ، وفيما رواه الإمام أحمد بسنده ، قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ .

فقال : سمعته ﷺ يقول : «أن رجلا حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصي أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطبا كثيرا جزلا ، ثم أوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى ، فامتحشت – أى احترقت – فخذوها فدقوها فذروها فى اليم ، ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له » [1] .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، وهو فى الصحيحين بلفظ : «أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فى يوم رائح أى كثير الهواء ففعلوا ذلك فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ماصنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم ، فما تلافاه أن غفر له» ثم أوردت الآيات الكريمة دليلا آخر على قدرة الله تعالى وعظمته وعلى الموت والحياة وعلى البعث ، وذلك بما فى الكون من مخلوقات ، وبما أنبته الله تعالى فى الأرض من أشجار ، فهو سبحانه قد بدأ خلق الشجر أخضر نضرا مثمرا ثم هو سبحانه الذى يعيد الشجر حطبا يابسا توقد به النار . ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ وقال قتادة فى هذه الآية : يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه،وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار يأتىمن أراد قدح النار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم

إنها قدرة الله تعالى الذى يفعل ما يشاء ، ويخلق مايشاء ، فهو الفعال لما يريد لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف ساغ لأولئك الجاحدين والمعاندين أن ينكروا البعث ؟ وشواهده من الوضوح بمكان بحيث لاينكره صاحب عقل ، ولكن إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

لقد اتضح دليل البعث من خلق الإنسان ووجوده بعد العدم ، وبعد أن لم يكن شيئا مذكورا . وهذا دليل على أن البدء من العدم أكبر والقادر على خلق الإنسان من العدم وعلى خلقه أول مرة قادر على إعادته وعلى البعث والنشور والحساب والعقاب . وهذا دليل من نفس الإنسان ومن خلق الإنسان .

وهناك دليل آخر كونى ، يتضح من هذه الأشجار التى خلقها الله تعالى وجعل من شجرها الأخضر نارا يوقدون منها ، وأنها أدلة قوية وشواهد ناطقة بأن الله سبحانه قادر على البعث والإعادة ، قادر على الحياة والموت ، قادر على كل شىء ، لأنه خالق كل شىء ، فلا معبود غيره ولارب سواه ، تبارك الله رب العالمين .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

وفى هذه الآيات الكريمة استدلال على البعث ، وعلى إعادة خلق الأجساد ، وذلك بالتنبيه والإشارة إلى خلق السموات والأرض ، فالسموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والأرض وما فيها من جبال وبحار ، وقفار وأشجار وأنهار فى خلق هذا الكون الفسيح، والملكوت الكبير دليل على البعث والنشور ، وعلى إعادة الناس ، لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، فخالق هذه المخلوقات وهو الله سبحانه وتعالى قادر على خلق الناس ، وإعادتهم وبعثهم بعد موتهم ، فهو الذى بدأ الخلق وهو الذى يعيده وهو على كل شىء قدير . وقال تعالى فى آية أخرى :

---

(١) سورة يس الآيات (٨١ – ٨٣)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

فهو سبحانه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو سبحانه الخلاق العليم، لا خالق سواه ، فهو الواحد الأحد القادر العظيم الذى يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون ، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .. وأمره تعالى نافذ ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه إذا أراد نفذ المراد وأمره واحد لا يحتاج إلى تكرار ،

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

وهو سبحانه المنزه عن الخلق ، الملك القدوس إليه يرجع الأمر كله ، له الخلق والأمر ، وله المرجع والمآب ، وهو العادل الذى يجازى كل إنسان بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . له كل شيء وإليه ترجعون .

وتنزيه الله تعالى وتسبيحه من أهم ما ينبغي أن تشتمل عليه عبادة المسلم آناء الليل وأطراف النهار فى عمله وسيره وعبادته ، ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى العبادة، وفى تسبيح الله وحده وشكره ، روى الإمام أحمد – بسنده – عن حذيفة وهو ابن اليمان رضى الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : «الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاى (٢) .

وفيما رواه أبو داود بسنده – عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، قال : ثم ركع بقدر قيامه يقول فى ركوعه «سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة (٣) .

(١) سورة الأحقاف آية (٣٣) (٢) رواه أحمد

(٣) رواه أبو داود

والآيات الكريمة ، تؤكد وتوضح الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على قدرة الله العزيز الحكيم ، وعلى البعث ، وإعادة الناس . والإيمان بالبعث أو اليوم الآخر من صميم العقيدة الإسلامية ، ومن أركان الإيمان بالله تعالى ، ففى حديث جبريل حين سأل الرسول ﷺ عن الإيمان قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١) ، وفى رواية قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر». واختلف فى المراد بالجمع بين الإيمان بلقاء الله تعالى والبعث ، فقيل : اللقاء يحصل بالانتقال إلى دار الجزاء والبعث بعده عند قيام الساعة ، وقيل : اللقاء ما يكون بعد البعث عند الحساب .

وقال الإمام النووى ، وأما وصف البعث بالآخر. فقيل هو مبالغة فى البيان والإيضاح وذلك لشدة الاهتمام به ، وقيل سببه أن خروج الإنسان إلى الدنيا بعث من الأرحام وخروجه من القبر للحشر بعث من الأرض ، فقيد البعث بالآخر ليتميز .

هذا الإيمان بالبعث أعظم دافع للإنسان ليأخذ من حياته زادا لآخرته كى يفوز برضا ربه سبحانه وتعالى فى اليوم الآخر .

وكما ثبتت أدلة البعث والإعادة عن طريق خلق الإنسان وخلق الأكوان فقد ثبت كذلك عن طريق الإيمان بأن الله تعالى حكيم وعادل .

فما دام الخالق حكيما وعادلا فيستحيل عليه العبث والظلم ، كما قال سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(٢)

❁❁❁

(١) رواه البخارى

(٢) المؤمنون آية (١١٥ ، ١١٦)

الزكاة على الأقارب والإنفاق من أحب المال

روى الإمام مسلم - بسنده - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : «كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحا ، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (١)

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : إن الله يقول فى كتابه : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وإن أحب أموالى إلى بيرحا وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت . قال رسول الله ﷺ : بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح قد سمعت ماقلت فيها ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه (٢).

كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يصدرون فى عمل من الأعمال إلا عن الوحى الإلهى ولا يستقون رشدهم وهداهم إلا من مشكاة النبوة فهم يتلقون ما ينزل به الوحى ، ليطبقوه عملا وسلوكا ، ويستوضحون من رسول الله - ﷺ - أحكام دينهم ، وما ينبغى أن يكونوا عليه . وفى هذا الحديث مشهدان من هذا القبيل ، فأبو طلحة رضى الله عنه كان أكثر الأنصار مالا من نخل ، وأحب أمواله إليه بيرحا - وهى تلك الأرض الخصبة ذات الحدائق المثمرة والنخيل الطيب وإلى جانب هذا فقد كانت تتمتع بموقع ممتاز ، فهى مستقبلة المسجد وتعرف بطيب مائها العذب الذى بورك بشرب رسول الله ﷺ منه ، كما بوركت هى بخطاه الشريفة فيها ، ومع أن أبا طلحة يعتز بها ولم تكن فقط من ما له المحبوب لديه ، بل كانت أمواله كلها ، مع هذا فإنه عندما نزلت الآية الكريمة

---

(١) سورة آل عمران آية (٩٢)   (٢) رواه مسلم

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ نهض مسرعا بتلبية الدعوة الإلهية ليحظى بدرجة البر التى هى جماع الخير كله ، لا لينفق مما يحب فحسب ، بل لينفق أحب شئ إلى نفسه ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليعلن أنها صدقة لوجه اللـه ، وليقدمها راضية بها نفسه قائلا : إنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضـعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فبشره رسول الله ﷺ . ولما رأى من حسن صنيعه ودلائل إخلاصـه قال له «بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، نعم فما كان لوجه اللهفهو رابح ، وما كان فى أيدى الناس فهو إلى زوال ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1] ثم أشار عليه أن يجعلها فى الأقربين ، فقسمها أبوطلحة فى أقاربه وبنى عمه وله أجر الصلة والصدقة .

ويستهدف هذا الحديث عنصرا من أهم عناصر البر بعد الإيمان وهو إنفاق ما يحبه الإنسان ثم يشير إلى الدرجة الأولى من المستحقين وهم ذوو القربى ، وقد جاء ذلك صريحا فى القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾[2]

أما الإنفاق مما يحبه الإنسان ، ففيه تحرير للنفس الإنسانية من الحرص والأثرة و عبودية المال تلك الآفات التى تطفئ أريحية النفوس وتذل أعناق الرجال وتدفع إلى التكالب والتناحر بين أفراد الجماعة الواحدة .

وقد جاء الأمر الإلهى بالإنفاق من الطيبات ، ونهى الله الجماعة المؤمنة أن يتجه قصدهم فى الإنفاق من الردئ و الخبيث الذى لو كان فى صفقة ما قبلوه إلا بأن ينقصوا قيمته ، بل لو قدم لهم هدية من الهدايا ما أخذوه إلاحيـاء من رده . فالله تعالى غنى عن

---

(١) سورة النحل آية (٩٦) (٢) سورة البقرة آية (١٧٧)

عطائهم ، وما عطاؤهم إلا لأنفسهم فليتحروا أحبه وأطيبه الذى يحمده الله لهم ويجزيهم عليه خير الجزاء قال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(١)

ولقد كان اتجاه أبو طلحة إلى إنفاق أحب ماله نابعا من نفسه السمحة ، تلبية لنداء ربه سبحانه وتعالى ، وفوض الرسول ﷺ أن يضع صدقته حيث يلهمه الله فلم يحدد نوعا من المستحقين دون نوع ولم يخص جماعة دون أخرى وقال : فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فأشار الرسول ﷺ على أبى طلحة أن يجعلها فى الأقربين .

ومما لا شك فيه أن فى الإ نفاق على المستحقين من ذوى القربى صلة للرحم ، وصدقة مبرورة ، وكيف لا وفى النفاق عليهم مزيد في المثوبة وتوثيق لوشائج القربى .

❁❁❁

(١) سورة البقرة آية (٢٦٧)

الأسرة وعلاقاتها

للأسرة علاقات كثيرة بغيرها من الأسر الأخرى ، وأولى هذه العلاقات علاقة أسرتى الزوجين فليس الزواج علاقة رجل بامرأة فحسب ، ولكنه إلى جوار ذلك علاقة وثيقة بين الأسرتين . وقد أعطى الإسلام ولى المرأة حقوقه المشروعه حفاظا على المرأة وحفاظا على الأسرة ، ومعلوم أن الزواج إذا لم تتحقق فيه الكفاءة أو كان هابطا من سوء الاختيار القاصر بين الطرفين فقط فإن عاقبته الأليمة لا تقتصر على الزوجة وحدها ، وإنما يمتد العار والعيب إلى الأسرة كذلك.

فما قرره الإسلام من الولاية المستقيمة الجادة ومن الإشراف على المرأة وتوجيهها واختيار الحياة الفاضلة لها ، كل هذا يتمثل فيه الرعاية الحكيمة الرحيمة التى تتحقق بها مصلحة المرأة ومصلحة الأسرة . وقال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ (١)

قال : يعنى أمراء عليهن ، أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . وكذا قال مقاتل والسدى والضحاك ، ومن هنا تتضح لنا نظرة السلف العميقة فى علاقة الأسرتين ، أن على المرأة أن تكون محسنة لأهل زوجها حتى تظل رابطة المصاهرة نقية صافية ، تشرق بالود والحب والتعاون ، وهذا أمر له أهميته الكبيرة وله صداه على علاقة الزوج بامرأته ، إن مثل هذا يضفى على قلبه حبا على حب ، وحنانا على حنان ، حينما يرى امرأته مستقيمة مع أهله متجاوبة مع قلوبهم ، مرتبطة بهم برباط المودة والتعاون وبمدى هذه الرابطة من الزوجة أو من الأسرة الصغيرة تقوى رابطة الأسرتين الكبيرتين ، وتنمو عواطف الخير بينهم جميعا ، ولا تقتصر علاقة الأسرة بغيرها

---

(١) سورة النساء آية (٣٤)

على الأسرة التى ترتبط بها برباط الزواج والمصاهرة وإنما هناك علاقات أخرى شرعها الإسلام وأحاطها بسياج منيع من تعاليمه المحكمة السديدة ، التى لا لبس فيها ولا غموض وإنما هى واضحة مفصلة .

فهناك علاقة الأسرة بجيرانها ، وهى علاقة يبيحها الإسلام فى الحدود المشروعة دون اختلاط الرجال بالنساء وإنما تقوم علاقة التعاون والتعاطف بين الرجال بعضهم مع بعض ، أو بين النساء بعضهن مع بعض ، شريطة ألا يتخذ ذلك، ذريعة للقيل والقال والهجر من الكلام ، أو التباغض أو المباهاة ، وتقليد الأسرة لغيرها .فقد تكون هناك أسرة موسرة ، ولديها من المال ما تستطيع أن تؤثث به بيتا كبيرا أو تشترى أشياء ثمينة غالية ، وبجوارها أسرة فقيرة ،فتدب الغيرة ، أويتولد التقليد إلى غير ذلك مما يحدث فى كثير من البيوت . ولقد دعا الإسلام النساء المسلمات إلى قبول ما يقدم إليهن مهما كان قليلا، وحث على التهادى فقال ﷺ: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» [1]. ومعناه عظم قليل اللحم ، وهذا فيه زيادة تأكيد على الروابط الأسرية.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال له : يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : هى فى النار ، ثم قال: يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وإنها تتصدق بالأثوار من الأقط – أى قطع الجبن – ولا تؤذى جيرانها ؟ قال هى فى الجنة [2] .

هذه بعض العلاقات بين الأسر وضحها الإسلام وحث على أن تكون صافية مستقيمة قائمة على أساس من الإخلاص والمودة والمحبة .

❀❀❀

---

(١) رواه البخارى

(٢) رواه أحمد

من ركائز التضامن الإسلامي

قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١)
في هذه الآية الشريفة ، يقرر الإسلام أخوة الإيمان ، وأنها لا تتقيد بعلاقة النسب ، فإن أخوة النسب تنقسم بمخالفة الدين ، ولكن أخوة الدين لا تنقسم بمخالفة النسب . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولاتجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا» (٢) والتجسس: هو الاستماع لحديث القوم ، والتناجش : هو أن تزيد في ثمن السلعة دون رغبة في شرائها لتحريض الغير عليها ، وفي رواية أخرى بلفظ مسلم يبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه حقوق هذه الأخوة وواجباتها «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٣).

ومن الواجبات المترتبة على أخوة الإيمان بين المسلمين ما جاء في الآية الشريفة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾.. فالإصلاح بين كل مسلمين أوطائفتين واجب تمليه أخوة الإيمان ، وقد مهدت الآية الشريفة طريق الإصلاح بالتزام التقوى ، حتى لا يحيد المصلحون ولا يحابي بعضهم بعضا، بل يكون العدل رائدهم والتقوى طريقهم، وبهذا تتحقق الغاية الكريمة وهي رحمة الله بالمؤمنين دنيا وأخرى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ويدعو القرآن الكريم جميع المؤمنين أن يطهروا البيئة الإسلامية من رذائل شتى:

١ — منها الرذائل الظاهرة التي تتعلق بالجوارح كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب .

(١) سورة الحجرات آية (١٠) (٢) سورة البخاري ومسلم

(٣) رواه مسلم

٢ -ومنها الرذائل الباطنة التي تتعلق بالمشاعر كالظن .

أما الأولى الظاهرة : فيقول فيها القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾(١) فينهى الله تعالى عن سخرية بعض الناس ببعض ، فعسى من سخروا منه أن يكون خيرا منهم عند الله تعالى ، فى عقيدته وفى عمله وفى باطن أمره .فإن مقاييس الخيرية ليست فى المظهر ولا فى الشكل ، ولكنها فقط فى التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(٢) وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(٣)

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نرى أنه ورد فى سبب نزولها آراء منها : أنها نزلت فى وفد بنى تميم عندما استهزؤوا بفقراء الصحابة أمثال عمار وبلال وخباب وابن فهيرة وصهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ، لما رأوا من رثاثة حالهم . .

وقيل : نزلت فى سخرية الغنى بالفقير ، وقيل : فى عكرمة بن أبى جهل ، فعندما جاء إلى المدينة مسلما كان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس : نزلت فى ثابت ابن شماس كان فى أذنه وقرفإذا سبقوه إلى مجلس النبى ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبى ﷺ فلما إنصرف النبى ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه فرضى كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه - أى لزموه - فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا ، فيظل قائما فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبى ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح فقال الرجل : قد

---

(١) سورة الحجرات آية (١١)
(٢) سورة الحجرات آية (١٣)
(٣) رواه مسلم

وجدت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت من خلفه مغضبا ثم قال : من هذا ؟ قالوا : فلان ، فقال ثابت : ابن فلانة ، يعيره بها يعنى أما له فى الجاهلية فاستحى الرجل فنزلت [1] .

وقد نصت الآية على النساء كذلك وأفردتهن بالذكر فى النهى عن السخرية ، وذلك لأن السخرية تقع كثيرا منهن « فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه » ولذا نص عليهن فيقول : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

وقد جاء فى سبب نزولها أن امرأتين من أزواج الرسول ﷺ سخرتا من أم سلمة عندما ربطت خصريها بثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذه سخريتها . وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبى ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر . وقيل : نزلت فى عائشة أشارت بيدها : يابنى إنها لقصيرة ، تعنى صفية بنت حيى رضى الله عنها ، وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن النساء يعيرننى فأنزلت هذه الآية . .

وقد نهى الله تعالى كذلك عن اللمز (وهو العيب) ، ويكون تعبيرا باليد ، أوالعين أو اللسان أو الإشارة .

وأما الهمز فيكون باللسان. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ ويدل هذا التعبير الحكيم على أن المؤمنين نفس واحدة، فلا يليق بهم أن يعيب بعضهم بعضا، وكما لا يعيب المؤمن نفسه لا ينبغى أن يعيب غيره ، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

دون تنابز

ومن الرذائل التى نهى عنها الإسلام : التنابز بالألقاب . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قيل إنها نزلت فى بنى سلمة ، قدم رسول الله ﷺ وليس رجل إلا وله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى

اسمان أو ثلاثة فجعل رسول الله ﷺ يقول : يافلان ، فيقولون : مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم ، فنزلت الآية ، وقال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره كأنه يقول له : يايهودى يا نصرانى ، فنزلت الآية ، وقال قتادة : وقول الرجل للرجل يافاسق يامنافق . .

قال تعالى : ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ يقول ابن زيد أى بئس أن يسمى الرجل كافرا أوزانيا بعد إسلامه وتوبته . . وقيل : من لقب أخاه أوسخر منه فهو فاسق . أما بعض الصفات التى يكون ظاهرها الكراهة ، ولكن لا يراد بها العيب حين التحدث بها فلا بأس بها .وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول حميد الطويل ، سليمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصفر ، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به .

وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة التى نهى فيها عن تلك الرذائل بتهديد من تسول له نفسه الاسترسال فى مثل هذه المعايب بأنه وقع فى الهلاك وأصبح من الظالمين لأنفسهم لارتكابها فقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وإذا كان التنابز بالألقاب مما يعيب المسلم ويمزق ود الصدور ، فإن بديله وهو نداء المسلم لأخيه بأحب الأسماء مما يصفى له ود أخيه ، يقول عليه الصلاة والسلام«ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه» (١).

ومثال النوع الثانى وهى الرذائل الباطنة التى تتعلق بالقلب والشعور: (ظن السوء) وقد حذر الله تعالى من الظن فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(٢) وقد نزلت هذه الآية الكريمة كما قال أبو عبد الله القرطبى فى رجلين من أصحاب النبى ﷺ اغتابا رفيقهما ، وذلك أن النبى ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ، ولم يهيئ لهما شيئا فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما فقالا له : انطلق فاطلب لنا من

(١) رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الإيمان

(٢) سورة الحجرات آية (١٢)

النبى ﷺ طعاما وإداما فذهب فقال له النبى ﷺ : اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عنده فضل من طعام فليعطك. وكان أسامة خازن النبىﷺ فذهب إليه فقال أسامة :ما عندى شئ ،فرجع إليهما وأخبرهما، فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل ثم بعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة – وهى بئر قديمة بالمدينة بها ماء غزير – لغار ماؤها ، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شئ فرآهما النبى ﷺ فقال : مالى أرى خضر اللحم فى أفواهكما ؟ فقالا: يا نبى الله والله ما أكلنا فى يومنا لحما ولا غيره ، فقال : ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[1] .. والظن الذى تحذر الآية منه هو :الظن الذى يقوم على اتهام لا أساس له ولا سبب يوجبه .

ومن الرذائل المنهى عنها «التجسس » وهو البحث عما يكون خفيا عن الإنسان كمن يتهم إنسانا بفاحشة أو بشرب الخمر مثلا دون أن يبدو له ما يقتضى ذلك أو أن تظهر له علامة على تحقيق ظنه،كأن يكون المظنون به من أهل الصلاح والتقوى فإن ظن السوء به حينئذ يكون محرما ، هذا بخلاف من عرف واشتهر بين الناس بمخالفة الشرع والمجاهرة بالمعاصى فلا يكون الظن به محرما .

هذا ويترتب على الظن التجسس ثم الغيبة ، وذلك لأن مجرد التهمة يكون سببا فى البحث عما ساور الإنسان من خاطر فيحاول التجسس ليتحقق مما يظنه فينتقل من درجة الظن إلي درجة التجسس ثم يدعوه وقوفه بالتجسس على بعض ما يعلم أو ما لا يعلم إلى غيبة أخيه فينتقل إلي درجة أسوأو حالة أكبر وهى الغيبة وهكذا.

وينقى الإسلام جو المجتمع على مختلف طبقاته ويوضح كيف يتفاقم الخطر من جراء الظنون السيئة بين الناس بعضهم مع بعض ، بل وبين الحاكم والمحكوم ، فحين يبتغى الحاكم الريبة فى الناس يفسد ذات بينهم ، ويوضح الرسول ﷺ خطر الغيبة والتجسس ويبين نتائجها السيئة التى لاتقتصر على الآخر فحسب ، بل إن المغتابين والمتجسسين ينالون

---

(١) رواه البخارى ومسلم

جزاءهم فى الدنيا وعقابهم فيها قبل الآخرة ، قال ﷺ «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع اللهعورته، ومن اتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته» [1]. **ولذلك أدرك سلفنا الصالح خطر التجسس فنهوا عنه وحذروا منه .**

فقد كان سلفنا الصالح يدركون خطر التجسس ومدى حرمته ، فكانوا يبتعدون عن التجسس وعن تتبع أسرار الناس حتى ولو ترتب على ذلك إقامة حكم من أحكام الشريعة ، أو إقامة حد من حدود الله ، قال عبد الرحمن بن عوف :حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهما الآن شرب فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه .. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقد تجسسنا وانصرف عمر وتركهم.

كفارة الغيبة

ومن الرذائل المنهى عنها الغيبة قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ وقد فسر الرسول ﷺ معنى الغيبة : ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله قال «أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا :الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره» قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ماأقول ؟ قال «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» [2].

وقد رأى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج صورة محسوسة لأولئك المعتدين المغتابين وكيفية عذابهم ، عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ «لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون فى أعراضهم» [3] .وقد صور القرآن الكريم صاحب الغيبة فى هيئة مستقذرة ، وصورة تدل على خسة الطبع ودناءة النفس وفساد

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي. (٢) رواه مسلم.
رواه أحمد وأبو داود.

القلب ، قال تعالى ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فصور الله تعالى الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبته ممن اغتابها ، ولننظر بعد تصوير الرسول ﷺ للغيبة: روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه حين جاء ماعز إلى النبى ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه الرسول ﷺ فسمع نبى الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب ، فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : «أين فلان وفلان» ؟ فقالا :نحن يا رسول الله ، قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يانبى الله ومن يأكل هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه ، والذى نفسى يده إنه لفى أنهارالجنة ينغمس فيها » [(١)].!!

وحكم الغيبة :أنها من الكبائر ، قال رسول الله ﷺ «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » [(٢)] . واتفق العلماء على أنها من الكبائر تجب التوبة إلى الله منها ، واختلفت الآراء هل يستحل المغتاب أم لا ؟!

١- فقال بعض العلماء :ليس عليه استحلاله ، وإنما هى خطيئة بينه وبين ربه واستدل أصحاب هذا الرأى بأنه لم يأخذ شيئا من ماله ، ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس فى ذلك مظلمة يستحلها منه وإنما المظالمة ما يكون فى المال والبدن .

٢- وذهبت فرقة أخرى : إلى أن الغيبة مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه ، واستدلوا على ذلك بما روى عن الحسن : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته.

٣- وذهبت فرقة ثالثة : إلى أن الغيبة مظلمة ،وعلى صاحبها الاستحلال منها ، واستدلوا على ذلك بما أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى اللهعنه قال :قال رسول الله ﷺ «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شئ فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» [(٣)] .

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه أحمد البخاري.

والذى نرجحه : هو الرأى الثالث القائل بأن على الذى اغتاب الاستحلال من غيبته لحديث البخارى ، فهو يدل على التحليل ، وحديث الرسول ﷺ هو الحجة والبيان الصحيح ولأن التحليل كذلك يدل على التعاطف والتراحم وهو من قبيل العفو قال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1] اللهم إلا إذا ترتب على الاستحلال خطأ شديد ، ومخافة أن يجر إلى اندلاع فتنة كبرى فإنه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الوقت الملائم له ويقول بالتوبة والاستغفار لأخيه .

وأما الرأيان الثانى والأول : فنرى أن أصحاب الرأى الأول ينفون الاستحلال متعللين بأنه لم يصب مالا ولا بدنا فليس فى ذلك مظلمة ، والحق : أن إجماع العلماء منعقد على أن على القاذف للمقذوف مظلمة بأخذه بالحد حتى يقيمه عليه ، وذلك ليس فى البدن ولا فى المال ، فهذا دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال ، وأما الرأى الثانى القائل : أنها مظلمة يستغفر لصاحبها ففيه تناقض لأن قولهم «مظلمة» يثبتون ظلامة المظلوم وإذا ثبتت لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له ، وهذه الأحكام سارية فى سائر المظالم . وأما صاحب الهوى والفاسق المعلن فسقه والإمام الجائر فكل هؤلاء لا غيبة فى حقهم فإن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، بل إن ذكرهم بما هم عليه يحذر ويكشف عوارهم .

قال ﷺ : «اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس»[2] وإذا كانت واجبات الأخوة فى الدين تقتضى تكريم المؤمن ونفى كل الرذائل عن دائرة نفسه ومجتمعه وتحتم احترام المسلم لأخيه ومساعدته له وعدم التعرض بما يسيئه فى نفسه أو ماله أوعرضه .

إذا كانت هذه وغيرها من أسمى المبادئ لتكريم الإنسان المسلم فإن الله تعالى قد وسع دائرة هـذه الأخـوة فلم يجعل للأسرة الإسـلامية حدودا تحدها قرابة أونسب أوزمان أو مكان أو بيئة أو مجتمع بل إن الإسلام فتح أمام أتباعه آفاق التعارف والتآلف .

---

(١) سورة الشوري آية (٤٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا وابن عدي والطبراني.

واستهدف من وراء جعله لهم شعوبا وقبائل التعارف المثمر الذي يكمل بعضهم بعضا فى إطاره المشرق .

ولم يجعل من اختلافهم في اللون أو اللغة أو المال أو القوة سببا للتمايز والتعاظم ، فنفى أن تكون هذه الأسباب أصولا للتكريم أو قواعد للتعظيم ، وإنما جعل المعيار الحقيقى الذى توزن به منازلهم منحصرا فى شىء واحد هو «تقوى الله» ..

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

✿✿✿

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

في رحاب الرسول ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (٢) .

إن الحب ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة استحسان وتوافق كمحبة سائر الناس .

ولقد جمع الله سبحانه وتعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أصناف المحبة كلها .

والحديث السابق يوضح أن حق النبي ﷺ آكد على الناس من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ، لأن به ﷺ أنقذنا الله من النار وهدانا من الضلال .

ومن محبة الرسول ﷺ : نصرة سنته والدفاع عن شريعته ، ولا يتحقق كمال الإيمان إلا بتحقيق إعلاء مكانة النبي ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (٣) .

وواضح من نماذج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من حبهم وإجلالهم إلى

---

(١) سورة التوبة آية (١٢٨).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

الرسول ﷺ إلى أيّ مدى كان تقدير القائد والحاكم، وإذا مانظرنا إلى موقف زيد بن الدثنة عندما أسر يوم الرجيع وقدم للقتل سأله أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي . فعجب أبو سفيان وكان يومئذ غير مسلم ، وقال : ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد لمحمد ، وقتل زيد يومئذ شهيد الحب شهيد الأمانة لله والأمانة لدينه والأمانة لرسول الله ﷺ .

وأن تقدير القائد وحبه ليتجلى في تحمل المسئولية وفي طاعته مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [1]

والنصح كما قال ﷺ : «الدين النصيحة قلنا لمن يارسول الله؟ قال : لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعلمائهم»[2] وقوله في حديث آخر. «.. وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» [3] وذلك بالطاعة والخير والنصح بالحب والإجلال ، فإن الإسلام كلف المجتمع الإسلامى بالمسئولية الجماعية التى يشترك فيها المجتمع الحاكم والمحكوم حتى تسير الحياة رخاء آمنة طيبة كما في الحديث :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» [4] . والحديث يوضح أساسين للمسئولية وهما جانب الرياسة الكبرى وتتمثل في الحاكم .

والثانى : جانب الرياسة الصغرى ، ويمثلها أعضاء الأسرة وهم الزوج والزوجة والابن والخادم ، ومن الأدب الإلهى الذى دعا إليه القرآن الكريم ، ما وضحه الله تعالى بأنه أرسل رسوله ﷺ شاهدا على الإيمان للمؤمنين وعلى الكفر للكافرين ، وأرسله الله مبشرا يبشر بالفوز للطائعين ونذيرا بسوء العاقبة للكافرين والمنافقين والعاصين والمفسدين .

---

(١) سورة النساء آية (٥٩).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه مسلم ومالك.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

أما الغاية من هذا الإرسال والتبشير والإنذار فهو الإيمان بالله ورسوله ، ونصرة هذا الدين والشعور بعظمة الله وتوقيره وتوقير رسوله ﷺ وتنزيه الله وتسبيحه طرفي النهار .

ولقد جاءهم رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ليوثق صلتهم بالله ، وليعقد بينهم وبين خالقهم بيعة لانكث فيها ؛ لأنهم حين يضعون أيديهم في يد رسول الله ﷺ مبايعين فإنما يبايعون له ربهم وهم يستشعرون أن يد الله فوق أيديهم وأن الله موجود معهم فمن نقض البيعة وغدر فقد خسر خسرانا مبينا . ومن أو في بالعهد فله عند ربه أجر عظيم ، قال تعالى مصورا كل هذا ومخاطبا الرسول ﷺ والمؤمنين :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1)

وفي موطن آخر يعلم القرآن المؤمنين ألا يقدموا في أي أمر من أمور الدين أو الدنيا دون بيان الله ورسوله وألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي وألا يساووا بين أنفسهم وبينه في رفع الأصوات خشية بطلان أعمالهم دون شعور ، فأما الذين يخفضون أصواتهم إجلالا له فهم الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ، وأما الذين ينادونه من وراء الحجرات فإن أكثرهم لا يعقل ما ينبغي من الحب والإجلال والتوقير ، ولو أنهم صبروا وتأدبوا حتى يخرج إليهم لكان في ذلك الخير لهم في أمور دينهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ الَّذِينَ

(1) سورة الفتح الآيات ٨–١٠.

يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

ومن أمثلة حب الصحابة للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ما حدث فى يوم بدر عندما كان رسول الله ﷺ يعدل الصفوف بقضيب فى يده فمر بسواد بن عزية حليف بنى النجار وهو خارج عن الصف فطعن فى بطنه بالقضيب وقال : «استقم ياسواد» فقال : يارسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه راضيا وقال : «استقد ياسواد» فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال النبى : وما حملك على هذا ياسواد ؟ قال : يارسول الله حضر ما ترى - أى موطن الاستشهاد - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له الرسول ﷺ بخير .

وهكذا فى رحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ازدهرت الحياة ، وآتت ثمارها وتآلف الناس أفرادا وجماعات ، وتلاقوا تحت راية واحدة وعاشوا متحابين متعاطفين ، لأن حبهم لرسولهم صلوات الله وسلامه عليه ملأ حياتهم نورا وإشراقا ، فعاشوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس .

❁❁❁

---

(١) سورة الحجرات الآيات (٢-٥).

الصدقة فى كل أنواع المعروف

روى الإمام مسلم – بسنده – عن أبى ذر رضى الله عنه أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر[1] ».

يوضح هذا الحديث مدى إخلاص الصحابة رضوان الله عليهم ، ومدى رغبتهم الأكيدة فى فعل كل خير ، وصنع كل معروف ، والسبق إلى كل صدقة ، ولكن بعضهم لايستطيع أن يؤدى كل ما يريد ، ولا أن يبذل فى سبيل الله ، فكانوا يحزنون لفوات هذا الأجر، وعدم تمكنهم من الصدقة بالأموال كما يفعل الأغنياء ويحزنون على التخلف عن الخروج فى الجهاد لعدم القدرة على آلة الحرب قال الله تعالى :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾[2]

لقد كانوا يغبطون أهل الدثور وهم أصحاب الأموال لما يحصل لهم من أجر الصدقة بأموالهم فدلهم الرسول ﷺ إلى أبواب الخير الواسعة من تسبيح وتكبير وتحميد ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وفى مباشرة الرجل منهم لزوجته .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة التوبة آية (٩٢).

وفى قوله وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة : أشار إلى ثبوت حكم الصدقة فى كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولذا جاء به نكرة ، وثواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكثر من التسبيح والتحميد والتهليل لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية وقد يتعين ، وأما التسبيح والتحميد والتهليل فكلها نوافل ولاشك أن ثواب الفرض أكثر من ثواب النفل ففى الحديث القدسى :

«وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضت عليه» (١) وقال إمام الحرمين عن بعض العلماء» . إن ثواب الفرض يزيد على ثواب النافلة بسبعين درجة .

وفى قوله : وفى بضع أحدكم صدقة ، إشارة إلى أن الأشياء المباحة تصير بالنية الصادقة طاعة يثاب العبد عليها ، فمباشرة الزوجة والجماع يكون عبادة إذا نوى به الزوج قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف كما أمر الله وطلب الولد الصالح وإعفاف نفسه وزوجته ومنعهما من النظر الحرام أو الفكر الحرام أو الهم بالحرام .

ولما كان ثواب الصدقة غريبا فى شأن المعاشرة الزوجية ، لأن الباعث عليه قضاء الشهوة وتحصيل اللذة سألوا الرسول ﷺ سؤال تعجب فقالوا «يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فوجههم الرسول ﷺ إلى نوع من القياس الشرعى ، ليفتح لهم باب الاجتهاد فى فقه الأحكام ، أى فالعدول عن الحرام إلى الحلال يحصل الأجر كما أن الوقوع فى الحرام يوجب الوزر .

وهذه الأمور المذكورة فى الحديث يسيرة ، بل إن بعضها مما تقوى إليه الرغبة والنزعة الإنسانية ، ولكن عندما تتمحض فيها النية لله ويؤديها ابتغاء مرضاته ، تصبح صدقة مكتوبة له عند الله تعالى ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) سورة النساء آية (١١٤).

ولا يراد بالحديث أنه لو أدى هذه الأمور وهوقادر على الصدقة بالمال أنها تكون كافية أو أنها تقوم مقام الصدقة بالمال وإنما ذلك لأولئك الذين لا يجدون ما ينفقون ، أما من يجد ما ينفق فعليه ألا يبخل بماله ، نعم إن تصدق بمال وفعل ما يفعل هؤلاء مما جاء في الحديث من التسبيح والتحميد وغير ذلك فقد جمع بين الحسنيين . وفي الصحيحين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا النبي ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، فقال : وما ذلك ؟ قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله ﷺ أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من قد سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة ، وقال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

إذاً فجوانب الخير كثيرة ، وأبواب الصدقة لا تقتصر على بذل المال فإسداء النصيحة للمسلمين وقول المعروف ، وذكر الله وتسبيحه كل ذلك من الصدقات . قال صلى الله عليه وسلم ، ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف [1] ألم تسمع قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[2] وحتى تشيع الألفة في البيئة الإسلامية ويتلاقى الناس أحبة ودعاء دعا الإسلام إلى حسن مقابلة المسلم لأخيه . وجعل تبسمه في وجهه صدقة وإرشاده إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة صدقة ، ومساعدته بأي ضرب من ضروب المساعدات كذلك ، روى الترمذي من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) سورة البقرة آية (٢٦٣).

ولا يقتصر الأمر على ما سبق فحسب بل إن كف الأذى عن الناس يجعله الإسلام صدقة . وهنا لا بد لنا من وقفة يسيرة فالأمـر واضح فيما سبق من البذل والأمر بالمعروف وغير ذلك من كل خير قولا كان أو عملا أما بالنسبة لكف الأذى فهذا واجب ومطلوب من كل مسلم فكيف يكون صدقة ؟ نقول: إنه صدقة يتصدق بها الإنسان على نفسه حيث لم يوردها موارد الهلاك أو العقاب ولأنه قاوم نزعات الشر ونزعات الشيطان وكبح جماح نفسه وفى كف الأذى راحة لنفس الإنسان وأمان وراحة لغيره وأمان ، وحيث كان الإنسان بعيدا عن الشر واصل السعى فى كل ما هو خير فتصدق على نفسه بالنجاة من عذاب الله.

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا. قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعا أو تصنع لأخرق قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض ؟ قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة[1].

❁❁❁

(١) رواه البخاري ومسلم.

غنى النفس

غنى النفس سعادة غامرة وأمان من الجشع المادى ، والتمزق النفسى ، لأن غنى النفس راض بما فى يـده قانع بما عنده ، لا يتطلع إلى غيره ، ولا تشرف نفسه إلى ما فى يد سواه ، إنه ينفق مما عنده على نفسه وأهله وفى الوجوه المشروعة ، دون تهالك على المال، أو تطلع وتكالب فيراه كافيا ، ويرى نفسه به سعيدة وراضية وغنية ، أما الذى يرى الغنى فى سعة الثروة ووفرة المـال وكثرة العرض والمتاع ، فإن مطالبه لا تنتهى عند حد ولا تقف عند درجـة فيظل متطلعا إلى الزيادة . ومهما أوتى لا يقنع ومهما نما ماله لايشبع ولايستريح به الحال ، ولا يطمئن به القلب ففكره حائر بين ضيعاته وأمواله ، وقلبه مشدود إلى صفقته .

ويحرص رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على أن يلقى الضوء على هذه الحقيقة مبينا كيف يكون الغنى الحق الذى لا تلهث معه خطى الحياة ولا ينزلق به فكر الإنسان . عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس..» (١) إن كثرة العرض حين تجنح النفس إليها وتتكسب السـبل من أجلها تكون مطية الشيطان ومصيدة ينصب فيها حبائله ، فإذا بضراوة الجشع وعبودية المتع والشهوات ، ويكون اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر .

ولطالما حذر الإسلام من فتنة المال ، فقد يكون المال الكثير مدعاة للسرف والترف أو للغرور والفجور أو للأثرة والشح وما إلى ذلك من الآفات والابتلاءات التى امتحنت بها الأمم على مدار الحياة ، وضرب القرآن الكريم الأمثلة والنماذج من الأمم ، فبالنسبة لقوم نوح : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢) وبالنسبة لقوم مدين ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

(٢) سورة نوح آية (٢١).

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [1] ونادى القرآن جميع المؤمنين وحذرهم من لهوه وفتنته ، وما يترتب عليه من الخسران .

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [2]

وكان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى غنى النفس والرضا والقناعة وكانت بيوته نماذج للقناعة وغنى النفس .لدرجة أن هذه البيوت الشريفة التى كانت ملتقى النور السماوى مرت بفترات كان العيش فيها قليلا فلا يوجد لدى أمهات المؤمنين من الأطعمة ما يطهى بالنار مدة طويلة فى أول الأمر ، وكان غنى النفس وكانت القناعة شعار الإيمان والرضا .

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لعروة : يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة – أى ننتظر ثلاثة أهلة .. فى شهرين – وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار .فقلت : يا خالة ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا [3] .

وما كان رسول الله ﷺ يخشى على أمته الفقر، وإنما كان يخشى عليها فتنة الحياة. والتنافس المادى الـذى يورد الناس موارد الهلاك .

عن عمر وبن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ ، انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشق من البحرين ؟ فقالوا : أجل يا رسول الله .فقال أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تنبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم [4] .

---

(١) سورة هود آية (٨٧).
(٢) سورة المنافقون آية (٩).
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

والإسلام حين يبنى شخصية المسلم فى غنى النفس لا يحرم عليه استمتاعه بالطيبات ولا استثماره للمال أو طلبه بالطرق المشروعة وبالمنهج الحلال ، وإنما يستهدف الإسلام من غنى النفس بناء الشخصية الإسلامية على أسس الإيمان والرضا فلا يتمرد إنسان على نعمة ربه ورزقه ولا يعترض بما عند غيره من مال أكثر منه فإنه لو نظر إلى من هو أقل منه مالا لأدرك قيمة النعمة .

وليس الأمر قاصرا على المال فحسب ، بل وفى الخلق والصحة والأبناء وغير ذلك من الأمور التى يتفاوت فيها الناس ، فإذا نظر الإنسان إلى من حوله من الناس وجد فيهم من هو أكثر منه مالا ومن هو أقل ، ومن هو كامل ، ومن هو ناقص فى السمع أو البصر أو غير ذلك . ومنهم من رزق بالأبناء ومنهم من لم يرزق وهكذا . ويوجه الإسلام شخصية المسلم فى تكوينها إلى طريق الشكر والغفران ، وذلك بالنظر إلى من هو أقل لا النظر إلى من هو أكثر لئلا ينتقص الإنسان نعمة ربه .. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (١) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه من المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل هو عليه» (٢).

هكذا يرسم الإسلام الطريق إلى غنى النفس ، ويحدد السبيل إلى ذلك بالرضا بكل ما تتسع له كلمة الرضا من أسس وركائز كالرضا بالله ربا وبالإسلام دنيا وبمحمد رسولا . كما جاء فى الحديث: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»(٣)

وقال تعالى : فى شأن المؤمنين ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ (٤)

وإذا كانت الطبيعة البشرية يغريها بريق المال فيبعدها عن الرضا وعن غنى النفس، فإن الإسلام قد نبه إلى هذا الخطر وكشف عن غريزة البشر فى حب المال ، والميل إليه . وتضاعف الرغبة فى نمائه ، والتطلع إلى الزيادة المستمرة منه .

(١) رواه أحمد مسلم والترمذي وابن ماجه.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) سورة البنية آية (٨).

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولايملأ عين ابن آدم إلا التراب» [1] .

ويعالج الإسلام هذا الضعف النفسى ويقيم توازنا لشخصية المسلم بين طلب الكسب والمعاش وبين الجشع وزيادة الطلب فيجنب المسلم الإفراط والتفريط .

قال رسول الله ﷺ : اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، خذواما حل ودعواماحرم » [2].

❀❀❀

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

فى منهج الإسلام أمان من الإنحراف والضلال

بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه إلى الناس كافة بشير ونذيرا ، وجعل رسالته عامة فى الزمان وفى المكان ،وخاتمة لجميع الرسالات قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(١)

وضمانا لعموم الرسالة وخلودها أنزل الله تعالى دستوره السماوى ، ليحقق العدل الإلهى فى الحياة الدنيا وليكون هدى للمتقين ، حاملا أسس الرسالة العامة الخالدة، وأسباب السعادة فى الدنيا والآخرة، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٢)

ذلك هو القرآن الكريم المنزل بلفظه ومعناه على سيدنا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المعجز ، المتحدى به المنقول إلينا متواترا ، والذى كان وما يزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها معجزة للنبى ﷺ وحجة ودليلا على صدق نبوته .

وقد تحدى به الرسول ﷺ الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، قال تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٣)

وهكذا أنزل الله سبحانه كتابه الخالد المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحمل دليل صدق الدعوة وهداها:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٤)

(١) سورة الأعراف آية (١٥٨).
(٢) سورة الحجر (٩).
(٣) سورة الإسراء آية (٨٨).
(٤) سورة البقرة آية (٢).

وأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يبلغ ما أنزل إليه ، وعصمه من الناس كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

وكما عصم الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام من الناس عصمه أيضا من الخطأ والهوى ، ليقوم بمهمته الشريفة، ويبلغ رسالة ربه، ويبين للناس ما نزل إليهم ، فإن عقول الناس لا تستطيع فهم كل ما جاء فى القرآن الكريم فهم فى حاجة الى توضيح المبهم ، وتفصيل المجمل ، وتقييد العام وهذا هو البيان المقصود بقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣)

ولكى يقوم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بتبليغ هذه المهمة الشريفة كان لا بد من عصمته من الناس ومن الخطأ والهوى فى كل ما يبلغه ويبينه من قرآن وسنة

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (٤)

وكان لا بد كذلك من تمهيد الطريق أمام الدعوة وتعبيده فأمر الله تعالى الناس بطاعة رسوله ﷺ ، وجعلها من طاعته قال تعالى :

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (٥)

---

(١) سورة المائدة آية (٦٧).
(٢) سورة النحل آية (٤٤).
(٣) سورة النحل آية (٦٤).
(٤) سورة النجم الآيات (٣، ٤، ٥).
(٥) سورة النساء آية (٨٠).

وأمر الناس إذا اختلفوا فى شئ أن يردوه الى الله وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يجعل للمؤمن خيرة بعد قضاء اللهسبحانه أوبعد قضاء الرسول ﷺ ، بل أقسم بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم ويسلموا تسليما :

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١)

قال ابن القيم : «أقسم سبحانه بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الدقيق الجليل ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينفى عن صدروهم الحرج والضيق من قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضا بذلك حتى يسلموا تسليما ، وينقادوا انقيادا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(٢)

وقال الشافعى : «نزلت هذه الآية فيما بلغنا واللهأعلم فى رجل خاصم الزبير فى أرض فقضى النبى ﷺ بها للزبير ، وهذا القضاء سنة من رسول الله ﷺ لا حكم منصوص فى القرآن»(٣) .

وقد سارت السنة الشريفة كمصدر ثان للتشريع السماوى وبين الله تعالى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوتى الكتاب وهو القرآن -والحكمة -وهى السنة على ما ذكره أكثر المفسرين وعلى رأسهم الإمام الشافعى وذلك فى قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٤)

---

(١) سورة النساء آية (٦٥).
(٢) سورة الأحزاب آية (٣٦).
(٣) أعلام الموقعين (٤٢/١).
(٤) سورة البقرة آية (١٢٩).

وقال جل ثناؤه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٦)

فالمراد بالحكمة فى هذه الآيات الكريمة سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ذكرها الله تعالى بعد القرآن مباشرة فى مقام المنة والإنعام على الخلق بتعليمهم الكتاب والحكمة ، قال الإمام الشافعى : «فلم يجز – والله أعلم – أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله . وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله ، لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به »

---

(١) سورة البقرة آية (١٥١). (٢) سورة آل عمران آية (١٦٤).
(٣) سورة الجمعة آية (٢). (٤) سورة البقرة آية (٢٣١).
(٥) سورة النساء آية (١١٣). (٦) سورة الأحزاب آية (٣٤).

فطرة الله

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (١)

فى هذا الحديث الشريف يوضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فطرة الخير الكامنة فى الإنسان ، وأن الأصل الذى أوجد الله على أساسه الخليفة إنما هو الدين القيم والفطرة النقية وأن كل ما يطرأ عليها إنما هو تغيير وتبديل لفطرة الله تعالى فقد خلق الله الخلق على هذه الفطرة ومن أجل عبادته والإقرار بوحدانيته سبحانه وتعالى، إنه الدين القيم ، والتوحيد الخالص ، الذى لا يشرك الإنسان فيه مع الله أحدا

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (٢)

ولقد أمر الحق تبارك وتعالى بالسير على ضوء هذه الفطرة ، وعبادة الله الخالق سبحانه وتعالى لا شريك له

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (٣)

وكل مولود من بنى آدم إنما يولد على فطرة الاسلام تلك الفطرة النقية فطرة الاسلام وقبوله هذ عام فى جميع المولودين .

(١) سورة الروم آية (٣٠)، والحديث رواه البخاري.
(٢) سورة الكهف آية (١١٠).	(٣) سورة الذرايات الآيات (٥٦-٥٨).

وقيل : يخص به بعض المولودين ،واحتج بنحو حديث أبى بن كعب ، قال النبى ﷺ : «الغلام الذى قتله الخضر طبعه الله يوم طبعه كافرا »[1] .

ومن تغير عن هذه الفطرة كان ذلك بسبب أبويه اللذين يعلمانه أويرغبانه فى أمر من الأمور المختلفة أو فى عقيدة من العقائد المختلفة الزائفة أو لأنه يكون تابعا لهما فى الدين ويكون – حكمه حكمهما فى الدنيا فإن سبقت له السعادة وأراد الله تعالى له الهدى والرشاد أسلم ، وإلا مات كافرا .

أما إذا مات قبل أن يبلغ الحلم ، فالصحيح أنه من أهل الجنة ، وقيل : لا عبرة بالإيمان الفطرى فى الدنيا بل الإيمان الشرعى المكتسب بالإرادة والعقل ، فطفل اليهوديين مع وجود الإيمان الفطرى محكوم عليه بالكفر فى الدنيا تبعا لأبويه وشبه الحديث حال الأبناء مع تأثير الآباء بحال البهائم التى جدعت وقطعت أطرافها بعد أن خلقت سليمة .

ومن هنا ندرك تأثير الأسرة على الفرد وعلى الأبناء وتأثير البيئة عليهم أيضا فإن كانت صالحة صلح الأبناء وإن كانت فاسدة فسد الأبناء إلا من رحمهم الله.

يقول أبو هريرة رضى اللهعنه اقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[2]

إنها الفطرة التى خلق الله الإنسان عليها وهى قبول الحق أو ملة السلام ، وقد جـزم البخارى فى تفسير سورة الروم بأن الفطرة : الإسلام أى قبوله.

قال ابن عبد البر : وهو معروف عند عامة السلف «لا تبديل لخلق الله» أى ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو من شأنها ألاتبدل ، أو أن الخبر بمعنى النهى أى لا تبدلوا خلق الله، «ذلك الدين القيم» أى المستوى الـذى لا عوج فيه ، وهو دين الله الذى أكمله وأتمه على أحسن وجه وختم به الرسالات السابقة قال سبحانه .. ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3]

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود. (٢) سورة الروم آية (٣٠).
(٣) سورة المائدة آية (٣).

ومما يؤخذ من الحديث :

الصلاة على كل مولود ،وقيل إن كان لـه أربعة أشهر لايصلى عليه وان كان له أربعة أشهر ولم يتحرك لا يصلى عليه عند جمهور العلماء .

وقال الإمام أحمد وداود يصلى عليه، وقال ابن قدامة: السقط : الولد تضعه المرأة ميتا تماما فأما إن خرج حيا أو استهل فإنه يصلى عليه بعد غسله.

وإن جميع المولودين يولدون عـلى فطرة الإسلام وأما ما يطرأ غير ذلك فهو تغير لأصل الفطرة .وأثر الأسرة والبيئة فى عقيدة الأبناء وسلوكهم ، وأن الإسلام هو الدين القيم الذى لاعوج فيه .

❁❁❁

من دروس رحلة الإسراء والمعراج

الإسراء والوحدة

لقد استهدفت رحلة الإسراء من بين ما استهدفته من غايات جليلة وحـدة تلك الأماكن المقدسة التى أشارت إليها الآية الكريمة التى وضحت شرف المسجدين من أجل أن تتوطد العلاقات وتنمو الروابط الشريفة وتتوثق العرى .

قال تعالى فى مبدأ سورة الإسراء الكريمة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١)

فالمسجدان : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ،هما الطرفان لهذه الوحدة تبتدىء من مكة المشرفة وتنتهى إلى القدس ، وبعد أن تنتهى تلك الرابطة التى أبرزتها الرحلة الأرضية رحلة الإسراء ، تتم رابطة أخرى علوية .

تلك هى رابطة السماء بالأرض واتصال المخلوق بالخالق ، وهذه الرابطة ، هى التى تمت فى رحلة المعراج ، حيث ارتقى الرسول ﷺ إلى سدرة المنتهى .

قال الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٢)

(١) سورة الإسراء آية (١).

(٢) سورة النجم الآيات (١-١٥).

وإذا تابعنا الأحاديث الصحيحة الواردة عن الإسراء والمعراج فإننا سنرى أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه قد التقى بأماكن عديدة ، وصلى فى مواضع ذات أهمية وأثر ، وصلى بالنبيين ، والتقى بالرسل فى كل سماء صعد إليها ، وكل ذلك شاهد بالوحدة الشاملة الكاملة التى ينبغى أن يقوم على أساسها بناء الأمم والشعوب وسائر الدول والمجتمعات.

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١)

وكذلك فريضة الصلاة التى شرعت فى هذه الليلة المباركة ، أليست أعظم عمل تطبيقى تتم فيه الوحدة بأكمل صورها ، وأبهى رؤاها ، فى اجتماع المسلمين فى وقت واحد وصف واحد متجهين إلى قبلة واحدة ، ساجدين لرب واحد ، إن فى كل ذلك لتطبيقا للوحدة ، ولكل معانى الروابط الشريفة ، التى تربط المسلم وتجمع بينه وبين أخيه دون حاجز من حواجز الحياة الدنيا ، التى تعوق الإنسان أن يتصل بالإنسان .

إن فى الصلاة لقاء مع الله ، واللقاء مع الله تعالى هو أسمى وأجل الأعمال ، لهذا فإنه لا يليق مع هذه العظمة ومع هذا الجلال أن تكون هناك حواجز بين المخلوقين ، إنهم يجتمعون ولا فرق بين رئيس ومرءوس ولا غنى وفقير ، فالكل سواسية تعنو وجوههم لله الحى القيوم .

وإذا عدنا إلى هذا الرباط المقدس بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى بالإسراء فإنه مما يبهرنا أول ما نعود إليه . أن المسجد الحرام كان مبدأ الإسراء وكانت مكة المشرفة – التى شرفت به – مهبطا للوحى ومصدر الإشعاع والنور الإلهى .

ولذا فقد سمى بالمسجد الحرام ، لما حرمه الله تعالى فيه من الأمور الكثيرة التى لم يحرمها فى أى مكان سواه ، كالصيد وقطع الأشجار ، فكانت له مكانته العظيمة ، فهو أول بيت وضع فى الأرض ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة الشوري آية (١٣).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (١)

وأما المسجد الأقصى ، فهو أول القبلتين ، وثالث الحرمين ، فى القدس أرض فلسطين العزيزة ، وفى شأنه قال ﷺ «ايتوه فصلوا فيه فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج فى قناديله» (٢) .

أليست كل هذه النصوص من القرآن والسنة تحمل بين طياتها أوضح الأدلة على ضرورة قيام وحدة متعاونة بين تلك البقاع تضىء ما أظلم بين جنباتها ، وتسترد ما سلب من أماكنها ؟

وفيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى» (٣)

وهكذا نقف على حرمة هذه الأماكن وعظمتها ، ويتبين لنا من الرحلة إليها ، وجواز شد الرحال إليها خاصة ، يتبين من كل ذلك منزلتها وأثرها دينا ودنيا .

ونظرة أخرى لهذه الرحلة المباركة من الناحية الزمنية ترينا أن ميقاتها الزمنى ، إنما كان وسطا بين مرحلتين :

المرحلة الأولى : هى مرحلة المجاهدة للنفس ، والصبر على أذى المعتدين ، مع القيام بأداء ما كلفوا به ولم يؤذن للمسلمين آنذاك بالهجرة .

المرحلة الثانية : هى مرحلة الهجرة فى سبيل الله ، التى جاءت بعد الإسراء ، بعام واحد تقريبا ، فكانت الإسراء ، دليلا قويا ، يحمل صدق الدعوة ، ونصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورعايته ، وأن الله تعالى معه يؤيده بنصره ويبعد عن نفسه كل ما عساه أن يكون كدر شيئا من صفو الحياة لديه .

---

(١) سورة آل عمران آية (٩٦,٩٧).
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه البخاري ومسلم .

بل كانت دليلا واضحا أيضا على مدى القدرة الإلهية التى يمكن أن يحمى الإسلام من كل أعدائه ، وأن تطوى له الزمن طيا وتطوى الأرض طيا ، وترتفع برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام إلى السماوات العلى .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلا خوف على الإسلام والمسلمين أن هاجروا إلى المدينة فها هى عناية الله تعالى واضحة جليلة .

أما بالنسبة لمن سيهاجرون إليهم فحسبنا فى معرفة أعداء الله لهم وقذف الحب فى قلوبهم – أن نقرأ قول الله» تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وبالهجرة التى كانت الإسراء تمهيدا إليها تمت أعظم معانى الوحدة واكتملت معالم الإخاء وأبرم الرسول عليه الصلاة والسلام أهم وثيقة لحقوق الإنسان ، لم تعرف الدنيا لها مثيلا فيها أخذ كل ذى حق حقه ، فكل حقوق المسلمين ، وغير المسلمين مصوفة ، وأصبح المجتمع الإسلامى مترابطا معتصما بحبل الله تعالى . كما جاء فى القرآن الكريم .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (٢)

❁❁❁

(١) سورة الحشر آية (٩).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

في رحاب الدعوة الإسلامية
أهمية التعرف على أحوال السكان

إن الدعوة الإسلامية هى رسالة الأنبياء والرسل ، وهى أيضاً رسالة العلماء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ، ومن هنا نقف على أهمية الدعوة ، ومكانة الدعاة .

وللدعوة الإسلامية مكانتها فى نفوس المسلمين جميعاً ، فإن سعادتهم دنيا وأخرى ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً .

ومن هنا كانت مسئولية الدعاة وأهميتهم ، وكان تفاوتهم فى نقل الدعوة بمنهجها الربانى البليغ ، وبأسلوبها السمح الكريم ، وبما تحتوى عليه من علوم دينية وأخرى دنيوية لابد للدعاة من معرفتها ، حتى تكون الدعوة فى إطارها الصحيح ، ويكون الدعاة قادرين على نقلها إلى كل البلاد والعباد على نحو دقيق وعميق ، لا تشوبه شائبة قصور أو خلل .

وواضح أن لكل مقام مقالاً ، وإذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فإن أولى الناس بالبلاغة هم العلماء الدعاة ، لأنهم ورثة الأنبياء ، ولأنهم يقومون على نقل أشرف تراث فى الوجود .

ومن أهم ما ينبغى على الدعاة أن يقفوا عليه (بين ما يتعلمونه وما يتدربون عليه من علوم) التعليم السكانى ، والتعرف على أحوال سكان البلد الذى يدعونه وعلى عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم والمعلومات التى يمكن جمعها عنهم وعن معتقداتهم ، لأن الدعاة مثلهم مثل الأطباء ، قبل أن يصفوا الدواء للمريض ، لابد أن يحددوا نوع المرض وما يلزمه من دواء ، وبعد تشخيص المرض ، ومعرفة نوع الداء يتحدد الدواء ، وكذلك الحال بالنسبة

للدعاة مع الذين يدعونهم ، لابد من التعرف على السكان وأحوالهم وسياستهم وعاداتهم ، وما ينتشر فيهم من رذيلة أو تقصير فى بعض أمور العبادات أو المعاملات .

فكما أن الطبيب لابد له من التعرف على أحوال مريضه وتشخيص الداء ، لأن ما يصلح من دواء لمريض قد لايصلح للآخر ، وما يصلح من كمية لإنسان قد لا تصلح لغيره ، فكذلك أيضاً الداعية لابد أن يلم بمعلومات وافية عن سكان الموقع أو البلاد الذين يدعوهم حتى يستطيع أن يقدم لهم الزاد الروحى الذى يليق بكل واحد منهم .

وهكذا نرى أنه لابد من التعرف على المعلومات السكانية حتى تكون الدعوة ملائمة ومنسقة من الذين ندعوهم ، وحتى يتعرف الدعاة على مواطن الداء ، وعلى ما يحتاجه أهل كل منطقة أو بلد من التوجيهات اللائقة بهم .

ولقد كان قدوة الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ ، يسأله أناس كثيرون ، وكان السؤال واحداً فى كل مرة ولكن إجابته كانت تختلف من إنسان لآخر ، ومن وقت لآخر ، ومن مكان لمكان ، والسبب فى هذا هو أن الرسول ﷺ كان يجيب كل سائل بما يليق بحاله ، ويجيب أهل كل مكان بما يليق بحالهم وهكذا ..

فقد سأل رجل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»(١) .

وفى حديث آخر : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قالوا يا رسول الله : أى الإسلام أفضل ؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٢) . وهكذا كان يجيب كل سائل بما يكون أفضل فى حق السامع أو السائل أو أهل المكان الذين يحدثهم ، فربما يكون قد ظهر من أحدهم قلة مراعاة ليده ولسانه وإيذاء المسلمين ، وربما يكون ظهر من الآخر إمساك عن الطعام والبعد عن السلام أو ما فيه استعلاء ، فأجابه على حسب حاله ، وقد يكون السائل يريد من وراء سؤاله أن يعرف أهم المنهيات والأمور التى يجب عليه تركها

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري ومسلم.

فأجابه بقوله : «من سلم المسلمون من لسانه ويده» ، ويكون الآخر سأل ليعرف خير الأعمال وأفضلها ، فأجابه بإطعام الطعام وإقراء السلام ، ومن المعلوم أن الإطعام مستلزم لسلامة اليد ، والسلام مستلزم لسلامة اللسان .

وفى حديث آخر يسأله أبو ذر رضى الله عنه : أى العمل أفضل ؟ فقال ﷺ : «إيمان بالله وجهاد فى سبيله» . قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال : «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال تعين صانعا أو تصنع لأخرق – قلت. فإن لم أفعل ؟ قال : «تدَعُ الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك» (١).

وهكذا نرى اختلاف الإجابة باختلاف الأشخاص وأحوالهم ، مما يدلنا على أن دراسة أحوال السكان وأهل البلاد أو الموقع الذين نتجه إليهم بالدعوة أمر ضرورى ، ولذا فإن الدعاة فى حاجة ضرورية إلى معرفة تاريخ العالم وجغرافيته وأحوال السكان فيه فإن لكل مقام مقالاً.

المنهج القرآنى للدعوة ومعرفة أحوال من ندعوهم :-

يتلخص منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله تعالى فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (٢)

وواضح من الآية الكريمة أن أسلوب الدعوة يتشكل على حسب أحوال الناس الذى ندعوهم :

– **فالخاصة** : لهم الأسلوب المحكم والبرهان القاطع والدليل الساطع (بالحكمة) .

– **والعامة** : لهم العظة التى يمكن أن تصل إلى مداركهم ، وتستوعبها عقولهم .

– **والمعارضون** : لهم المناظرة الهادئة الهادفة والمجادلة بالتى هى أحسن .

فلابد للدعاة من معرفة أحوال من يدعونهم وأنواعهم وما يحتاجون إليه من أسلوب

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة النحل آية (١٢٥).

ومن هداية وتوجيه ، لابد أن يكون الدعاة على بصيرة من الأمر فى كل شأن من الشئون حتى تكون دعوتهم ناجحة ، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأن الدعوة إلي شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هى سبيله يدعو إلى الله سبحانه وتعالى بها على بصيرة وبرهان ويقين وإيمان ، ويدعو كل من اتبعه إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١)

كما دعا المنهج القرآنى إلى تتبع أحوال (السكان) وتدبر آيات الله تعالى فى جميع الأقطار والبلدان ، ومعرفة أحوال الأمم ، ودعا القرآن إلى السير والنظر فى الأرض لمعرفة تلك الأحوال .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾(٢)

ودعا الإسلام إلى الرحلات والتقلب فى البلاد ليزداد الإنسان علماً ومعرفة ، وبحثاً وفائدة ، وليعلم سنن الله تعالى فى الأمم السالفة والبلاد المختلفة وما حدث لأهلها وسكانها . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)

كما دعا القرآن إلى معرفة أحوال سكان العالم القديم والحديث ، وما جرى للأمم السابقة والحضارات الماضية ، وماذا كان عاقبة هؤلاء الناس ، يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾(٤)

---

(١) سورة يوسف آية (١٠٨).
(٢) سورة الحج آية (٤٦).
(٣) سورة آل عمران آية (١٣٧، ١٣٨).
(٤) سورة غافر آية (٢١).

ووجه رسول الله ﷺ أمته إلى الرحلة فى طلب العلم والمعرفة ولقاء العلماء فى أى مكان أو وطن فى دنيا الله الواسعة ، فقال ﷺ : «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» (١).

وزيادة فى دقة المنهج الإسلامى فى تسلح الدعاة بزاد المعرفة ، وليتمكنوا من مخاطبة السكان فى أى مكان من الأرض ، دعا إلى تعلم اللغات الأخرى فأمر رسول الله ﷺ كاتبه زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية ، فقال زيد رضى الله عنه :

أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية ، وقال : «إنى والله ما آمن يهود على كتابى» . قال زيد رضى الله عنه : (فوالله ما مر بى نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكنت أكتب إليهم وأقرأ له كتبهم) (٢)

وهكذا نرى أن معرفة أحوال السكان ولغاتهم أمر ضرورى للدعاة يجب أن يضطلعوا به وأن يتسلحوا بأسلحته حتى يؤدوا واجبهم الإسلامى .

عالمية الإسلام تستوجب علي الدعاة دعوة جميع سكان الدنيا :

لكى يقوم الدعاة برسالتهم على أكمل وجه ، لابد أن يلموا بأنواع الثقافات والعلوم من حولهم ، ليتمكنوا من معرفة أحوال العالم ، والأقطار التى تحيط بهم ، فإن الإسلام دين عالمى لا تقتصر دعوته على زمان دون زمان ولا على مكان دون مكان ، وإنما هو دين عالمى، للناس كافة وللعرب والعجم والإنس والجن .

وقد استهدف الإسلام تعارف الناس بعضهم لبعض وجعل هذا التعارف هو الغاية من خلقهم شعوباً وقبائل ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣)

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.
(٣) سورة الحجرات آية (١٣).

ولقد كانت الرسالات السابقة لرسالة سيدنا محمد ﷺ خاصة ، يختص كل رسول بدعوة قومه ، فإذا جاء غيره إلى هؤلاء القوم نسخ اللاحق دعوة السابق ، اللهم إلا القدر المشترك بين الرسالات وهو عبادة الله وحده واجتناب ما دونه من الباطل ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[(1)]

ولما كانت الأمم السابقة تختلف أحوالهم وأوضاعهم فقد تغايرت الرسالات بتغاير الأحوال ، وكان لكل أمة منهاج ، كما قال الله تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[(2)]

ووضح القرآن الكريم أن الرسل السابقين كان كل رسول منهم مرسلاً إلى قومه خاصة ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[(3)]

وقال سبحانه في شأن هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[(4)]

وقال الله تعالى في شأن صالح : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[(5)]

وقال تعالى في شأن شعيب : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[(6)]

وقال سبحانه في شأن عيسي عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[(7)]

---

(1) سورة النحل آية (٣٦).
(2) سورة المائدة آية (٤٨).
(3) سورةهود آية (٢٥).
(4) سورة هود آية (٥٠).
(5) سورة هود آية (٦١).
(6) سورة هود آية (٨٤).
(7) سورة الصف آية (٦).

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد وضح أن كل رسول من الرسل السابقين كان يرسل إلى قومه خاصة ، حتى بلغت الإنسانية نضجها فجاءت الرسالة العامة الخالدة والرسول الخاتم الذى لا رسول بعده ولا نبى ، فرسالته عامة لكل الأجناس والألوان ، خالدة إلى قيام الساعة .

وكان لتلك الشريعة العامة الخالدة ما يكفل لها العموم والخلود حيث أكملها الله تعالى وأتمها ، كما قال جل شأنه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١)

وأكد القرآن الكريم عموم الرسالة وخلودها وأن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فقال جل شأنه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣)

كما أشار سبحانه إلى أن الكتاب الذى جاء به هذا الرسول الخاتم ﷺ له صفة العموم والخلود أيضاً فقال : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً ، وكانت هذه الأمة حاملة لهذا الدين ، وقد نزل القرآن الكريم بلغتها العربية فما الواجب على الأمة الإسلامية إذن ؟

لا يمارى أحد ولا يختلف اثنان فى أن واجب هذه الأمة أن تحمل دعوة الإسلام إلى جميع من على ظهر الأرض وأن تبلغه إلى الناس كافة .. أن تبلغه إلى العالم بجميع أقطاره وأجناسه ولغاته .. وإذا تقاعست عن دورها ورسالتها فى تبليغ الإسلام إلى كل القاطنين فى قارات العالم ، فقد خانت الأمانة التى ائتمنها الله سبحانه وتعالى عليها .

---

(١) سورة المائدة آية (٣).
(٢) سورة سبأ آية (٢٨).
(٣) سورة الأنبياء آية (١٠٧).
(٤) سورة القلم آية (٥٢).

إن الاستعمار نجح في نشر أباطيله ، حين مكن لها بإقصاء لغة القرآن والسنة وهي اللغة العربية ، وأهملها ، فأصبحت بلاد مسلمة كثيرة ، ومسلمون في بلاد غير عربية ، لا يتكلمون إلا اللغتين : الإنجليزية ، والفرنسية ، ولم يستطع المسلمون في تلك البلاد أن يقفوا على تعاليم الإسلام إلا عن طريق ما يكتبه لهم المستشرقون من إفك وباطل . وواجبنا نحن العرب الذين حملنا كتاب الله ودعوة الإسلام ونزل القرآن بلغتنا ، واجبنا أن نحمل الإسلام بتعاليمه الصحيحة إلى كل قارات العالم وجميع بلاد الله على ظهر الأرض ، حتى نحقق خيريتنا التي وصفنا الله تعالى بها في قوله جل شأنه .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (1)

❁❁❁

(1) سورة آل عمران آية (١١٠).

دروس من أزمة الخليج

إن من واجب دول الخليج والدول العربية والإسلامية بل وواجب العالم المعاصر اليوم، ألا يدع أزمة الخليج تمر دون أن يأخذ منها العبر والدروس .. ويعد نفسه لمستقبل آمن يسوده السلام والاستقرار والأمن والطمأنينة ، ولايمكن أن يسود السلام والاستقرار فى جو غائم ، ولا فى جو يعيش فيه البعض وهو غير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه ..

كما لايمكن أيضا أن يقوم سلام دون قوة تحميه ، ولذلك فإن الله تعالى قبل أن يأمر بالسلام دعا إلى إعداد القوة حيث قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ.. ﴾ (١)

وإن من أهم دروس الأزمة الصارخة ، التى أحدثها الغزو العراقى للكويت « ضرورة قيام غطاء أمنى » كاف ، يحمى المجتمعات الدولية من حركات التمرد والصيال ، ومن عدوان القريب والبعيد .

ولايقتصر هذا الغطاء الأمنى على دولة دون دولة ، ولا على مجتمع دون آخر ، وإنما هو غطاء عام ، لرد عدوان المعتدين ، ووقف تمرد المتمردين ، صيانة للحرمات ، وحفاظا على حقوق الإنسان ، وفى كل شبر من بلاد العالم ، لأن العالم المترامى الأطراف يمثل وحدة إنسانية ، وإن تباعدت الأقطار واختلفت الجنسيات ، فما يصيب دولة من الدول تشعر به باقى الدول الأخرى ، وماتعانى منه دولة تعانى منه سائر الدول ، وإن لم يكن ذلك بالطريق المباشر ، لأن العلاقات الإنسانية والدولية ، تربط بين الدول والشعوب ، ولايمكن لدولة ما أن تستغنى عن الأخرى .

إذًا فمصالح الدول يرتبط بعضها ببعض ، ففى بعضها من الموارد ماليس فى الأخرى

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠).

بشرية كانت تلك الموارد أو مادية . ومادام الأمر كذلك فإن حماية الدول بعضها لبعض ، حماية لنفسها ورعاية للحقوق الواجبة ، التى يجب أن تؤديها كل دولة من الدول بالنسبة للدول الأخرى .

وماحدث من أزمة الغزو العراقى للكويت ، إلا بسبب غياب هذا الغطاء الأمنى الضرورى ، الذى يجب أن تبنيه كل دولة ، ويجب أن تتعاون فيه الدول بشكل عام ، صيانة لحقوق الإنسان ، ودفاعاً عن حرماته .

إن الحضارة بأجهزتها ومخابرها وكل معداتها وأدواتها المادية مهما تقدمت ، لاتعدو أن تكون أدوات صماء لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن وراءها العقل المفكر ، والإنسان القوى الذى يديرها ويتعامل معها بقوة واقتدار . وقد قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » (١) فبناء القوة مطلوب ، وفى هذا الحديث دعوة للمؤمن أن يكون قويا لا ضعيفا عاجزا .

وحين يعبئ الإنسان قوته لأمر ويأخذ بالأسباب ، فعليه أن يتوكل على الله سبحانه وتعالى ، وعليه من قبل ومن بعد ودائما وأبدا أن يوثق الصلة بالله وأن يتعرف على الله ، وأن يستعين بالله تعالى ، أما أن يقول : إنه يستعين بالله دون عمل ودون اتباع لمنهج الله فذلك سلوك مرفوض ، وليس توكلا على الله بحق ، عن عوف بن مالك قال : قضى رسول الله ﷺ بين رجلين فلما أدبرا قال المقتضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال ﷺ : («إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل» (٢).

لقد قاوم الإسلام طرائق العجز وأساليبه ، وركون البعض إلى الماضى والبكاء عليه ، والندم والحسرة إلى غير ذلك مما لا فائدة فيه ، وماكان لأحد أن يبكى على ماض ، ولايندم على مافات ، بل عليه أن يأخذ منه العبرة وأن يعى دروسه قال الله تعالى :

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه أبو داود.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

وإن بناء الغطاء الأمنى لايتأتى إلا بالقوة التى تتمثل فى قوة الإيمان واليقين ، وفى قوة الإعداد المادية التى أمر الله تعالى بها فى قوله جل شأنه : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٢) وأساس هذه القوة وسببها الأول : هو الرجوع الحقيقى لله رب العالمين .

هذا الرجوع الذى يتضح فى التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب ، فبالاستغفار والتوبة وترك الذنوب والمعاصى ، وبالإقبال الصادق على الله تعالى ، يرسل الله رزقه للعباد ويزدهم قوة إلى قوتهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (٣)

إذا كان الإسلام دين القوة ، ودعا المؤمنين إليها ، فلابد أن نوقن بأنها قوة لبناء الحق وردع الظلم ، وحماية الأوطان ، هى قوة فى الحق لا فى الباطل ، إنها قوة لا تهادن الباطل ولاتتملقه ، فمن تملق إنسانا منافقا أو صاغياً أو ظالماً فقد أغضب ربه سبحانه وتعالى. قال رسول الله ﷺ : ﴿ إذا قال الرجل للمنافق ياسيد فقد أغضب ربه ﴾ (٤) .

والسر فى هذا هو أن من ضعف أمام الطغاة والعصاة والمنافقين وتملقهم بهذه الألفاظ أو نحوها فإنه يشارك فى نفاق المنافق وفى طغيان الطاغية ، لأنه بهذه المعاملة يشجعه

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٦).
(٢) سورة الأنفال آية (٦٠).
(٣) سورة هود آية (٥٢).
(٤) رواه الحاكم.

على ذلك فلا يصح لأحد أن يكرم أحدا هذا شأنه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1]

إذن فالغطاء الأمنى الذى يتمثل فى بناء قوة ردع لكل دولة وقوة ردع عامة لجميع الدول أمر مطلوب فى عصرنا الراهن الذى يتمالأ فيه الظلم والعدوان ، ويتحرش فيه القوى بالضعيف والكبير بالصغير ، حتى تكون هذه القوة الرادعة لمن تسول له نفسه أن يعتدى أو أن يظلم ، أو أن يساير الظالمين ، أو يشايع أهل الباطل والشر .

والغطاء الأمنى الذى نعنيه ، والذى يقوم على أساس قوة ردع ترد ظلم الظالمين ، وطغيان الطاغية ، لابد أن تكون مع القوة المادية فيه قوة إيمانية روحية ، يتم فيها الرجوع الحقيقى إلى الله تعالى والصلة الوثيقة بالسماء ، والتضرع والاستغاثة بالله سبحانه وتعالى ، ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فقد كان يعد للأمر عدته ، ويبنى قوته ويجيش الجيوش ، ولكنه مع هذا يأخذ – إلى جانب الأسباب المادية – بالأسباب المعنوية والروحية ، والتضرع والتذلل إلى الله تعالى ، فيدعو ربه ويتضرع إليه إلى درجة الإستغاثة بالله سبحانه وتعالى كما حدث فى غزوة بدر ، كما حكى ذلك القرآن الكريم قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾
وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[2]

---

(١) سورة الحج آية (١٨).

(٢) سورة الأنفال الآيات (٧-١١).

إن القوة الإيمانية وقوة الإعداد المادية لاغناء لإحداهما عن الأخرى ، وهما معا يمثلان القوة الحقيقية لبناء الغطاء الأمنى الذى ننشده ونحتاج إليه فى هذه الفترة الراهنة التى تمر بها أمتنا . إن الغطاء الأمنى لايعنى مظاهر حضارية فى بناء شامخ أو صرح باذخ أو ثراء عريض أو جاه واسع دون قوة عسكرية مدججة بالسلاح والإيمان ، قادرة على ردع كل ظالم فى أى وقت وفى أى حال من الأحوال .

إن اختطاف دولة لدولة ، ليس أمرا سهلا فى تاريخ القرصنة الدولية ، وفى أساليب السطو والاستعمار ، بل إنه نذير شر وخطر على العالم بأسره ، إنه تقهقر وتردٍّ فى مسيرة قافلة الحياة ، لأنه يفتح باب شر ويعطى طريقا للمستعمرين والظالمين أن يتمسكوا بظلمهم واستعمارهم ، ويحاكى بعضهم بعضا ، ويسهل هذا العدوان لعدوان آخر ، وتتداعى ظواهر السطو والاختطاف للدول وثرواتها ومقدراتها ، من أجل هذا اعتبر القرآن الكريم العدوان الظالم على نفس واحدة اعتداء على الإنسانية بأسرها .

قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (١)

إن على المجتمع الدولى – اليوم – أن يراجع نفسه ، وأن يقيم شريعة العدل فى الأرض ، على أساس من قوة الإيمان ، وقوة الإعداد ، ليقيم الغطاء الأمنى الحقيقى . وإذا كان القرآن الكريم قد اعتبر العدوان على نفس واحدة عدوانا على الناس جميعا ، فما بالنا بمن اعتدى على دولة برمتها ؟ واختطفها ناهبا لأموالها مهددا المنطقة كلها ؟

وإن على الدول التى تقاعست عن مناصرة الحق ، وسارت فى مشايعة الظلم أن تعلم أنها إذا استمرت فيما هى فيه فستدور الدائرة عليها و ﴿ من أعان ظالما سلط عليه ﴾ . إن الإمعات فى الأفراد أو الدول ، يترتب على نفاقهم التمكين للظالمين والمعتدين ، ومن هنا

(١) سورة المائدة آية (٣٢).

حذر الإسلام أشد التحذير أن يكون المسلم إمعة يهدر شخصيته ويظل تابعا للغير وظلا لسواه، قال رسول الله ﷺ : « لايكن أحدكم إمعة ، يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساتهم » [(١)].

وسيعلم الذين شايعوا الباطل وزينوه لأصحابه أنهم بذلك أسخطوا الله عليهم ، وسيخسرون بذلك الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . عن ابن عباس رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ : « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه وأسخط من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينيه » [(٢)].

إن على دول المواجهة – دول الخليج – واجباً ، وعلى جميع الدول العربية والإسلامية كذلك أن تنهض اليوم وتبادر إلى بناء قوة ردع كاملة تكون صوت حق ، وغوثاً صادقاً لكل بلد أو دولة يحاول الطغاة تهديدها ، وهذه القوة تكون بين كل منها وشائج الإيمان والعمل ، وإقامة جسور التعاون المتكاملة بحيث تصبح فى قوتها أقوى قوة ردع فى العالم بأسره ، وحينئذ لايمكن لدولة ما أن تحدث نفسها بالعدوان على أى دولة من هذه الدول التى تملك أقوى قوة ضاربة فإن رسولنا ﷺ حين قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » [(٣)] إنما يريد المؤمن الحق الذى يكون قويا فتيا لايرضى بالظلم والهوان ولا بالذلة للغير أو الضعف ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٤)].

وهذه العزة لاتكون إلا لمن كانوا أهلا لها يذودون عن حماها ، ويدافعون عن بيضتها ولايرضون بالذل ولا بالهوان ولا بالاستعمار ولا بالسطو .

إن قيام غطاء أمنى لايعنى بناء قوة عسكرية فحسب ، بل بناء الإنسان أولا ، وقبل القوة ، بناء الإنسان الذى يقف من وراء هذه القوة ويديرها ، ويعلم فى يقين أن الذود عن

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه مسلم وابن ماجه.
(٤) المنافقون آية (٨).

حمى الأوطان فريضة وأن من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد .

واجب علماء الإسلام في هذه المرحلة الحاسمة : -

إن المرحلة الحاسمة التى مرت بها أمتنا الإسلامية ، تستوجب على العلماء أن يجهروا بكلمة الحق عالية مدوية ، فالحق أبلج ، والباطل لايمكن أن يبرره العاقلون فضلا عن العلماء ، ومن ذا الذى يستطيع أن يبرر غزو دولة مسلمة لجارتها المسلمة ؟ من ذا الذى يستطيع أن يبرر تشريد دولة ، ونهب أموالها واستباحة حرماتها والقضاء على هويتها وإخراج أهلها منها ؟

من ذا الذى يستطيع أن يبرر موت الأبرياء والشيوخ والأطفال والنساء والمرضى والعجزة، وكل الآمنين المسالمين الذى لم يناصبوا العراق حربا ؟ من ذا الذى يبرر حشد القوات العراقية على حدود المملكة العربية السعودية وطن الحرمين الشريفين ؟ ومن ذا الذى يبرر ماصنعه العراق من تهديد فى أيام الأزمة بحرب الكيماويات والغازات السامة ؟ ومن ذا الذى يبرر جمود النظام العراقى على موقفه ، وعدم رجوعه إلى الحق والرشد والصواب ؟

ومن ذا الذى يبرر عدم استجابته لنداءات السلام التى تناديه من كل مكان فى العالم؟ أفبعد كل هذا الذى حدث يحاول البعض أن يبرر هذا العدوان الغاشم وهذا الظلم الصارخ الذى أصاب الأمة الإسلامية بأسرها ؟ قد يقول قائل : إن الذين يدعون إلى مثل هذا قوم مكرهون عليه ، لا حول لهم ولا طول ، ولكن الحق أحق أن يتبع .

إن واجب العالم المسلم أن يعتمد على خالقه ، وألا يخاف مخلوقا من المخلوقين فلن يصيبه إلا ماكتب الله قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وفى الحديث : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشئ قد قدره الله عليك .. »

---

(١) سورة التوبة آية (٥١).

ثم يقول : « واعلم أن ماأخطأك لم يكن ليصيبك وماأصابك لم يكن ليخطئك » [١] .

وقد صور القرآن الكريم صورة مشرقة من صور الشجاعة ، وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [٢] ﴾

كما حفظ القرآن الكريم لهذه الأمة الإسلامية ولعلماء الإسلام وللدعاة مواجهة أخرى من مواجهات الشجاعة الأدبية ، التى تكون بين العلماء وأهل الظلم والطغيان . إنها مواجهة السحرة لفرعون ، لقد واجهوه بشجاعة مؤمنة ، يحكى القرآن الكريم ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [٣]

وتظل هذه المواجهات دليل عمل ، ومنهاج حياة أمام العلماء وأمام الدعاة فلا تلين لهم قناة ، ولاتنحنى لهم قامة ، ولايطأطئون الرأس لحاكم ما يحملهم على تبرير ظلم أوقعه بالبلاد والعباد .

ومما لاشك فيه أن هناك ظواهر تحول دون تحقيق الشجاعة الأدبية ، كأن يحقر الإنسان نفسه ، وهذا أمر لايتفق مع روح الإسلام ، وما ينبغى أن يكون عليه المسلم أو العالم أو الداعية.

---

(١) رواه أحمد والترمذي.
(٢) سورة غافر الآيات (٣٨،٤٤).
(٣) سورة طه آية (٧٢،٧٣).

يقول رسول الله ﷺ : « لايحقرون أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمرا لله عليه مقال ثم لايقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : مامنعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : إياى كنت أحق أن تخشى » (١) .

وهكذا نرى أن الإسلام يربى أتباعه على الشجاعة وقوة الإيمان وعدم الضعف وألا يخشى الإنسان أحدا من الخلق ، فالله أحق بالخوف منه ، كما ربى الإسلام أتباعه على اتباع الحق مهما كلف الإنسان ، وألا يميل مع أهواء الناس، أو يقع فريسة فى التبعية لهم.

قال رسول الله ﷺ : « لاتكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفكسم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا » (٢) . إن الإمعة هو الذى لا رأى له ، فيتبع كل ناعق ، ويسير مع من يسير ، ومثل هذا بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه التى تجعل الإنسان مرهونا بعمله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٣)

وفى ضوء هذه الحقائق السالفة تشرق لنا الشجاعة الأدبية فى الإسلام كَمَعْلَم هام من معالم شخصية العلماء والدعاة .

ولقد قرر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أفضل الجهاد بالنسبة للعلماء ، وواجبهم الذى يجب عليهم أن يقوموا به ، وذلك بأن يقولوا الحق وينصحوا الحاكم إن رأوه قد جار وظلم وبغى ، قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (٤)

والسلطان الجائر هو صاحب الجور والظلم ، وإنما كان ذلك أفضل الجهاد ، لأن من جاهد العدو كان مترددا بين رجاء وخوف لايدرى هل يَغلب أو يُغلب ، وصاحب السلطان مقهور فى يده ، فهو إذا قال الحق وأمر بالمعروف فقد يتعرض للتلف وعرض نفسه للهلاك فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف .

---

(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) سورة المدثر آية (٣٨).
(٤) رواه ابن ماجه.

ولأن ظلم السلطان يسرى فى جميع من تحت سيادته ، وهم جم غفير ، فإذا نهاهُ ، فقد أوصل النفع إلى خلق كثير .

عن أبى عبد الله طارق بن شهاب البجلى الأحمسى : أن رجلا سأل النبى ﷺ وق وضع رجله فى الغرز - أىُّ الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (١)

هذا هو واجب العلماء والدعاة أن يجهروا بكلمة الحق وأن يقولوها لحكامهم إذا ظلموا ، فلا خير فيهم إن لم يقولوها ولاخير فى حكامهم إن لم يسمعوها . يقول رسول الله ﷺ : « مامن عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » (٢) .

إن العبد الذى يقيضه الله تعالى للقيام بأمر رعية ، وينصبه على مصالحهم إذا استمر حتى ساعة الموت وهو غاش لرعيته فإن جزاءه أن يحرم الله عليه الجنة إن استحل ذلك .

والذى يسترعيه الله رعية يجب عليه أن يخلص لرعيته ، وأن يكون رفيقا بهم ، وألا يشق عليهم لقول رسول الله ﷺ : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ومن ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه » (٣) .

ومن الدعاء الحسن المأثور : وول أمورنا خيارنا ولاتول أمورنا شرارنا ، ولاتسلط علينا بذنوبنا من لايخافك ولايرحمنا . لأن شرار الخلق إذا ولوا أمر العباد ، أساءوا وأثاروا الفتن ، وعطلوا عناصر الخير والحق والسلام والاستقرار ، وقلبوا موازين العباد ، وأشاعوا الشر والفساد بين العباد والبلاد . وفى الحديث : « إذا أراد الله بقوم خيرا ولى أمرهم الحكماء وجعل المال عند السمـحاء ، وإذا أرا الله بقوم شرا ولى أمرهم السفهاء وجعل المال عند البخلاء » (٤) .

وقال بعض السلف : لو كانت لى دعوة مستجابة لدعوت بها للحاكم لأن بصلاحه تصلح الرعية ، وبفساده تفسد الرعية .. قولوا أيها العلماء كلمة الحق لاتخافوا فى الله لومة لائم .

---

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٤) رواه أبو داود.

إن غزو الكويت وتشريد أهله أكبر جريمة فى عصرنا وقعت على ظهر الأرض ، إن النظام العراقى باء بإثم كل دم أريق ، وكل نفس أزهقت ، وكل مال نهب وكل حرمة استبيحت . لقد مهد الغزو العراقى بهذا الغزو الغاشم لأعداء الأمة الإسلامية أن يجدوا فرصتهم وأن يروا الطريق ممهدا أمامهم . فهل من المروءة والرجولة أن يبطش العراق بأبناء الأمة الإسلامية ؟ هل من الإسلام تشريد دولة بأكملها ونهب أموالها ؟

أيها العلماء أنتم الأمل الوحيد أمام شعوبكم المظلومة التى لاتملك شيئا لنفسها فلا تبرروا الظلم والعدوان ، ولايحملنكم عليه حاكم ، فإن أحكم الحاكمين بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شئ قدير .

إن الله تعالى سائلكم عن كل كلمة تقولونها ، وعن كل حكم يصدر منكم ، ضعوا نصب أعينكم نداء القرآن الكريم للمؤمنين بالسلام : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[1] فهل استجاب النظام العراقى لهذا النداء أم استمرأ الاحتلال وطرد أصحاب البلاد من بلادهم ونقل أموالهم إلى بلاده وخرب بيوتهم ومحالهم ومتاجرهم ، أين هذه الأعمال التخريبية من تعاليم الإسلام ؟

أين مراقبة الله الذى لاتخفى عليه خافية ، ولايعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء؟

أين أنتم من نداءات المشردين الذين ضيعهم النظام العراقى وقضى عليهم ؟ إن لم تقولوا كلمة الحق فسيحاسبكم الله حسابا عسيرا ، وإن لم توضحوا للنظام العراقى وتقنعوه بأنه على باطل وأنه مخطئ وأن أفعاله لاتتفق مع شرع ولادين ولا قانون وأنه بهذا الغزو الظالم يفسح الطريق لأعداء الأمة الإسلامية ويقضى على الأمل الكبير فى الوحدة التى كانت تحلم بها هذه الأمة . إنه بهذا الغزو الظالم أعطى شرعية لأعداء الأمة وفتح بابا من أبواب الشر .

لقد كان من واجب حاكم العراق أن يستجيب لدعوات السلام حفاظا على حياة الأمة الإسلامية ، وحفاظا على حياة شعبه المسكين المغلوب على أمره الذى جعل حياته

---

(١) سورة البقرة آية (٢٠٨).

كلها حروبا فى حروب ، يخرج من حرب ليدخل فى حرب وهى حرب ليست لله ، وليست جهادا فى سبيل الله ، بل هى قتال فى سبيل الأطماع التوسعية ، وقتل للأبرياء ونهب لأموال العباد . فليخش على نفسه وشعبه إن كان صادقا فى حبه لشعبه العراقى ، إن كان مخلصا لوطنه وأبناء وطنه وأهله ، وما الذى جناه من حرب كان هو أول حطبها ما الذى جناه حين دمر الحياة ؟ دمر هو ، وكان هو ووطنه أول الهالكين والخاسرين . ألم يكن من الأولى له أن يعود إلى الحق ، وأن يرجع إلى الصواب وأن يتب إلى الله سبحانه وتعالى . ألم يقل من قبل : إذا اعتدى العراق على أى بلد عربى فقفوا جميعا ضد العراق ؟ أين هذا الذى قيل بالأمس مما فعله بدولة الكويت ؟ أين الإسلام الذى يأمر بالعدل والإحسان ، ويأمر بالحق والخير ؟

إن واجب العلماء فى العراق وفى كل بلد إسلامى أن يبينوا للحاكم العراقى أن غزوه للكويت لايمكن أن يبرره بشر بحال من الأحوال لأنه ظلم بين لايحتاج إلى إيضاح .

وإن واجب العلماء ، بعد مارأوا هذا الإجماع الدولى وهذا الإجماع الإسلامى على إدانة العراق فى غزوه للكويت أن ينصحوا النظام العراقى ، وهذا هو مايوجهنا إليه رسول الله ﷺ : « .. وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » (١) .

ونصحه فى هذه المرحلة هو توضيح مايجب عليه من أن يدخل فى السلم وأن يجنب الأمة شر حرب لايرى أحد نهايتها ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٢)

لقد تم إصدار وثيقة يسأل صاحب المقال عنها والبيان الشرعى من جميع بلاد العالم ومن جميع علماء المسلمين فى أنحاء الدنيا ، لايجيز أحد هذا الغزو ، ولايبرره أحد بحال من الأحوال . ومن ذا الذى يبرر الظلم الذى نهى الله تعالى عنه ، وإن الله تعالى قد هدد الظالمين: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٣)

---

(١) رواه مسلم ومالك.
(٢) سورة الأنفال آية (٢٥).
(٣) سورة إبراهيم آية (٤٢).

آن للحق والسلام أن يظهرا وآن للمسلمين أن يتوحدوا

كفى ماحدث من حروب ، وماجرى من كروب ، آن للحق أن يظهر ، وآن للسلام أن يظلل العالم ، وأن نتدارك هذه الأمة التى تشاحن أبناؤها وتطاحنوا . لقد نادى الجميع النظام العراق إلى الحق أن يعيده إلى نصابه ، وأن يعيد إلى الدولة الجارة المسلمة شرعيتها حتى تضع الحرب أوزارها . وحسب المسلمين ماجرى من خلافات ليس وراءها إلا التمزق والتشرذم والضياع .. آن أن يستجيب النظام العراقى إلى دعوة السلام . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ .. ﴾[1]

وإن ماجرى من حروب بين دولة ودولة أمر خطير لانرتضيه ، وكم نادينا ونادى الجميع بعدم خوض المعارك ، وبإحلال السلام على العالم محل الحرب ، ماذا جنى الذين أجرموا فى حق بلادهم وأوطانهم حين أصروا على خوض الحرب واستكبروا استكبارا ؟ هل جنوا عمارا ؟ هل جنوا كسبا تاريخيا أو كسبا ماديا ؟ إن الحرب خسران لكل الأطراف ، خسران فى الأرواح والأنفس والأموال والأعراض والتاريخ ، خسران للحضارة ، دمار للعمران وإهدار للأموال ، إن الحرب لاترحم غالبا ولامغلوبا . وإنا لنقول كما قال الشاعر المصرى المسلم الأستاذ محمود غنيم كرمه الله برضوانه :

أرك بفجـــرك عالمـــا مكــــــروبا ... عـــوذت فجـرك أن يكـــون كـــذوبا
ياأيهـــا الســـلم المطل على الـــورى ... طـــــوبى لعهـــدك إن تحقـــق طـوبى
مابـال وجهــك بعد طـــول غيـــابه ... يحكــــــى وجـــوه العاشـــقين شحوبا

إنه نداء مخلص للسلام ، الذى افتقدته أمتنا لا لسبب يستحق الحروب ، ولكن لأن الأطماع التوسعية والجشع والشح استولى على البعض ، والشح والجشع ماكان فى أمة إلا أوردها الهلاك ..

كما قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[2]

---

(١) سورة البقرة آية (٢٠٨).
(٢) رواه أحمد ومسلم.

ألا فليعلم من أصروا على الحرب وخوضها وعدم الاستجابة للسلام ماذا جنوا ؟ وماذا جنت الأمة من الحروب ؟

كما قال الشاعر الأستاذ محمود غنيم رحمه الله :

قـم سـائل النيران ماذا أنضـجت	أسـبائكا أم أكبـدا وقلوبـا
وسـل المحيـط الغمـركم تقابـه	قـرت وكـم غصـنا حواه رطيبا أنىّ
مـن فارقـته يداه فى سـاح الوغـى	يصـفق للسـلام طروبـا

إن الفزع والرعب الذى عم البلاد والعباد أمر من الخطورة بمكان بحيث لايقره شرع ولا دين ولامروءة ولا إنسانية بحال من الأحوال ، إن الواجب على المسلمين أن يعتصموا وأن يتحدوا فى هذه المحن وفى تلك الأزمات لا أن يتفرقوا ولا أن يختلفوا ولا أن يعتدوا ، وكما قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1] واجبهم أن يعتصموا بحبل الله جميعا ، لا أن نرى منهم من يقف بجوار الذين يسفكون الدماء ويؤيدون الظلم والعدوان ، ويناصرون الباطل والبهتان .. إن تأييد الباطل مشاركة وإسهام فيه .

وإن اجتماع الكلمة وتوحيد الصف فى مثل هذه الشدائد والمحن أمر مطلوب بل واجب من الجميع لقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2] وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم : قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال »[3] .

إن ماحدث من الجمود على الموقف وعدم الاستجابة إلى نداء السلام وإيقاف الحرب وعدم الانسحاب من الكويت ظلم وعدوان على النفس وعلى الأمة الإسلامية بكل المقاييس، وإن واجب المخلصين لعقيدتهم ودينهم وأمتهم أن يتجردوا من العصبية ، وأن يتجردوا من الذاتية ومن الأنانية ، وأن يكونوا صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

(١) سورة البقرة آية (١٩٠). (٢) سورة آل عمران (١٠٣).

(٣) رواه مسلم ومالك.

إننا كم ناشدنا النظام العراقى أن يثوب إلى رشده وأن يعود إلى الصواب ، وأن يصطلح على ربه وأن يتوب إليه وأن ينسحب من الكويت وأن يعيد إليه شرعيته حتى تضع الحرب أوزارها ، وحتى يحل السلام على أمتنا وكفى ماكان ، فحالنا لايرضى به إنسان .

إن واجب الذين أيدوا سياسة حزب البعث العلمانى أن يفقهوا معنى هذا الحزب العلمانى الإلحادى ، هذا الحزب الذى شوه معالم الدين باسم التقدمية ؟ ألم تقرأوا يامن مالأتم حزب البعث وقيادته عدوانه على الدين ماذا قال زعماء هذا الحرب : قال زعيم حزب البعث : « قد لاترى نصلى مع المصلين أو نصوم مع الصائمين ولكننا نؤمن بالله ، لأننا فى حاجة ملحة وفقر إليه عصيب » . أهناك تصريح بالبعد عن العبادة التى شرعها الله أكثر من هذا ؟ أهناك سخرية من الشعائر أكثر من هذا ؟ بل إنه يزيد الطين بلّة حين يلوح فى سخرية بأن عبادة الإسلام سطحية حين يقول – كما فى كتاب سبيل البعث – يقول : «فالإسلام الأممى الذى يقتصر على العبادة السطحية والمعانى العامة الباهتة ، أخذ فى التفرغ اليوم بالفكر وغدا بالفكر والاسم معا ، ولسوف يجئ يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصا إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء» من كتاب « فى سبيل البعث » نقلا عن كتاب حزب البعث للدكتور سليمان الخطيب .

إننا مطالبون كمسلمين أن نتحاب وأن نتواد وأن نتآلف وأن نتعاطف لا أن يحارب بعضنا بعضا ، لا أن نتدابر ونتقاطع وأن نختلف ..

أيها القوم الذين شايعتم النظام العراقى ، يامن غفلتم عن حق الكويت الجريح ، وأدرتم ظهوركم للقضية الأساسية . اعلموا أننا نحب جميع الشعوب المسلمة ، ولابد أن تكونوا أنتم كذلك فلا نرضى لشعب العراق هذه الحروب ولانرضاها لسائر الدول والشعوب ، قال رسول الله ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » (١) .

فيا من تحكمون لقوم على حساب الآخرين ، لماذا لاتراقبون الله تعالى فى الشعب الذى شرد ؟ والمال الذى نهب ؟ وماأصاب البلاد والعباد . ألا فلترجعوا للحق ، فالحق أحق أن يتبع..

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الطريق إلى حماية الدعوة

تتضح معالم الطريق إلى حماية الدعوة بترسيخ أصول الحق فى أرض الإيمان وبتنقية ماحولها وإضاءة الحياة بهدى الله ، وبالتضحية والجهاد والاستشهاد فى سبيل العقيدة . فأما ترسيخ تلك الأصول فيكون بالدعوة الحارة المخلصة التى تتمثل فيها القوة قبل التوجيه ، وأما تنقية ماحولها فتكون باقتلاع جذور الشك والفساد وصد كل فكر معاد للإسلام ، ورد كل حملات التشكيك المسمومة ، التى يشنها أعداء الإسلام بين فترة وأخرى . وأما إضاءة الحياة بهدى الله فذلك بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة على أوسع مستوى ، وبكل وسيلة من الوسائل ، وفى كل مجال من المجالات ، حتى لاتكون الفكرة الإسلامية غريبة على كثير من الناس الذين لايتيسر لهم دراسة مفاهيم الإسلام وأصوله ، وآدابه ومعاملاته . وأما الجهاد والتضحية فمجال واسع كبير ، يقدم فيه كل مسلم غيور على الدعوة أمين على عقيدته ، من النفس والمال والكلمة .

وطريق حماية الدعوة يتخذ جانبين :

* الجانب الأول : الداخلى .

* الجانب الثانى : الخارجى .

فأما الجانب الداخلى فيكون بتربية النشء تربية إسلامية تتشكل فيها حياة الشباب منذ الصغر تعليما وتوجيها ، وتربية وتدريبا وتقويماً .

وأما مايتصل بالتعليم والتوجيه فينبغى التركيز فيه على حفظ كتاب الله تعالى ، وهذا أهم العناصر ، ومحاولة تقديم تفسيرات متنوعة تتسم باليسر وسهولة الأسلوب وإيضاح المعنى حتى يتغذى شبابنا بغذاء الإسلام ، ويهضم كل منهم تعاليمه ، فينمو الواحد منهم ويكبر وقد سرى فى روحه ودمه وكل كيانه حب الإسلام والغيرة عليه ، والدفاع عنه والحفاظ على تراثه ومقدساته وجميع تعاليمه .

وهذا الغذاء الروحى لابد أن يكون بجانبه غذاء روحى آخر مكمل وموضح له وهو حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وسيرة صحابته والسلف الصالح .

ولهذا الغذاء الروحى أهمية كبرى لاتقل – بل تكثر – عن أهمية الغذاء المادى الذى به قوام البدن والأعضاء لأن فى هذا الغذاء قوام النفس والروح ..

وإذا كان علماء الطب والأعضاء والمتخصصون فى علم وظائف الأعضاء يقولون بأن بعض أنواع الغذاء من طعام وشراب لها دخل فى تكوين الطفل ونموه ، وقوته وضعفه ، وذكائه أو غبائه إلى غير ذلك من الأمور ، فإن فى الغذاء الروحى آثارا بعيدة المدى فى التأثير على قوة عقيدة النشء وعلى أخلاقه وعاداته ، وتقاليده ، وسلوكه فى الحياة وحمايته من المؤثرات الخارجية والتقاليد الوافدة التى تهدم بناء الأخلاق وتقوض الكيان الخيرى فى داخل الإنسان .

وأما مايتصل بالتربية والتدريب والتقويم فذلك يكون عن طريق الأسوة الحسنة فى الوالدين وفى الأساتذة فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وفى الأقران والزملاء والأصدقاء وفى الجماعة الإسلامية بصفة عامة .

ولابد أن تستمد هذه الأسوة من الأسوة الأولى التى أمرنا الله تعالى بها وبالاقتداء بصاحبها صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (1)

وفى مجال التربية والتدريب ينبغى الاهتمام بملاحظة مايقوم به الناس فى معاملاتهم وعاداتهم وسلوكهم وتصرفاتهم من خير أو شر ، فجانب الخير يعطى العناية والتشجيع عليه ، وجانب الشر يقاوم ويناهض بحيث لايترك حتى لايستشرى الفساد ، ويتفاقم الشر والخطر وتسرى عدوى الشر والرذيلة من إنسان لآخر .

أما الجانب الخارجى لحماية الدعوة فذلك بمنع تسرب المجلات الخليعة والكتب الماجنة والصحف المسمومة التى تعمل على نشر الفساد والرذيلة ، ومقاومة الدعاوى الخادعة

---

(1) سورة الأحزاب آية (21).

المزيفة التى تثير الأقاويل وتضخم من أعمال وسلوك الأعداء وحسن معاملاتهم ومقاومة مايثار حول المسلمين من أنهم لاثقة فى وعودهم وأعمالهم .

ومن جوانب حماية الدعوة على الصعيد الخارجى ، مقاومة الغزو الفكرى والثقافات المادية الملحدة التى تحارب الدين ، وتقاوم الفكر الإسلامى بما تثيره من دعاوى زائفة وأفكار مسمومة .

وهناك جانب آخر له أهميته الكبرى وهو نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة على أعلى مستوى وفى أوسع نطاق داخليا وخارجيا فى الصحف والمجلات وفى الكتب والنشرات التى تقدم مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة ، وترد على كل مايثار من أعداء الإسلام وتقدم نماذج لرجال الإسلام والسلف الذين أفنوا أعمارهم فى خدمة الإسلام وحماية دعوته .

ولايمكن أن نغفل أهم ركن فى حماية الدعوة وهو الجهاد فى سبيل الله لنصرة الإسلام وتأمين دعوته وتذليل كل العقبات أمام المد الإسلامى الواسع .

ونماذج المجاهدين فى سبيل الله من سلفنا لاحصر لهم ، والمتصفح لتاريخ الأمة الإسلامية وسلفها يرى مشاهد رائعة ، وبطولات فذة قدمت العديد من المواقف جهادا فى سبيل الله تعالى ، وتضحية بالنفس والمال وبأغلى مافى الوجود .

ولقد كان للسلف جهادهم المشكور وشوقهم العارم إلى الاستشهاد فى سبيل الله لأنهم على يقين بما أعده الله للمجاهدين والشهداء ، يقول خيثمة وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر – لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصا حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها ويقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا ، وقد والله يارسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة فدعا رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيدا .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ؟ وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن

الجموح رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن بنى هؤلاد يمنعونى أن أخرج معك ، وإنى والله لأرجو أن أستشهد فاطأ بعرجتى هذه فى الجنة ؟؟ .

فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقـــال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا .

هكذا كان سلف هذه الأمة التى وصفها القرآن بأنها خير أمة آخرجت للناس . كانوا على جانب من حب الجهاد وحماية الدعوة . والتضحية فى سبيلها حتى إنهم قد نذروا أرواحهم لله وقدموها رخيصة فى ساحة الجهاد والاستشهاد والعزة والكرامة لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فصدقهم الله ما وعدهم به من الفوز فى الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز العظيم..

❁❁❁

الدعوة إلى المحافظة على حرمة الأعراض

الإسلام دين الطهر والعفاف ، صان الأعراض كما صان الأنفس والأموال ودعا إلى حمايتها والدفاع عنها ، وأكد الإسلام حرمات المسلمين ، وفى الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وحماية للأعراض وصيانة لها كفل الإسلام لها حقوقا شرعها الله ، وتتسق وفق ماأحله الله من علاقات نقية طاهرة تتميز بالثبوت والاستقرار وتحكم بحقوق وواجبات تشرق فى ظلها المودة والرحمة ، وتنبثق من خلال المشاعر الإنسانية الوفية والمعاملات النظيفة الراقية . ونفى الإسلام عن المجتمع الإسلامى كل رذيلة من الرذائل وميز عباد الله المسلمين ووصفهم بصفات تتفق مع عقيدتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق وبين أنهم موحدون لا يدعون مع الله إلها آخر ومحافظون على حرمة الأنفس فلا يقتلون ، ومحافظون على الأعراض فلا يزنون . إلى غير ذلك من الصفات .

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١)

وحرم الإسلام الاقتراب من الزنا لأنه من الكبائر والفواحش قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢)

وجريمة الإعتداء على الأعراض من أخطر الجرائم وأكبر الكبائر التى إذا تفشت فى بيئة نشرت التحلل والإباحية وولدت أخطر الأمراض الفتاكة بين مرتكبيها ، وأدت إلى غيرها

(١) سورة الفرقان الآيات (٦٨-٧٠).

(٢) سورة الإسراء آية (٣٢).

من الجرائم . كما أن فيها إهدارا لماء الحياة ولمادتها فى غير موضعها المشروع وطريقها الحلال ، كما ينشأ عن هذه الجريمة تشرد وضياع لمن جاء من الأبناء من طريقها واختلاط الأنساب وفقدان للحياة العزيزة الطيبة النظيفة المحترمة . وهذه الجريمة المنكرة تعتبر من أشد الآفات الاجتماعية خطورة فيما يتصل بالناحية الأخلاقية والناحية الاجتماعية ، ففيها محاربة للحياة الزوجية السليمة ومحاربة للعفة والفضيلة ، وعزوف عن الزواج ، وهى ظاهرة تحللية وفعلة شنعاء لا تظهر إلا فى البيئة البعيدة عن روح الإسلام ،والتى لا تخشى الله وعذابه ، وهى أكثر ماتكون مصاحبة لظاهرة العزوف عن الزواج ، وذلك لأن البعض حين يريد قضاء شهوته بهذه الوسيلة يستهين بشأن الزواج ويرى فيه من الأعباء والمسؤوليات ما يمكن أن ينأى بنفسه عنها ، ويريح حياته منها .

وبتلك النظرة الهابطة الرخيصة ، تصغر الأسر وتقل وتضعف وتتفكك ويضعف أبناؤها جسميا وعقليا وخلقيا . ولما كان الزنا والاعتداء على الأعراض له خطورته وله نتائجه السيئة التى تودى بالأفراد والأسر ، وتهدم كيان البيوت وتقوض دعائم الحياة ، شرع الإسلام عقوبته القاسية لتكون أكبر رادع ومانع من الوقوع فى هذه الجريمة ، فالزانى المحصن يقتل رجما بالحجارة ، والبكر يجلد مائة جلدة .. وتنزل به هذه العقوبة الرادعة على مرأى ومسمع من الناس ليكون فى ذلك أشد الوسائل الرادعة ، وليكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه إرتكاب مثل هذه الجريمة البشعة ،وينهى الله تعالى أن تكون هناك رأفة أو عطف على الجانى حين تنزل به العقوبة حتى لا تتعطل الحدود أو يخفف الحد ، قال الله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

ومن الجرائم التى ترتكب اعتداء على الأعراض (القذف) فمن قذف رجلا محصنا أو امرأة محصنة أو اتهم أحدهما بارتكاب جريمة الزنا ولم يقم البينة والدليل المطلوب شرعا فإنه يجلد ثمانين جلدة وتسقط شهادته ، وهما عقوبتان اثنتان لا عقوبة واحدة ، فالأولى :

---

(١) سورة النور آية (٢).

وهى الجلد عقوبة مادية توقع على جسده ، والثانية : وهى إسقاط شهادته عقوبة معنوية أدبية توقع على كرامته وتظل دائمة . قال الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (١)

وللقاذف من الوعيد الشديد ما يستحقه مما قرره الإسلام فى الكتاب والسنة ، فالذين يقذفون المحصنات الغافلات يرتكبون أكبر الكبائر وتحل عليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم .يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾(٢)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات من السبع الموبقات التى نهى عنها الإسلام وحذر منها الرسول ﷺ وأمر المسلمين باجتنابها .

عن أبى هريرة رضى لله عنه عن النبى ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : يارسول لله وماهن ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » (٤) .

المحصنات : اسم مفعول . أى اللاتى أحصنهن الله وحفظهن عن الزنا والمراد بهن العفيفات ، وأما (الغافلات) فالمراد الغافلات عن الفواحش وماقذفن به .

---

(١) سورة النور آية (٤).
(٢) سورة النور الأيات (٢٣-٢٥).
(٣) سورة النور آية (١٩).
(٤) رواه البخاري ومسلم.

وفيما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة رضى لله عنها أن النبى ﷺ قال لأصحابه : «تدرون أربى الربا عند لله » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال « فإن أربى الربا عند لله استحلال عرض امرىء مسلم» . ثم قرأ رسول لله ﷺ :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (١)

ومن الذنوب التى تمثل اعتداء صارخا على حرمات الناس وأعراضهم (السخرية) ، و (اللمز) و (التنابز بالألقاب) ، و (سوء الظن) ، و (التجسس) ، و (الغيبة) ، و (النميمة) . قد نهى لله تعالى عن هذه الأمور كلها وحذر منها ونادى المؤمنين أن يحذروها ، ناداهم بوصف الإيمان الذى يتنافى مع تلك الآفات ولا يستقيم مع تلك الرذائل

فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)

فلا يجوز لإنسان أن يسخر من إنسان ولا يحل له أن يستهزىء بأخيه أو يسخر منه لأن فى بدنه نحافة أو فى بعض أعضائه علة ، أو لقلة فى ماله أو لغير ذلك من الأمور ، وقد روى أن عبد لله بن مسعود انكشفت ساقه وكانت دقيقة هزيلة فضحك منها الحاضرون فقال النبى ﷺ : أتضحكون من دقة ساقيه والذي نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد» (٣) .

---

(١) سورة الأحزاب آية (٥٨). (٢) سورة الحجرات آية (١١ ,١٢)

(٣) رواه أحمد.

وتأكيداً لحرمة الأعراض ، والحفاظ على كرامة الإنسان وعدم الاعتداء عليه بالتجسس والتطلع إلى أسراره وبيته ، جاء في الحديث المتفق عليه : «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفقأوا عينه»[1] . وقال ﷺ : «يامعشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم إنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»[2] .

❁❁❁

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

مؤلفات أ. د. أحمد عمر هاشم

١ - السنة النبوية وعلومها.

٢ - قصص السنة.

٣ - دعائم الإسلام.

٤ - الإسلام وبناء الشخصية.

٥ - منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق.

٦ - الأخلاق فى ضوء الكتاب والسنة.

٧ - الإسلام والشباب.

٨ - السنة النبوية فى مواجهة التحدى.

٩ - الإسلام وإقرار الأمن.

١٠- من هدى السنة فى العبادات.

١١- من توجيهات الرسول ﷺ.

١٢- قبس من الحديث النبوى.

١٣- فى ظلال الهدى النبوى.

١٤- فى رياض السيرة النبوية.

١٥- المنهج النبوى فى تعليم المسلمين.

١٦- معالم على طريق السنة.

١٧- مناهج المحدثين.

١٨- قواعد أصول الحديث.

١٩- تدريب الراوى (تحقيق) (جـ١ ، جـ٢).

٢٠- الكفاية فى علم الراوية (تحقيق).

٢١- المسند للإمام أحمد بن حنبل (تحقيق) (جـ٢٠,٢١,٢٢).

٢٢- المحدثون فى مصر والأزهر.
٢٣- من توجيهات الشريعة الإسلامية.
٢٤- أضواء من هدى النبوة.
٢٥- شرح وتحقيق صحيح مسلم. (١-٥) خمسة أجزاء.
٢٦- منهج التشريع الإسلامى فى بناء الفرد والأسرة والمجتمع.
٢٧- الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها.
٢٨- (فتح المبدى) (تحقيق) (جـ١، جـ٢، جـ٣، جـ٤).
٢٩- نسمات إيمانية (ديوان شعر).
٣٠- منهج الدفاع عن الحديث النبوى.
٣١- التصوف الإسلامى فى مواجهة الشبهات.
٣٢- التربية الإسلامية للصف الثالث الإعدادى.
٣٣- التربية الإسلامية للصف الأول الثانوى.
٣٤- التربية الإسلامية للصف الثانى الثانوى.
٣٥- التربية الإسلامية للصف الثالث الثانوى.
٣٦- الإسراء والمعراج.
٣٧- رمضان والصيام.
٣٨- فقه الدعوة.
٣٩- أزمة الخليج فى ميزان الإسلام.
٤٠- واجب الأمة الإسلامية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
وصايا القرآن الكريم بأمهات الفضائل	٧
أثر منهج المحدثين في المنهج الأوربي التاريخي الحديث	٢٠
من حرم زينة الله التي أخرج لعباده	٢٩
من خصائص بيت النبوة	٣٥
استقلال الشخصية الإسلامية	٤٠
المسجد الأقصى ومكانته في الإسلام	٤٤
الدعوة إلى التضامن لنصرة الأقليات الإسلامية	٤٩
ماء زمزم في ضوء السنة النبوية	٥٥
البلاغة النبوية	٦٥
تدوين السنة	٧٣
الرواية في الإسلام	٨١
الشباب في ضوء الكتاب والسنة	٨٧
دلائل الإيمان في خلق الإنسان وفي الكون	١٠٦
الاعتدال بين المادية والروحانية	١١٣
التعليم الإسلامي بين النظرية والتطبيق	١٢٠
مكانة الحرمين الشريفين	١٢٦
الأبرص والأقرع والأعمى الذين امتحنهم الله	١٣١
أفضل الصدقة	١٣٥

الموضوع	الصفحة
لأقضين بينكما بكتاب الله	١٣٨
يوم الجائزة	١٤٤
دروس من الهجرة	١٤٨
عباد الرحمن	١٥٣
الوحدة سياج المجتمع	١٦١
السنة النبوية فى مواجهة التحديات	١٦٥
هدية المسلمين ليوم الجمعة	١٧٢
أولى الحقوق فى العلاقات الأسرية والإنسانية	١٧٦
التهجد	١٨١
الاستخارة	١٨٣
أهمية القدوة فى بناء الفرد والمجتمع	١٨٦
منزلة السنة النبوية فى الإسلام	١٩٠
دعوة الإسلام إلى حقوق الإنسان	١٩٧
تحريم أكل أموال الناس بالباطل	٢٠٢
نهاية أعداء السلام وأعداء الإسلام	٢٠٥
مأساة الغزو العراقى وواجب العرب والمسلمين	٢١٠
فى تطبيق الشريعة أمان ورخاء	٢٢٥
لغة القرآن والسنة	٢٣١
دلائل القدرة الإلهية	٢٣٧
الزكاة على الأقارب، والإنفاق من أحب المال	٢٤٢
الأسرة وعلاقاتها	٢٤٥
من ركائز التضامن الإسلامى	٢٤٧

الموضوع	الصفحة

فى رحاب الرسول صلى الله وعليه وسلم	٢٥٦
الصدقة فى كل أنواع المعروف	٢٦٠
غنى النفس	٢٦٤
فى منهج الإسلام أمان من الإنحراف والضلال	٢٦٨
فطرة الله	٢٧٢
من دروس رحلة الإسراء والمعراج : الإسراء والوحدة	٢٧٥
فى رحاب الدعوة الإسلامية أهمية التعرف على أحوال السكان	٢٧٩
دروس من أزمة الخليج	٢٨٧
الطريق إلى حماية الدعوة	٣٠٢
الدعوة إلى المحافظة على حرمة الأعراض	٣٠٦

رقم الإيداع ٣١٠٦/٩٤
I. S. B. N 977-215-128-6